Uneven pages within the book only.


190591

يطلب من



MOLVI MOHAMMED BIN GULAMRASUL SURTI'S SONS

- BOOK Sellers, Printers & Publishers, Jamli Moholla, BOMBAY: 3.

*

مكتبتنا

الجزء الاول



البدائع

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم

الدكتور زكي مبارك

الطبعة الثانية

سنة ١٩٣٥ م — ١٣٥٤ هـ

يطلب من

المكتبة المحمودية التجارية بميدان الجامع الأزهر بمصر

*

الاهداء

إلى الطبيب الموفَّق

الدكتور محمد عبد الحى

اهدى هذا الكتاب .

المخلص

زكى مبارك

مصر الجديدة فى أول رجب سنة ١٣٥٤ﻫ

طبع فى

المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر

*

أما الصدق فالناس جميعا يشهدون أثره فيما نشرت من الرسائل والقصائد ، وقد أفصحت عن سرائر نفسى مرات كثيرة ، أظهرها ما جاء فى كتاب « ذكريات باريس » إذ أقول :

« وأعود إليك ياصديقى فأخبرك أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب : فقد فهمت كل شىء وعرفت كل شىء ، وبقى قلبى كالغابة فى ضمير الظلماء . فان قلت لك إنى أشكو خيبة فى الحب ، أو إخفاقا فى المجد ، أو غدرا من الأصدقاء ، فاعلم أن هذه كلها محرجات هينة تزعج النفس لحظة ثم تزول . وأكاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصداقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم ، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الأحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما فى أنفسهم من القلاقل والثورات

وأنا لم أنجح فى شىء من ذلك : لأن استقلال إرادتى حال بينى وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات أو حزب من الأحزاب فانا عند أنصار الحزب الوطنى شعبى يناصر الوفديين ، وعند الوفديين وطنى يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب

وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار وفاجر عند الأبرار ، فانا فى كل بيئة أجنبى وفى كل أرض غريب »

وأما الوضوح فهو عندى ميزة أصيلة ولا أكاد أخط سطرا إلا بعد أن تتمثل الفكرة أمامى فى مثل بياض الصبح المشرق ، وما عرضت لمعنى دقيق إلا كشفته ، ورفعت عنه أستار الغموض ، وتركته يصافح القارئين وكأنه من البديهيات

ويضاف إلى هاتين المزيتين مزية ثالثة هى الحيوية العنيفة فى نقد الآراء ، فانا فى كل ما أكتب وما أقول محارب لا يرى الحياة إلا

فى حومة القتال ، وليس الأدب عندى مزاحا أتلهى به فى الأسمار والأحاديث ، وإنما هو عراك فى ميادين الفكر والعقل والخيال

وهذه المجموعة التى سميتها البدائع تمثل مذهبى فى الأدب أصدق تمثيل ، وما ترونه فيها من الكلام عن الأشخاص لا يقل حيوية عما تحدثت عنه فى عالم المعانى ، وقد وفقت إلى رسم شخصية الشيخ محمد المهدى والشيخ سيد المرصفى وهما إمامان نسيهما الناس ، واستطعت أن أدل القارئ على بعض الملامح من اسماعيل رأفت ولطفى السيد وتحدثت عن السباعى وشوقى وحافظ باسهاب ، أما الغراب طه حسين فقد ترفقت به وزففته إلى قراء البدائع فى جلوة طريفة ستنتقل أخبارها من جيل إلى جيل

يبدو كتاب البدائع فى الطبعة الثانية وكأنه كتاب جديد ، كان جزءاً واحدا فأصبح جزأين ، ونظر المؤلف فى الطبعة الأولى فحذف منها اشياء كثيرة لم يرها اهلا للطبعة الثانية ، وكان فى الطبعة الأولى اشعار كثيرة فاكتفى المؤلف بحياتها فى الديوان ، ولم يثبت فى الطبعة الجديدة إلا قصيدة « ساعة حب » التى نظمها بعد ظهور الديوان

وقد حرص المؤلف على تأريخ الرسائل ليستطيع درس نفسه حين يشاء ، أو حين يشاء التاريخ ، فسيكون لمؤلف « النثر الفنى » منزلة فى تاريخ الأدب بعد أن تفنى النزوات الوقتية التى يمليها الحقد على خصومه من أبناء الزمان

فان رأيت ايها القارئ شواهد من اختلاف الفكرة والأسلوب فتذكر انى اردت ان أدلك على التطور الذى اتصل بشخصية زكى مبارك من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٣٥

وفى هذا الكتاب فصول كان كتبها « الفتى الأزهرى » بين

سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٢ والفتى الأزهرى صديق حميم كان ألف لجنة لاصلاح الأزهر والمعاهد الدينية ، وكانت رسائله يوم صدورها ثورة فكرية ضج لها المسئولون فى تلك المعاهد وتركت فى أنفسهم أثرا بليغا

وإنما اثبت رسائل « الفتى الأزهرى » لتكون صورة تاريخية للحياة الأزهرية ، ويسرني ان اسجل ان الأزهر تطور فى حدود ما رسم « الفتى الازهرى » من ضروب الاصلاح والتجديد لذلك البيت العتيق

وفى الكتاب فصول كتبها المؤلف وهو فى باريس ، وبعض تلك الفصول يشرح الحياة التعليمية فى البلاد الفرنسية ، وبعضها يشرح ما فى باريس من ضروب الغي والرشد والعقل والجنون

وفى الكتاب فصل مطول عن دواعى الشعر كان نشره المؤلف في جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ وفيه حوار بين المؤلف وبين السيد حسن القاياتى ، ومزية هذا الفصل أنه يسجل انزواء الشعراء فى ذلك العهد ، ويبين كيف انطوت صحيفة الشعر فى أيام الدماء ، وما أردت باستبقاء هذا الفصل أن أتجنى على فلان أو فلان ، وإنما هو واجب نؤديه لذمة التاريخ

وقد خلا الكتاب من الذكريات السياسية فلم يقع فيه من ذلك غير رسالتين، أولاهما كتبها المؤلف وهو معتقل سنة ١٩٢٠ والثانية كتبها أخيرا عن ذكرى شهر مارس سنة ١٩١٩ ولم يرد باثبات هاتين الرسالتين إلا تسجيل حالة نفسية عاناها واكتوى بنارها يوم كان من خطباء الثورة المصرية

وفى الكتاب أقباس من النزق والطيش أبقاها المؤلف وهو

كاره ، لأنه يعلم أن من حق نزواته وبدواته أن تسجل فى كتاب ، وفى النزق والطيش عناصر من نور الحق لو يعلم المتزمتون ، وهل كنت أول كاتب سطرت يمناه ما يملى الهوى والوجدان حتى أطوى ما كتبت فى اللهو الجامح والوجد المشبوب ؟

ومن العجب والله أن نعتذر عن تسجيل ما أملته سرائر القلب والروح ، ولكن هذا الاعتذار هو الشاهد على ما يسود هذا العصر من التزمت والرياء

ألم يكف مانعانى من لؤم الحاسدين والحانقين ؟

ومن هو الرجل الصالح الذى تفرض علينا تقواه أن نطوى ما كتبناه فى الوجد والتشبيب ؟

أكتب هذا لمن عساه يعترض حين يرانى أقول فى رسالتى عن عيد الحرية فى باريس :

« إن الفوز الأكبر أن يكون الرجل ابن قلبه وعقله وروحه أما هذه الصور التى لا تضحك ولا تعبس إلا وفقا لشائع الأهواء والأغراض فهى أقل حياة من الدمى والتماثيل ، وأين يكون أصحابنا المتزمتون من الدمى والتماثيل وهى لم تصنع إلا لتمثيل ما دق ولطف من وثبات العقول ، وشهوات القلوب ، ونزوات النفوس »

يشهد القارىء فى هذا الكتاب طوائف مختلفة من الصور الوجدانية والأدبية والاجتماعية ، وما أدعى أن القارىء سيرضى عنها جميعا ، وهل فكرت فى رضاه حتى أنتظر منه ذلك ؟ ولكنه سيؤمن ولا ريب أنه يواجه شخصية مستقلة تمام الاستقلال ، فان رأى علما فهو علم المؤلف ، وإن رأى جهلا فهو جهل المؤلف ،

ومن الناس من يعلم عن جهل ، ويجهل عن جهل ، كما يتفق للغراب

« طه حسين »

فى هذا الكتاب صورنا الحيـــاة كما عرفناها بالعقل والقلب والوجدان ، فلم يأسرنا أحد من أهل المشرق أو المغرب ، فان رأى القارىء أطيافا لما قرأنا فى الآداب العربية والفرنسية فليعلم أن ذلك لم يقع إلا طوعا لتجاوب العقول والقلوب ، وليعرف أنا كنا صادقين يوم قلنا فى مقدمة الطبعة الأولى :

« ما بال فريق من الناس يؤمنون بما خلقت له أيديهم وأرجلهم وعيونهم وآذانهم ، ثم يرتابون فيما خلقت له عقولهم ؟ فلا وربك لا يؤمنون حتى يعرفوا أن المؤمن عن نعمة العقل مسئول . وما كنت لأعق العقل وقد حكمه الله يوم هدانى إلى الايمان ، فمن كان يريد أن يرى غضبتى للحق وعبادتى للجمال ، فليقرأ هذا الكتاب ، ومن كان يريد أن يرى صورة مكررة لمن سلف من الكتاب والشعراء ، فليعلم أن الخمول أحب إلى من أن أكون صدى لأحد من القدماء ، أو المحدثين ، وما أهون التضحية فى سبيل الابداع إذا انحصرت فى الخمول »

***

أما بعد : فالى قراء اللغة العربية أقدم هذا الكتاب راجيا أن يقع من المنصفين منهم موقع القبول ، وأسأل الله أن يتجاوز برحمته عما أخشى أن يكون وقع فيه من عنف الرأى وطغيان البيان

زكى مبارك

*

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العهد الماضى

تمهيد

كتب الدكتور طه حسين فصلا ممتعاً فى المقتطف عن « النثر العربى فى نصف قرن » تناول فيه طائفة من المسائل التى تعنى مؤرخ الآداب حين يراجع أساليب الكتاب واتجاهاتهم العقلية فى الخمسين سنة الماضية ، وأعفى نفسه من التحدث إلى القارئ «عن شخصيات الكتاب الناثرين فى مصر وغير مصر ، وآثار هذه الشخصيات فى أساليبهم النثرية » وقد رأيت بهذه المناسبة أن أتكلم عن شخصية واحدة من شخصيات الكتاب فى العهد الماضى ، وهى شخصية رجل عرفته وصحبته وأخذت عنه : هى شخصية المرحوم الأستاذ الشيخ محمد المهدى بك ، المتوفى فى ١٦ يناير سنة ١٩٢٤

حياته وآراؤه

ولد المرحوم الشيخ محمد المهدى فى قرية من قرى مديرية الشرقيه ، وطلب العلم فى الجامع الأزهر وفى مدرسة دار العلوم وقام بطائفة من الأعمال العلمية أهمها تدريس آداب اللغة العربية

بمدرسة القضاء الشرعى والجامعة المصرية ، وأشهر الأساتذة الذين تلقى عنهم : الشيخ محمد عبده ، والشيخ حمزة فتح الله ، وأشهر من أخذ عنه من رجال الأدب : الدكتور طه حسين . وله معه مواقف فى النزاع بين القديم والجديد كانت تصل أحيانا إلى الجدل العنيف.

كان الأستاذ المهدى أول من تلقيت عليه الأدب فى الجامعة المصرية ، وقد صحبته فيها أربع سنين ، وسمعت محاضراته عن عهد الجاهليه ، وعهد بنى أمية ، وعصر بنى العباس ، وخص الأدب فى الأندلس بسنة كاملة كانت من أخصب سنيه فى العهد الأخير ، وكنت أصل جناحه بعد المحاضرة حتى يصل إلى المحطة ، وقد كان رحمه الله يؤثر سكنى الضواحى على سكنى العاصمة ، فكانت الفرص كثيرة لمخاطبته فى شتى المسائل وشجون الحديث ، ويمكن الحكم بأنه كان من نوادر الأساتذة الذين فهموا روح هذا العصر ، واستمعوا نداء هذا الجيل .

كان يؤثر اللغة الفصيحة فى جميع محادثاته ، وكان يتحرز من اللحن ويتوقاه كما يتوقى الحر مدارج الهوان ، وكان يرى من الممكن أن نتفاهم مع جميع الطبقات باللغة الفصيحة ، ولا يكلفنا ذلك أكثر من اختيار الألفاظ المألوفة حين نحاور من لا يفهمون الجزل من الكلام الفصيح ، وكان كثيرا ما يتهكم بعلماء الأزهر حين يلحنون وهم يعربون فى مثل عبارة « مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة » وقد نشأ عن حرصه على اللغة الفصيحة أن ذاعت عنه الفكاهات والملح

بين زملائه وبين تلامذته ، فهذا يقول إنه اختلف مرة بسبب لغته مع سائق الترام ، وذاك يقول إنه ساق أحد الباعة إلى القسم بعد أن تلاحيا : أولهما بلغة السوق وثانيهما بلغة القرآن !

وكان من رأيه أنه يجب أن لانهجر الألفاظ الغريبة فى الكتابات الأدبية والعلمية والفنية ، لأن غرابة الألفاظ لم تنشأ إلا حين هجرها الأدباء والعلماء والفنيون ، فلو أننا أحيينا فى كل رسالة كلمة أو كلمتين لبعثنا ميت اللغة وأثرنا دفين التعابير ، وكان لنا من ذلك غناء أى غناء

كان رحمه الله من المجددين ، مع شىء من الحيطة والحذر ، فربى ابنته تربية حديثة ومكن لها من ورود مناهل العلم فى الغرب ، وزار بنفسه العواصم الأوروبية ، وإن لم يتكلم غير العربية ، وكان لكل مدينة فى نفسه تقدير خاص ، ولا يزال تلامذته يتندرون بقوله فى وصف إحدى الحواضر الاسبانية «تصر فى منديل» ! وتزوج فى أخريات أيامه امرأة جميلة ، وقد حدثنى رحمه الله أنه اشترط « أن يرى وجهها وأن يسمع صوتها » إذ كان يعتقد أنه لا قيمة للوجه الحسن بدون الصوت الجميل ، وكان كثيراً مايسوقه مثل هذا الحديث إلى الكلام عما فعلته الخنساء حين اختبرت من جاء يخطبها لنفسه ، فلما زهدت فيه قال :

وتزعم أنى شيخ كبير فهل حدثتها أنى ابن أمس ؟

وكان الأستاذ يقول وهو يؤكد وجوب اختيار الزوجة «إنك لاتشترى حزمة فجل قبل أن تقلبها ؛ فكيف تأخذ العشيرة قبل أن

تعرفها » وكان يأسف على حرمان المرأة من النهوض ، ويعجب من استصغار حملة الأدب ورواة الشعر لشأن المرأة ، وغمطهم من حقها وإهمالهم الأدب إذا كان من جانبها ، وقلة عنايتهم بتدوينه إذا كان مرويا عنها ، ويقول : « فان لم يكن ذلك كذلك فما بالنا نسمع من أسماء الشواعر فى الجاهلية العدد العديد ولا نرى لواحدة منهن ديوانا حافلا مجموعاً مرتبا مشروحا كما نرى ذلك لأكثر الشعراء ، فقد عنى العلماء بدواوينهم رواية وشرحا وترتيباً ومفاضلة ، وبذلوا وسعهم فى إظهار معانيها المخترعة ومقابلة بعضها ببعض ، ومآخذ المشترك منها والموازنة بين المأخوذ والمأخوذ منه ، ومقارنة الديباجة والوضوح والمتانة والسلاسة والسلامة من عيوب اللفظ وما شاكل ذلك بنظائرها من كلام الشاعر الآخر ، ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية لشاعرة من شواعر الجاهلية فيما أعلم ، حتى الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه فى ديوان ليحفظ ، كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال » وكان يعزز رأيه هذا بأن أبا زيد القرشى قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجىء فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، مع أن فى كلام ليلى العفيفة وجليلة بنت مرة والخنساء وليلى الأخيلية ما لا يذكر بجانبه شعر كثير من أصحاب المذهبات والمشوبات والملحمات والمنتقيات ، وأن المفضل الضبى اختار مائة وعشرين قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من

بنى حنيفة ، ثم يقول : « فهذه مكانة شعر النساء فى نظر المؤدبين والرواة والعلماء فى ذلك الزمن ، وكأنما الذين جاءوا بعدهم احتذوهم حذو النعل بالنعل ، فما رأيتهم دونوا شعر ليلى الأخيلية فى ديوان كما دونوا شعر المجنون ، ولا شعر علية بنت المهدى كما دونوا شعر أبى العتاهية ، ولا دونوا شعر ولادة بنت المستكفى كما دونوا شعر ابن زيدون ، وقس على هذا سائر الفضليات بعدهن ، خصوصا بعد سقوط بغداد ثم أفول قرطبة . فان شعر المرأة فى هذا الزمان قد اختبأ تحت جهالات الرجال ، ولم يظهر منه إلا بروق لا تلبث أن تزول » وقد وصل بدراسته الدقيقة إلى أن الفروق بين أشعار الرجال وأشعار النساء من جهتين : الأولى من جهة صفة الشعر والثانية من جهة فنونه . وملخص الجهة الأولى أن شعر المرأة يجلى أخلاقها أكثر مما يجلى شعر الرجل أخلاقه ، وأنه يدور حول موضوعها ولا يكاد يخرج عنه ، وأنه بعيد عن الحوشية قريب من الفطرة ومتناول العامة ، وأنه أصرح من شعر الرجل لأنها لا تكاد تبقى شيئًا فى نفسها ، وأنه أشد أثرا فى النفوس من شعر الرجل وخصوصاً ما كان منه فى الفجائع . وأما من جهة الفنون فقد هجرت المرأة وصف الجمال ومجالس الشراب لغلبة الحياء عليها ولاستقباح ذلك منها ، وأن مادتها أغزر من مادة الرجل فى الرثاء .

أسلوبه فى الالقاء والانشاء

كان رحمه الله من أبرع الناس في الالقاء ، وأجملهم فى الأداء ،

كان فصيح المنطق حلو اللسان ، لا يمل حديثه ولا خطابه ، وإن طال. وكان ينشد الشعر كما يجب أن ينشد ، وكما يتمنى قائله أن ينشد . ولقد كان ينشد الشعر وهو يحاضر فى الجامعة المصرية فيقع من نفسى ومن أنفس السامعين أجمل موقع ، فاذا عدت إلى الشعر نفسه فى مظانه وجدته دون ما سمعت فى الروعة والجمال ، وعلمت أن لأسلوب المحاضر فى الأداء أثرا كبيرا فى تكييف النثر الجيد والشعر البليغ

أما منهجه فى الانشاء فهو إيثار الصراحة والوضوح والجلاء وأسلوبه فى الكتابة من الأساليب النقية الجميلة ، وهو عندى أبرع كتاب مصر فى المدة التى أرخها الدكتور طه حسين ، لولا أنه كان من المقلين

مثال

أراد رحمه الله أن يحدد (معنى الأدب) فقال :

« الأدب مصدر أدب الانسان فهو أديب ، ومثله أرب فهو أريب ، إذا صار فيه خلق يدعو إلى المحامد ، وينهى عن المقابح . والتأديب التقويم على أشرف الخلال ، ومنه الحديث : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى» والأدب والتأديب بهذا المعنى يكادان يدخلان فى كل شيء . ولهذا قسما إلى أقسام لا تكاد تنحصر ، فكانا فى النفس والدرس والمعاملة والمعاشرة وفى طبقات الناس وفى الأمم ، وفى الأكل والشرب والنوم واللباس والحديث إلى غير ذلك من كل ما

يعوزه التقويم . وقد أفرد له العلماء التآليف في فنونه الكثيرة وضروبه المختلفة ، وقام المصلحون في كل أمة بالدعوة إليه على وجهه الصحيح ، ولتشعب هذه الأقسام وصعوبة لمح الذهن لها جميعاً انحازت للأدب في الأذهان معان عدة متوزعة في أذهان الناس فاذا أطلقت كلمة الأدب في حفل من غير إضافة ولا قرينة ذهبت الظنون فيها مذاهب ، وفهمها كل قوم على مقدار ماتبين لهم من معناها بعرف أو دين أو قانون أو اصطلاح

وقد كانت هذه الحال عند العرب أنفسهم : فانا رأيناهم يطلقونه على معان عدة لا تكاد تخرج عن المعنى العام لها . فانهم يطلقونه على الظرف ، ويريدون منه تارة البراعة وذكاء القلب ، وتارة الحذق بالشيء ، وقد يريدون حسن الهيئة وحسن التناول ، وربما أرادوا به الظرف في اللسان وهو ضرب من الأدب ، ومنه قول عمر رضي الله عنه في الحديث : إذا كان اللص ظريفاً لم يقطع . ومعناها : إذا كان بليغاً جيد الكلام احتج عن نفسه بما يسقط عنه الحد . ومثل ذلك إطلاقه على الكياسة ، وقد جاء في حديث ابن سيرين : الكلام أكثر من أن يكذب ظريف . ومعناه : أن الظريف لا تضيق عليه معاني الكلمات فهو يكني ويعرض ولا يكذب . وقد اجتاز العرب هذا الحد ، وأطلقوه على الرياضة والخضوع في الدواب ، ومنه قول مزاحم العقيلي :

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل

فقد سمي الجمل أديباً

« وإذا كانت هذه المعانى وأشباهها فى لسان العرب فليس من البدع أن يذهب مدونو الأدب فى تدوينه طرائق ، كل على حسب المعنى الذى مثل فى ذهنه : فمن نحا به نحو الخلق وطهارة النفس وتهذيبها من أدران الرذائل ألف فى مكارم الأخلاق ، وسمى تأليفه أدبا . ومن نحا به منهم نحو حسن التناول ألف فى محاسن المعاشرة والتعامل ، ومن نحا به منهم نحو الظرف فى اللسان وهو البراعةوذكاءالقلب ألف فىالنوادر والأجوبة المسكتة والطرائف المستملحة ، وسمى ذلك أدبا . ومن نحا به منهم نحو الصواب فى المنطق وصون اللسان عن الخطأ فى كلام العرب ألف فى الفنون العربية ، والناحون هذا المنحى هم حملة اللسان إلينا وهم السوادالأعظم من مؤلفى الأدب ، وهم طوائف كثيرة ، نظرت كل طائفة إلى حال من أحوال اللفظ العربى وألفت فيه : فنظرت طائفة إليه من جهة معانيه فدونت معانى الألفاظ ، وهم علماء متن اللغة . ولحته فئة من جهة هيئته وصورته فألفت علم الصرف ، وتتبعه قوم من جهة انتساب بعضه إلى بعض بالأصالة و التوليد فألفوا علم الاشتقاق ، وتأمله آخرون من جهة تركيبه وأحوال أواخر مفرداته فى التراكيب فألفوا علم النحو . واتجهت طائفة إليه من ناحية الأسلوب ومطابقته لمقتضى حال الخطاب فألفت علم المعانى ، وتفقده آخرون من جهة مراتب وضوحه فألفوا علم البيان ، وبهر قوما محاسنه اللفظية والمعنوية

فألفوا البديع . ولمح قوم الموزون منه فألفوا العروض والقافية ونظر قوم إلى الثمرة من كلام العرب وأنها القدرة على البيان قولا وكتابة فألفوا فن الانشاء وهو الاجادة فى المنثور ، ونظر آخرون إلى محاكاته بالموزون فألفوا قرض الشعر ، وقوم رأوه من جهة رسمه ودلالته الكتابية فألفوا الخط ، وآخرون رأوه من جهات عدة فقطفوا من كل روض زهرة وألفوا فن المحاضرات وهو لا يختص بشىء »

ثم قال « بقى أن ننظر إلى المراد بالأدب هنا فى دروس الجامعة فنقول : المراد منه كل ما ينمى ملكة اللغة فى اللسان والقلم وتربية الذوق فى الاختيار والانشاء ، والارشاد إلى مناهج النقد الصحيح والوسيلة إلى ذلك اختيار الرائع من الأساليب والرائع من المعانى وعرضه على الطلبة لبيان وجوه الحسن فيه ؛ والمقارنات بين الفحول من الشعراء ، والمصاقع من الخطباء ، والبلغاء من الكتاب ، وبيان وجوه التفوق مع الالماع إلى أمهات المسائل من فنون اللغة أثناء الموازنات والنقد ، ومعرفة أذواق العصور المختلفة والنص على أجودها وأسلمها . وهذا مؤد إلى الالمام بشىء من تاريخ الأدب لربط الموضوعات بعضها ببعض مما لا يسع الأديب أن يجهله ولا يتم له العلم بدونه كالأغراض التى قيل فيها الشعر ، والبواعث عليه من السياسة والجوائز والعشق ، وكتقسيم الشعراء فى بعض العصور إلى أحزاب وبيان أثر كل حزب ، فان ذلك مما يتوقف عليه فهم مرامى

أشعارهم ، وكذكر تاريخ الشاعر الموازن أو الخطيب أو الكاتب أو المؤلف وأثره ومؤلفاته ، وماذا بقى منها وما الذى وصل إلينا »

نقد هذا المثال

يرى القارىء أن هذه الكلمة التى حدد بها كاتبها «معنى الأدب» غاية فى الوضوح والجلاء ، وهى تاريخ مضبوط لتطور كلمة الأدب وتنوع مدلولها فى مختلف العصور ، وهى كذلك غاية فى الاحاطة والشمول ، ويبعد أن تجد فيها أثراً للضعف أو الغموض أو الاضطراب . وقد اقتطفنا هذه الكلمة من المحاضرة التى ألقاها رحمه الله فى الجامعة المصرية فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١٦ وهى تدل على تطور معنى الأدب وتاريخه فى نفسه أيضاً ، فقد رأيته يتردد وهو يحاضر بالجامعة فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٣ فى التفرقة بين الأدب وبين تاريخ الأدب ، ويكاد ينكر أن يكون بين الأدب وتاريخه فرق ، أو أن يكون لكل منهما وجود خاص ، وقد كان هذا التردد طبيعيا فى ذلك الحين إذ كان هذا الفن حديث النشأة فى اللغة العربية ، وكان الباحثون فيه لا يجدون ما يحتذونه من نماذج القدماء أو المحدثين على أنه رحمه الله ظل إلى أخريات أيامه يعتمد فى دراسة الأدب على تفقد ما للشعراء من نضارة الديباجة ، وبلاغة المعنى ، وغزارة الفنون ، وحضور البديهة ، وقلة السقط ، وكثرة الغوص على المعانى وجمال الأخذ ، ووفرة المادة ، وبراعة الأسلوب ، وكان هذا يضطره فقط « إلى الالمام بشىء من تاريخ الأدب لربط الموضوعات

بعضها ببعض» كما قال ، وكذلك ظل منهجه منهجا وسطا بين الأساليب القديمة والمناهج الحديثة ، فلم يكن يسلك سبيل المؤلفين المتقدمين الذين كانوا يجمعون فى كتبهم بين الشعر الجيد ، والنثر المختار والحكم المأثورة ، مع ذكر شيء من المشاهد والأيام والمفاخرات والمنافرات ، ثم يستطردون إلى شتى المسائل فى التصريف والاعراب ، ثم يعودون إلى التحدث عن أخبار الملوك ، ونوادر الشعراء والخطباء ؛ ولم يكن يسلك سبيل المجددين فى تاريخ الآداب الذين يرون من الواجب درس الحياة الاجتماعية قبل نقد آثار العقول ويرون من الواجب كذلك أن يدرس سقط القول كما يدرس جيده وأن يتتبع الناقد حياة من ينقده من الكتاب والخطباء والشعراء والمؤلفين ليرى كيف كانت ألوان نفسه فى أشكال حياته — ولكل حياة طائفة من الأشكال — وإنما كان يحاول رحمه الله أن تكون أبحاثه متعة من متع النفس ، لا دروساً تتناول بالنقد والاختبار والتحليل ماترك لنا الأولون من أثر قوى أو ضعيف.

والذى يعنينى من ذلك كله هو أسلوبه الخالص من شوائب الضعف والتكلف ، والبريء من موجبات اللبس والغموض وقد يتعذر أن يجد فيه القارىء جملة تنقصها كلمة ، أو يمكن فيها الاستغناء عن كلمة ، وإني لأشبهه بالصيدلى البارع الذى يحكم الجمع بين أجزاء الدواء بحيث لو حذف جزء لأصبح الدواء ضاراً أو غير مفيد.

مثال ثان

وأراد أن يمهد للموازنة بين الخطباء فقال :

« ليت وهل ينفع شيئاً ليت ! ليت مخترع الحاكى كان حياً فى السنين الخوالى وأسعد التاريخ والعلم والأدب بحفظ أصوات الخطباء وهم يتدفقون على منابرهم تدفق السيل فى منحدر الوادى حتى إذا حاولنا أن نقارن اليوم بين خطيبين أحضرنا منهما صورتين ناطقتين لايفوتنا منهما إلا رؤية أشباحهما فحكمنا حكما دليله اليقين المحس به لا الظن المتحسس منه . وكان طريق الاستنباط من المسموع ميسوراً لكل سامع ، لاكطريق الاستنباط من المكتوب الذى قطعه التاريخ فتقطعت به سبل العلم ، وأنفق الباحثون أموالهم وأعمارهم فى جمع شتاته ، وقلما يجدون جزءاً يلتئم مع جزء

ماذا تفيد الأمانى ! قد انهار هذا الركن الركين من بناء الموازنة التى نحن بصددها بموت أولئك الخطباء ، ولم يجىء فى بال الأولين من الرواة والكتاب أن يصوروا لنا فى روايتهم عنهم ، وكتابتهم فيهم ، حالهم فى الأداء ، وكيف كانت أصواتهم فى مفاتح الخطب ومقاطعها، وعند الطلب والاستنهاض والاسترحام والاشفاق والرجاء والغضب والرضا والحياء والبذاء والتواضع والاستكبار والشجاعة والجبن والتسرع والتأنى والافحام وإقامة الحجة ، وما شاكل هذا من أطوار الخطباء — وقد كنا نتهم أنفسنا بقصر النظر وقلة البحث ونبرىء الأولين بحسن ظننا فيهم أن يكونوا قد فاتهم هذا ، فبحثنا

جد البحث فى المظان التى وصلت إلينا فما شفينا منها غلة ، ولا وصلنا إلا إلى شىء قليل من غير طلبتنا كلباس الخطيب وإشارته واتخاذ المخصرة والاتكاء عليها والاشارة بها ، ونحو هذا مما هو قشور بالاضافة إلى اللب المتروك . وإن أعجب من هؤلاء فعجبى من أنفسنا اليوم أشد ؛ فاننا فيما أعلم لم نقيد خطبة واحدة فى الحاكى من خطب مشهورينا ، وقلما يشير كتابنا إلى صوت الخطيب إذا نوهوا بخطبته وأكثرهم لا يزيد عن مثل قوله « أجاد وأفاد ، وأغرب وأطرب وسحر وبهر ، وجال فى كل مجال ، وتفتحت له الآذان ، وشخصت له الأبصار ، وأخذت الدرر تتحدر من فيه تحدر اللآلىء من العقد النظيم » وهكذا من كل ما يفيد التقريظ العام ، ولا يصور من الخطابة إلا صورة مبهمة ، ولم نر من عنى من الأدباء وأصحاب الصحف بوصف خطابة من خطب من عصرنا وصفاً ممثلا من جهة الأداء كأن يقول : « إن صوت الخطيب كان عند هذه الجملة عالياً ، وعند هذه منخفضاً ، وعند تلك يكاد يكون همساً ، وعند كذا كان صياحا أو كان بطيئا فى كيت سريعاً فى ذيت ، أو كان يقول والألفاظ تواتيه كأنه يقرأ من صحيفة أو تتعاصى عليه كأنه يقتلع صخراً ، أو يتحسس منها كالذى ينشد الضالة ، أو أنها كانت مرتبة متناسقة ، أو مقتضبة مفككة ، أو غير ذلك مما يشخص مجموعه الخطابة . ومن منا استفاد تشخيص خطابة المرحوم عبد الله افندى نديم مما كتبته عنه الجرائد والمجلات ؟

هذا عيب من عيوبنا القديمة يجب أن يتقيه قادة الكتاب اليوم حتى يكونوا أسوة لسواهم — وإذا كانت الموازنة بين أصوات الخطباء المتقدمين غير ميسورة؛ وفاتنا أن نقارن فى جهارة الصوت وهزاته وإيقاعه ومخارج الحروف والطلاقة والاحتباس كما فاتنا أن نقارن بين وحى الملاحظ وحركات الاستحسان من الجمهور، فلا يفوتنا أن ننظر إلى الوجوه التى أبقى لنا التاريخ صورها ونقارن بينها » إلى آخر ما قال

نقد هذا المثال

فى هذه الكلمة تظهر تلك العقلية السليمة ظهوراً قويا، ويرى القارىء كيف تمثلت فكرة الخطابة فى نفس ذلك الباحث الفنان فهو يتمنى لو أن الحاكى كان حيا فى السنين الخوالى وأسعد العلم والأدب والتاريخ بحفظ أصوات الخطباء « حتى إذا حاولنا اليوم أن نقارن بين خطيبين أحضرنا منهما صورتين ناطقتين، لا يفوتنا منهما إلا رؤية أشباحهما فحكمنا حكما دليله اليقين المحس به، لا الظن المتحسس منه » وهذه عبارة غاية فى الدقة وحسن الأداء، ثم يعجب لأن يفوتنا اليوم أن نسجل فى الحاكى خطب المشاهير من رجال البيان. ولينظر القارىء كيف سخر ذلك الناقد البصير من العبارات المبهمة والأوصاف الفضفاضة التى تصلح لبوساً لكل موصوف كقولهم « أجاد وأفاد، وأغرب وأطرب، وسحر وبهر » وكيف تنبه إلى أن الكاتب يجب أن يصف الخطابة « وصفاً ممثلا من جهة الأداء

كأن يقول : إن صوت الخطيب كان عند هذه الجملة عالياً وعند هذه منخفضاً ، وعند تلك يكاد يكون همساً ، وعند كذا كان صياحا ، أو كان بطيئاً فى كيت ، سريعاً فى ذيت ، أوكان يقول والألفاظ تواتيه كأنه يقرأ من صحيفة ، أو تتعاصى عليه كأنه يقتلع صخراً أو يتحسس منها كالذى ينشد الضالة ، أو أنها كانت مرتبة متناسقة أو مقتضبة مفككة ، أو غير ذلك مما يشخص مجموعه الخطابة » وقد لام المتقدمين على إغفالهم هذا النوع من الوصف وهم يتحدثون عن الخطباء ، وذكر أنه لم يصل بعد البحث إلا إلى شىء قليل من غير طلبتنا كلباس الخطيب وشارته واتخاذ المخصرة والاتكاء عليها والاشارة بها ، ونحو هذا مما هو قشور بالاضافه إلى اللب المتروك» وهو فى هذا اللوم يتجنى على المتقدمين ، فقد عنى كثير منهم بوصف الخطابة «وصفا مثلا من جهة الأداء» ولو شئت لضربت لذلك الأمثال ويكفى أن نراجع بعض ما قيل فى الخطباء مدحا أو هجاء لنرى كيف تنبه الأولون إلى الجوهر فيما يوصف به الخطيب ، فقول مكى ابن سوادة :

ملىء ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل الأصابع

من الأوصاف الدقيقة التى تنطبق على كثير من الخطباء المتخلفين ومثله قول الراجز فى خطيب متعثر اللسان :

كأن فيه لففا إذا نطق من طول تحبيس وهم وأرق

وفى جهارة الصوت وجودة الخطبة ، ومواتاة القريحة ، يقول

شاعر فى مدح معاوية :

ركوب المنابر وثابها   معن بخطبته مجهر
تريع إليه هوادى الكلا   م إذا ضل خطبته المهذر

وفى وصف الخطيب بالحزم ومراعاة مقتضى الحال يقول الشاعر فى خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة   وحى الملاحظ خيفة الرقباء

آثاره الأدبية

وقد يحسن أن ننص على أن هذا الأسلوب البارع لم يكن أسلوب الأستاذ المهدى رحمه الله طول حياته ، فقد رأيت له طائفة من الرسائل كتبها فى العهد الأول من حياته الأدبية ، وفى تلك الرسائل يكثر السجع وتكثر معه زخارف البديع ، وقدكان ذلك الطراز بدعة شائعة فى ذلك الحين ، والسجع فى ذاته حلية نفيسة لولا أنه قيد يضطر الكاتب إلى التعثر فتظهر فى عباراته آثار الاضطراب

ولم يعن رحمه الله باظهار آثاره ، وهى الآن متفرقة فى أماكن شتى بعضها فى أيدى أهله ، وبعضها فى مكاتب أبنائه من طلبة القضاء الشرعى والجامعة المصرية ، وعندى من آثاره رحمه الله طائفة من المحاضرات القيمة ، سمعتها منه وراجعتها عليه ، وقد أستطيع يوما جمع شتات تلك الآثار فى سفر خاص . والله بالتوفيق كفيل .

فى سبيل الوفاء

وفى أخريات سنة ١٩١٧ استقال رحمه الله من منصبه بالجامعة المصرية، واستقال معه حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك الخضرى - باشارة من وزارة الحقانية - وكانت الجامعة يومئذ أهلية لا تنال من الحكومة ماهى خليقة به من التأييد، فأقام طلبة الجامعة للأستاذين المهدى والخضرى حفلة تكريم فى فندق شبرد فى مارس سنة ١٩١٨ وقد قلت لتلك المناسبة قصيدة فى توديع الأستاذ المهدى، ليست عندى من الشعر المختار، ولكن لا بأس من إيراد القطعة الآتية فى سبيل الوفاء

وما كانت الآداب إلا طرائفا ... من الشعر أو مايستجاد من النثر
فأبرزها المهدى عذراء غضة ... تأود تحت الحلى فى الحلل الخضر
مباحث لو غذى زهير بروحها ... لأضحت قوافيه أدق من السحر
ولو فقه النيل المبارك كنهها ... لحول ذياك المزيج إلى خمر
ولو أذن الدهر العبوس لوقعها ... لأصبحت الأيام ضاحكة الثغر
ولو عرفت مصر المفداة قدرها ... لباتت لما يلقى البيان على جمر
فيا واحدا عز البيان بفضله ... على طول مالاقى البيان من الهجر
لبعدك فى الأحشاء نار ذكية ... تفتت من كبدى وتأكل من صدرى
صبرت عليها يعلم الله راغماً ... على حين لا غوث يؤمل من حر

وإنى لأرجو أن أكون حددت شخصية الأستاذ المهدى بعض

التحديد فى هذا البحث الوجيز ، وأن أكون وفقت إلى بعض ما يوجبه الوفاء بالعهد ، والاعتراف بالجميل ، نحو أستاذ أنا لفضله مدى الدهر مدين . والسلام .

يونيه سنة ١٩٢٦

اخلاق النـاس

قلب ما شئت من مؤلفات القدماء فسترى أن المؤلفين كانوا يهتمون فى أكثر الأحيان بمحاربة الرذائل الاجتماعية ، لاسيما الغيبة والنميمة لأنهما من أخطر أسباب القطيعة بين الناس . أما المؤلفون فى العصر الحاضر فيرون الغيبة والنميمة من الموضوعات البالية التى لا تصلح لأقلام المحدثين ، وإنى لأكتب هذه الفقرات فى هيبة وحذر خشية أن يقول قائل : ماهذه الرجعة إلى أوهام الأولين !

ويسألنى من أرى من الأصدقاء : أين تسهر ؟ وأين نراك ؟ والسهرات عند هؤلاء هى جلسات سخيفة تؤكل فيها لحوم الناس ويجرى فيها من السفه والبذاءة ما يندى له الجبين ! وياويل من تكرم عليه نفسه فلا يشترك فى لغو الحديث ، فهو عندهم ثقيل الظل بارد الأنفاس !

والتظرف فى عصرنا هو مضغ أخبار الأدباء والشعراء والمؤلفين

وفى شباب اليوم أفراد يعيشون من هذا الرزق الحرام ، فهم زينة الأندية الرقيعة التى لا تجرى فيها كلمة خير ، ولا تعرف زواياها غير الافك والبهتان من عبث القيل والقال . وفى كهول اليوم طوائف تتلمس هذه الأنواع البشرية التى تحسن تلفيق الأراجيف والأكاذيب ، وإنك لتعجب كيف يتفق لمن يسمونهم أدباء الشباب وأدباء الكهول أن يجيدوا شيئا ، وهم يقضون ثلاثةأرباع الوقت فى تلك الأحاديث الممجوجة التى تتنافر مع سماحة الطبع ، وسلامة الذوق ، ورجاحة العقل

أين أسهر ؟؟ أنا أسهر فى بيتى حيث آنس بوحشة الليل ، فقد ضجرت من إخوان الزمان ، وعادت الوحدة أحب إلى نفسى من صحبة من يلبسون ثوبا للمحضر وثوبا المغيب !!

أين من يعرف أدب النفس فى هذه الأيام ؟ وأين الرجل الذى تثق بكرمه ومروءته ، وتطمئن إلى أن أذنه لا تفتح لأهل اللغو والفضول ممن يبعثرون النمائم ذات اليمين وذات الشمال ؟ وأين من يزن ما يقول ، ويفكر فى عواقب ما يقول ؟ وأين من سلم أديمه في هذا البلد فلم تمزقه الأقاويل والأراجيف ؟ دلونا أيها الناس على رجل واحد سلم عرضه وشرفه ، وحفظ معروفه وجميله ، واستطاع الفضل أن يحميه من لغو المرجفين ، وكيد المفسدين .

لقد صحبت طوائف من المصريين وطوائف من الأجانب وانتهيت إلى النتيجة الآتية : الغيبة والنميمة من الرذائل الانسانية

يقع فيها المصريون وغير المصريين ، ومع هذا لاحظت أن المثقفين من الأجانب قد يستبيحون الاغتياب ، ولكنهم لا يستبيحون البهتان . فالرجل قد يغتابك ولكنه يتحرج من أن يصفك بما ليس فيك ، وقد ينم ولكن نمائمه خالصة من المفتريات .

أما المثقفون منا — وا أسفاه ! — فيجمعون بين الرذيلتين : النميمة والافتراء [1]

ومعنى هذا أن من الأجانب من يعصمه الحياء من خلق الأكاذيب ، وأن فينا من تنقصه فضيلة الحياء

إننا نتحدث كثيرا عن الوطنية ، والوطنية لا تقوم إلا على فكرة الوطن ، والوطن لا يحب إلا حين يكون لنا فيه أصدقاء وأخلاء فان المودات والعلاقات هي أساس التقديس للافكار والأشخاص

أيها المغتابون والنمامون ! أنتم أعداء الصدق والكرامة والوطنية وأنتم أعداء أنفسكم لو تعلمون !

١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١

(١) أظن أن الدكتور يريد طائفة خاصة من أدعياء المعرفة والثقافة وإلا فكيف تجتمع الثقافة الحقة وتلك الرذائل فى شخص جدير بأن يكون مثقفا . اهـ مصححه

الشبـاب المصرى

بين التردد والاقدام

قلق الشباب ورغبته فى معالى الأمور — ثمرة بعض الرؤساء من الشخصيات القوية — كلمة عمن يتمرغون فى وحل الميرى وفى ترابه — غفلة الشبان عن تقدير الحرية — اعتماد الشبان على الحكومة هو السبب فى قتل عزائمهم

كتب إلى موظف شاب لم يشأ ذكر اسمه رسالة جاءت فيها الكلمة الآتية :

« كتبت إليك رسالتى هذه راجيا منك أن تطرق موضوعا ما أحوجنا نحن شبان مصر إليه ، ألا وهو مرض التردد وخور العزيمة فكثيرا ما يحاول الانسان تنفيذ خطة يرسمها فاذا به بعد أن كان متحمساً نحو هذه الخطة وما يعود عليه من نتائجها خامل يؤثر الكسل والاسترسال فى الأمانى والأحلام ، وأصارحك ياسيدى بأنى من هؤلاء وأن مثلى كثيرون . فانى اقتطعت دراستى والتحقت بوظيفة وأصبحت أندب حظى لعدم استكمال تعليمى ، وكل همى أن أواصل الاستذكار والتهام العلوم حتى أحصل على شهادة أقنع بها نفسى . ولكنى رغم هذه الرغبة أجد عزيمتى الخائرة تخوننى فى تنفيذ ذلك رغم محاولتى مقاومتها ... وتنقضى الأيام والشهور بل والسنين فأراجع نفسى فأجد أنى لم أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ، وهذا ما

أفزعني من نفسي وجعلني أقصدك كي تعالج هذا المرض . وقد اخترتك من بين الأدباء والمصلحين لعلمي أنك الرجل العصامي الذي طلب العلم ومازال يطلبه دون أن يقف في وجهه ما يعوقه — وما أكثر تلك العوائق — فأرجو أن تقبل رجاء شاب كل ما في استطاعته أن يدعو لك الله من قلبه ليحفظك ، والله ولي جزائكم بما تخدمون به الوطن والانسانية »

ويستخلص من هذه الرسالة ما يأتي :

أولا — عندنا شبان لا يرضون بالدون من حظوظ الحياة وتسمو بهم أنفسهم إلى احتلال الصفوف الأولى في ميادين العلوم والآداب

ثانيا — يقاسي أولئك الشبان مرارة الخيبة والاخفاق أحيانا ويودون أن لا تقف بهم جهودهم عند الأماني والأحلام .

ثالثا — بين أولئك الشبان من يدرس نفسه ويحاسبها حسابا عسيرا يصل به إلى الخوف والفزع والاشفاق

رابعا — من أولئك الشبان من يطلب الغوث ويستعين من يرجو أن تكون لديهم كلمة طيبة تنتشلهم من وهاد التردد والخور والخمود

أما أنا فلست أخشى خطرا على صاحب هذه الرسالة ، فانها تدل على أنه يستوحش من الكسل ويتطلع إلى حياة الجد والاقدام . والشعور بالنقص هو الخطوة الأولى نحو الكمال . وسأحتفظ برسالته ليظل اسمه عندي أعرفه به يوم يقدمه جده وسعيه ، وترفعه نفسه إلى بعض مايريد ، لأنه لا يصل إلى « كل » مايريد إلا القانعون

بالقليل ، والانسان أسمى من أن تقف نفسه عند مطمع مهما ابتسمت له الحظوظ . وقديما حدثنا ابن المقفع أن الرجل الكامل المروءة لا يرى إلا فى مكانين ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرما ، أو مع النساك متبتلا ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين : إما فى البرية وحشيا ، أو مركبا للملوك .

على أنه من الخير أن نبحث الأسباب التى تقتل رجولة الشباب فى العصر الحاضر وتحبب اليهم الكسل والخمول ، وأهم تلك الأسباب

أولا — شعور جمهور الشباب بأن المناصب الرفيعة لا يصل إليها الرجل بالعلم الواسع والخلق المتين ، وإنما يصل إليها عن طريق السفالة والنذالة والانحطاط . وبرهانهم على ذلك أن هناك ناسا ارتفعوا بلا مؤهلات ، وأنهم يتطلعون فيرون المرونة والليونة والوصولية هى المؤهلات النافعة فى هذا العصر ، وأن الاستعداد لبيع الضمير والخلق كاف لأن يصل بالمرء إلى ما يريد من المنازل العالية ، وأنهم يرون فى المعاهد العلمية وفى الدواوين شواهد كثيرة لهذه الحال . فكم من رجل تبوأ منصبا وهو لا يدرك خطره ولا يعرف قيمته ، وإنما وصل إليه عن طريق التزلف والتسفل والاسفاف ، ومن البلية أن يكون فيمن يشغلون مناصب التعليم نفسه أشخاص لم يصلوا إلى مراكزهم إلا لأن رؤساءهم رأوا فيهم صلاحية للتجسس ونقل الأخبار ، وهذه ظاهرة شنيعة ملموسة الأثر فى كل مكان

وتلك الفئات الوضيعة تنشر الشر ذات اليمين وذات الشمال وأهون ما ترمى به الشبان من المـآثم هو ما يقررونه فى أذهان من يلاقون من زملائهم وأصدقائهم من أن الفضيلة خيال فى خيال وأن الحزم في اقتناص الفرص قبل أن تشرد ، وأن الشخصيـة الـكريمة وبال على صاحبها لأنها تحول بينه وبين طيبات الأرزاق

ولعل الدنيـا لم تفسد يوماً كما فسدت فى هذه الأيام ، فقـد استطال الأوغاد ، وأصبح الأحرار يعيشون فى أوطانهم كأنهم غرباء وكثيراً ما نجد الوصولى السافل يقول عن رفيق له نأت به كرامته عن مواطن الضيم والهوان :

« حضرته عامل راجل » !

والمسئول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء الذين لا يأنسون بغير الضعفاء ، ولا يسلمون الأعمال إلا لـكل شاب رخو لا ينتظر منه إلا كلمة «بيك أفندم» كما كان يقول الأتراك

وأين أين الرئيس الذى يحب فى مرءوسيه إباء النفس ، وقوة الشـكيمة ، وصلابة العود ؟

أين أين الرئيس الذى يعد مرءوسيه ليـكونوا ذخر الوطن ورجاء البلاد ، فيوصيهم بالترفع عن الصغار والذل، ويغريهم بحب البأس والاستطالة والـكبرياء ، لأنه لا يسقط المصرى إلا حيث تخذله نفسه ولا يجد من مضـاء العزيمة وعزة النفس ما يدفع به عادية الطامعين .

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل والنبل والشهامة سلاح مفلول ، وأن الزاد الأنفع هو التملق والمداهنة والرياء.

وقد أذكر أني لقيت مرة شابا أعرفه فسألته عن عمله وقد قضى عهد الدراسة العالية فأجاب :

« أتمرغ فى تراب الميرى »

فابتسمت وقلت : لا بأس !

ثم علمت بعد حين أنه يتولى عملا يلحقه بمن يتمرغون فى وحل الميرى لا فى ترابه !

هذا مع أن الشبان أولى الناس بالكرامة وأجدرهم بالحرص عليها ، لأن الشباب فى ذاته قوة يجب أن تعصم صاحبها من التسفل وهو وحده حصن يجب أن يمنع صاحبه من الابتذال ، والمرء إن لم يقف على قدميه فى شبابه فمتى يرجى أن يستقيم له رأى ، أو تصلح له حال ! وإذا كان أصحاب السواعد الفتية لا يستطيعون النهوض بأنفسهم فكيف يلام الكهول على تخاذلهم وهم مهيضو الجناح ورحم الله من قال :

إذا المرء أعيته المروءة يافعا فمطلبها كهلا عليه شديد

ثانيا — غفلة الشبان عن تقدير الحرية ، فان الزاهدين فى الرقى ليسوا إلا قوما ألفوا الاستعباد ، ولو عشق الشبان الحرية وعرفوا فضلها لما سكتوا عن تكميل أنفسهم وتزويدها بالعلوم والآداب

والفتيان الذين نراهم يدأبون على الدرس بعد التوظف ويطمعون فى حال أحسن من حالهم يمثلون الرغبة فى الحرية أشرف تمثيل فأكثرهم يعز عليه أن يظل طول حياته تابعاً ذليلا ، يزجر فيزدجر ويؤمر فيطيع .

والعلم هو الذى يصيرنا سادة أنفسنا ويمكننا من نواصى المراتب الرفيعة . ولا يطمع فى السيادة إلا من يعد نفسه لها إعدادا صحيحا أما الخامل الراضى عن حاله فلا حظ له من الرفعة . ولا نصيب له من الاستقلال . وفى خلق الله ناس فطروا على العبودية وهؤلاء خلقوا لحكمة يعلمها الله ، فليكن فى ضمير الرجل الحر أنه خلق خلقا آخر ، وأن له أن يبحث عن مكانة عالية تليق بمن خلق ليسود .

ثالثا — اعتماد الشبان على الحكومة هو من أخطر الأسباب فى قتل عزائمهم ، فهم ينتظرون أن يكونوا دائما (مسنودين) بقوة الدولة لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا فى ظلال من يملكون الأمور ولكل شاب عذر من حكومته : فهو يعلل تأخره بتأخر الحكم فى زمانه ويأسى على أن لم يولد فى عهد من كانوا يمنحون الحظوظ بغير حساب ! وقديما قال المتنبى :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته   فسرهم وأتيناه على الهرم

فتلك إذن علالة قديمة يستريح إلى ترديدها المتخلفون . ونحن لا نريد لشباننا أن يعتمدوا على الدولة فى إنهاضهم من كبواتهم فانه لا خير فيمن يعتمد على سواه ، إنما نريد لهم أن يكونوا أقوياء

بأنفسهم ، وأن يكون الفتى قوة كاملة هى فى ذاتها دولة ذات حول وطول وسلطان .

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣١

الغزل فى شعر شــــوقى

رسائل ثلاث في نقد الغزل في شعر شوقى كتبها المؤلف فى باريس فى شهر مارس سنة ١٩٣١

— ١ —

تفضل أحد الأصدقاء المقيمين فى باريس فأعارنى الجزء الثانى من الشوقيات ، فرأيت أن أنقد منه باب النسيب ، وإنما اقتصرت على هذا الباب لأن أحد الكتاب كان وعد بنقد ذلك الديوان ، فمن الخير إذن ألا يتكرر ما يكتب ، وإن كان لكل منا مذهبه الخاص

ولأقيد أولا أن شوقى مسئول عن ذلك الشرح الموجز الذى ذيلت به الشوقيات ، فهو فى أغلب الأحيان شرح ضعيف وقد يتعدى الضعف أحيانا إلى الغلط الشنيع . ومن أمثلة ذلك التعليق على قوله :

لو جلوا حسنك أو غنوا به   للبيـــد فى الثمانين صبا

فقد جاء فى الشرح ما نصه : هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذى قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة :

إن الثمانين وبلغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وهذا خطأ يؤخذ به أمير الشعراء الذى ظل يراجع هذا الجزء من ديوانه نحو خمسة أعوام أو تزيد ؛ فليس هذا البيت من شعر لبيد وإنما هو من قصيدة لأبي محلم الشيباني – إن لم تخنى الذاكرة – والقصيدة برمتها مثبتة فى الجزء الأول من أمالى القالى

***

إن شوقى يعرف رأيى فى شعره ، وقد أكون أول من أنصفه بين النقاد المعاصرين ، فهو إذن خليق بأن يفترض أني لا أتحامل عليه إن قلت إن أضعف الجوانب فى ديوانه هو باب النسيب

لقد عتب على مرة لأنى لم أختر من شعره فى كتاب « مدامع العشاق » غير أربعة أبيات ، ولعله يفهم أن عذرى فى ذلك مقبول لأن شعره فى الغزل أضعف من أن يمس القلوب ، فضلا عن أن يفصح عن مدامع العشاق

إن النسيب فى جملته يرجع إلى عنصرين : الأول وصف ما يجد المحب من لوعة الشوق ، والثانى وصف ما فى المحبوب من الملاحة والجمال ، ويمكن أن يقال إن شعر شوقى خال من أوصاف الوجد المبرح لأنه عاش مقسم القلب ، موزع الاحساس . فكان يتنقل من حب إلى حب ، ومن حسن إلى حسن ، فلم يقع لذلك فى وقدة الهجر أو أسر الصدود .

ذلك اعتذارنا عنه ، لأننا نؤثر الرفق بشاعرنا المجيد ، ولو آثرنا

الصدق لصارحنا أمير الشعراء بأنه لم يكن من رقة القلب ودقة الاحساس بحيث تنزى كبده من الشغف المهلك بما رأت عينه من أسراب الملاح

إنها لفكرة ساذجة أن يظن أن الوجد المبرح لا يقع إلا لمن يحبون فى قصد وفى عفاف ، هى فكرة ساذجة دافعت عنها فيما سلف . أما الواقع فهو أن الشاعر المرهف الاحساس يتزايد بلاؤه وشقاؤه كلما طال عهده بمواجهة الصباحة ومطالعة الجمال.

الشاعر أشقى النـاس بشاعريته ، لأنه أعرفهم بخطر ما تبدع الطبيعة من أسباب الحسن والفتون ، وقد أتيح لشوقى أن يشهد من روعة الجمال مايندر أن يتاح نظيره لرجل سواه ، ولكنه لم يقل شيئا عن القلوب التى أشقتها السعادة فى الحب ، ولم يتحدث عن آلام السعداء الأشقياء الذين يحترقون وهم فى كوثر الوصال

إنه لعزيز أن يدور شعراؤنا حول الحسن فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون : فحيرة الشاعر اليوم هى حيرة أسلافه منذ قرون ، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقد . وهذا الحسن – إن لم يلطف الله – ماض فى الفتك بلفائف القلوب ، وقد جدت للارواح أزمات جديدة ، ومطامح جديدة ، لم يشق بها الأولون. فليس من المغالاة فى شىء أن نصارح القراء بأن الغزل فى شعر شوقى وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما فى نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظمأ والالتياع.

وهذه المؤاخذة توجه إلى الأدب فى جملته ، لأن قراء العربية فى هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم ، وجمدت مشاعرهم ، عن فهم مافى هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية ، والأذكياء منهم جبناء يكتبون غير ما يشعرون ، وهذا هو السر فى انحطاط الأدب العربى الحديث . . . وإلا فأين فى مصر الشاعر أو الكاتب الذى استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ؟

أكثر الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون للعوام وأشباههم من أدعياء الخواص ، وقد وقفت مطامح كثير من حملة الأقلام عند تلك الغايات الصغيرة ، وبذلك ظلت عقول الصفوة المختارة من مفكرى القراء فى حيرة داجية سوداء ، حيث لا يجدون من يترجم عن ظمأ أرواحهم ، وهيام قلوبهم ، وقلق نفوسهم ، وكان الظن بمن أغناهم الله وأراحهم من تكاليف العيش أن يقدموا إلى الجمهور غذاءه الروحى والعقلى فى صورة أخاذة تلقى شيئًا من النور فى طريق الأرواح الحائرة ، أو تلقى قبسا من الثورة فى أنفس من تغشاهم الجمود

ولعل أفظع رزء منى به الشرق هو الغفلة عن تربية العواطف وغض الأبصار عن روائع الجمال ، ومصدر ذلك ـ فيما أظن ـ أنه يندر فى الشرق أن يكون شىء من الأمر بيد الشباب : فنحن نعيش

فى قيود وأغلال طرق حديدها جماعة من الحمقى البلداء الذين يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوى العقل واضح الفكر مضىء الادراك

***

لنترك هذه الخواطر التى تقض بعض المضاجع ، ولنأخذ فى الكلام عن غزل شوقى :

لاحظت أن شوقى حين جمع ديوانه لم تسمح نفسه باغفال شىء من شعره القديم ، فتجاور فى ديوانه التليد والطريف ، والغث والسمين ، وأنا لا أكتم القراء أن هذه آفة الشعراء والكتاب جميعا فمن العسير على الشاعر أو الكاتب أن يتناسى شيئًا من منظومه أو منثوره ، وكل رجل منا حين يعود إلى آثاره يقع صريع الفتنة والاعجاب ، وأكثر الذين جمعوا قصائدهم ورسائلهم قد تسامحوا مع أنفسهم : فقد يتفق أن يسوء رأى المرء فى إحدى قصائده أو رسائله ولكنه مع ذلك يضعف فيرى فيها جوانب من الحسن تستحق الخلود !

وقد كانت لبشار بن برد مقطوعات سخيفة فسأله بعض أصدقائه أن يهبها للنسيان ، فرفض ذلك محتجا بأن قصائد الشاعر كأبنائه يتساوى حظهم عنده من البر والاشفاق

وقد أحرق البحترى جملة من أهاجيه حتى لا تكون بابا من الشر لابنه من بعده ، وعندى أن تلك جرأة عظيمة أن يتلف الرجل بعض آثاره مراعاة لمصالح الاهل والأقرباء وفى ظنى أن ذلك ما كان يقع

لو قيل للبحترى : أحرق هذه الاهاجى لانها ضعيفة لاتستحق البقاء
وإنما أثبتنا هذه الملاحظة لنعتذر بهاعن شوقى فهو فى رأينا أبعد نظرا من أن يخفى عليه ضعف الابيات الآتية :

لا والقوام الذى والأعين اللاتى ماخنت رب القناو المشرفيات
ولاسلوت ولم أهمم ولا خطرت بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنى كل حاجاتى

فليس فى هذه الابيات من سمات الشعر غير الوزن والقافية ولكنه أثبتها فى الديوان لأنه قالها ، وكلام أمير الشعر يجب أن يظل على أى حال أمير الكلام !! وإلا فما هو القوام الذى ، وما هى الأعين اللاتى؟ اللهم إلا أن يريد أن يأتى بشاهد جديد لحذف صلة الموصول!

ثم مامعنى قوله :

وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنى كل حاجاتى

وكيف غابت عليه تفاهة كلمة «حاجات» فى مقام التشبيب

ومن الغزل البارع جداً قول شوقى :

ياناعما رقدت جفونه مضناك لاتهدا شجونه
حمل الهوى لك كله إن لم تعنه فمن يعينه
عد منعها أو لا تعد أودعت سرك من يصونه
بينى وبينك فى الهوى سبب سيجمعنا متينه
رشأ يعاب الساحرون وسحرهم إلا جفونه
الروح ملك يمينه يفديه ما ملكت يمينه

مـا البـــان إلا قـــده   لوتيمت قلبـــا غصونه

هذه قطعة جميلة ، لم يضعف منها إلا قوله :

رشأ يعـــاب السـاحرو   ن وسحرهم إلا جفونه

لأنه لا يكفى أن يقال : « السحر معيب ، ولكن سحر هذه الجفون لا عيب فيه » والشاعر يعلم أن سحر العيون أسمى وأعز من أن ينزل إلى توافه المشكلات . فهل يدرى القارىء ماذا أضاف شوقى إلى هذه القطعة الجيدة ؟ لننظر كيف يقول :

ويزين كل يتيمة   فمـه وتحسبها تزينه

فما معنى هذا ؟ معناه أن ثنايا المحبوب تزين اللآلىء ، على حين يظن أن اللآلىء تزينها ... وما نظن شوقى يقدر أن هذا معنى جميل . والخطأ وقع له من اختلاس قول بعض الأقدمين ولعله الحسين بن مطير

منعمة الأطراف زانت عقودها   بأجمـــل مما زينتها عقودها

فان هذا الشاعر وقع على المعنى المقبول : لأن النحور قد تكون أجمل وأروع من نفائس العقود . أما أن تكون الثنايا أجمل من اللآلىء التى تزدان بها فذلك خيال مقلوب

ثم مامعنى قوله بعد ذلك

مـــا العمر إلا ليـــلة   كان الصباح لهـــا جبينه

وهناك أبيات كثيرة كان يستطيع شوقى إسقاطها من الديوان ولكنه كما أشرت ضعف عن ذلك كأكثر الكتاب والشعراء

وسترى فى الأبحاث الآتية مبلغ ماوصل اليه فى فن النسيب

— ٢ —

بين العاطفة والذكاء

لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب ، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب : فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام ، وهى بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغنى ويرهف إحساسه للتلحين والتطريب ، ومن مساويها أنها تفرض على الشاعر مالاقبل له باحتماله من التغنى بعواطف قد تكون خمدت فى صدره منذ أزمان . على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم إلى الاسفاف وحسب القارىء أن أذكر له أن من الشعراء الماضين من كان يفتتح قصائد الرثاء بالنسيب ، وذلك أغرب ألوان الشذوذ ، وقد أحصيت من هذا النوع عشرين شاهدا هى فى مذكراتى بمصر ، فليعذرنى القارىء إن اكتفيت بالاشاره اليها فى هذا الحديث

وقد سلك شوقى هذا المسلك ، فباب النسيب فى ديوانه أخذ أغلبه من طلائع مدائحه القديمة ، فهو فى جملته نسيب مصنوع غابت عنه العاطفة وصاغه الذكاء . وهو فى هذا يشارك جمهور شعراء اللغة العربية الذين اتخذوا النسيب حلية للقصائد بدون أن يفهموا أن الجمال من النفحات السماوية التى لاينبغى أن يشرك

الشاعر بها أحدا من الناس

الجمـال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذه الشاعر وسيلة لقصائد المديح ، ولئن اغتفر للشعراء الأولين أن يتناسوا عظمة الجمال ويبتذلوه فى غير إشفاق فانه لايغتفر لشوقى وقد درس ميسيه ولامرتين وفرلين أن لايتقى الله فى لغته ويرحمها من ذلك الجدب الموحش الذى ابتليت به يوم كان الشعراء يتورعون فى جبن وغفلة وجمود عن التسبيح بحمد الجمـال

ومع هذا فلشوقى مقطوعات وأغان قليلة وهبها للحسن وحده وسنعود اليها فى الرسـالة الآتية ، ولـكنها لقلتها لا تسمو به إلى منزلة معاصريه فى الأمم الأوربية ، ولاتلحقه بمن أجادوا التشبيب من أسلافه كعمر بن أبى ربيعة والعباس بن الأحنف وأبي نواس وابن زيدون

***

وقد عرض شوقى لتشطير بعض أبيات النسيب ، والتشطير والتخميس من الفنون المستحدثة فى الشعر العربى ، وهو عمل فنى لاأثر فيه للعاطفة وإنما يرجع إلى الذكاء . فلننظر كيف صنع شوقى مثلا فى قول أبى نواس :

ياويح أهلى يرونى بين أعينهم على الفراش ولايدرون مادائى

والقارىء فى غنى عمن يرشده إلى روعة هذا البيت الجميـل وقد حوله شوقى إلى الصورة الآتية :

ياويح أهلى أبلى بين أعينهم
ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى
وينظرون لجنب لاهدوء له على الفراش ولا يدرون مادائى

فان هذا التشطير لم يستقم لشوقى إلا بحذف كلمة « يرونى » ووضع كلمة « أبلى » مكانها . ثم عاد فأتى بكلمة « وينظرون » فى البيت الثانى ليستقيم له الشطر الاخير وقد عاد المعنى مغلقا بعض الشيء حين تدخل شوقى لاتمامه ، وكان قبل ذلك غاية فى الرقة والوضوح

ولشوقى بيت سائر وهو قوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وهو بيت يعجب به الناس ، وقد أشرت مرة إلى أنه عرض فيه حوادث الحب على الطريقة السينمائية ، وهو فوق ذلك لا يمثل الحرائر من الحسان ، وإنما يمثل الساقطات اللائى تنبو عنهن العيون فى الحانات ، وما أظن شوقى ظفر بتلك السعادة مع فتاة نبيلة اللهم إلا إن زعم أنه كان (إيروس) العصر والأوان !

وقد فتن شوقى بالسلاسة التى كانت من نصيب ذلك البيت فأراد أن يضيف إليه بيتا ثانيا لتتم بهما صور العشق فقال :

ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

فأين هذا من ذاك ؟ ذاك بيت ألقت به السليقة فجاء غاية فى الاستواء ، أما البيت الثانى فهو من آثار التكلف ، لأن الشاعر

توهم أن الصورة تتم به ، وكانت النتيجة ما نراه من تنافر الأخوين

فان كان شوقى فى ريب من صدق هـذه الملاحظة فليحدثنا كيف صح له أن يقول بعد ذلك :

يوم كنا ولا تسل كيف كنا تتهادى من الهوى ما نشاء

فان ذلك وقع بالطبع بعد السلام والـكلام وقبل الفراق !

وجاء فى الديوان ما نصه :

وقال مشطرا حيث اجتمع بعض الأدباء فى مجلس فذكر أحدهم بيتا للبها زهير وهو :

يقول أناس لو وصفت لنـا الهـوى
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

فقال :

يقول أناس لو وصفت لنـا الهـوى
لعـل الذى لا يعرف الحب يعرف
فقلت لقـــد ذقت الهوى ثم ذقتـه
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

وكان على شوقى أن يلاحظ أن بيت البها زهير هذا ليس من الجودة بحيث يستحق هذه العناية ، فان من السذاجة أن يتوجه الناس إلى المحب قائلين : نسمع أنك تحب ؛ فهل لك أن تقول لنـا ما طعم الحب وما لونه ؟ وأغرب من هذا وأدخل فى السذاجة أن يعلل شوقى وجاهة السؤال بقوله :

لعل الذى لا يعرف الحب يعـــرف

فهل من الحق أنه لو أمكن وصف الحب للناس أصبحوا محبين أم الأمر لا يخرج عن عبث الألفاظ !

***

وهناك قصيدة صنعها شوقى ليدل بها على ذكائه وانقياد النظم إليه ، فقد قال البارودى :

أتغلبنى ذات الدلال على صبرى ؟

ثم سكت . فرأى شوقى أن يكمل البيت هكذا :

إذن أنا أولى بالقناع وبالخدر

ثم مضى فأنشأ قصيدة طويلة من الوزن والقافية

وقبل نقد هذه القصيدة نسأل شوقى : هل كل مغلوب على صبره فى الحب خليق بالخدر والقناع ؟

لا أظن ! وإلا فهناك قصائد صرح فيها شوقى بأنه يائس مغلوب !

وإلى القارىء القطعة الآتية :

وليـــل كأن الحشر مطلع فجره … تراءت دموعى فيه سابقة الفجر

سريت به طيفا إلى من أحبها … وهل بالسهى فى حلة السقم من نكر

طرقت حماها بعد ماهب أهلها … أخوض غمار الظن والنظر الشزر

فمـــا راعنى إلا نساء لقيننى … يبالغن فى زجرى ويسرفن فى نهرى

يقلن لمن أهوى وآنسن ريبـــة … نرى حالة بين الصبابة والسحر

إليكن جارات الحى عن ملامتى   وذرن قضاء الله فى خلقه يجرى
وأحرجنى دمعى فلما زجرته   رددت قلوب العاذلات إلى العذر
فساءلنها ما اسمى فسمت فجئننى   يقلن أمانا للعذارى من الشعر
فقلت أخاف الله فيكن إننى
وجدت مقال الهجر يزرى بأن يزرى
أخذت بحظ من هواها وبينها
ومن يهو يعدل فى الوصال وفى الهجر

هذه أبيات فى غاية الانسجام ، ولأجل هذا أثبتها شوقى فى الديوان ، ولكن مامعناها ؟

الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة ، قاهرية بالطبع ، لان هذا من شعره القديم ، وللقاهريات تقاليد فى الصيانة والعفاف . ومع هذا طرق حماها بالليل فهب أهلها مذعورين ، وأحاط به النساء يزجرنه وينهرنه ثم توجه أولئك النساء إلى محبوبته يسألنها ماشأن هذا الزائر ؟ وهنا أجهش الشاعر فى البكاء فخمدت حمية النساء وسألن الفتاة عن اسمه فقالت شوقى ! ولم تكد تلفظ هذا الاسم الكريم حتى تساقط النساء متخاذلات واهنات يطلبن من الشعر الأمان ! وفى هذا الموقف كان الشاعر كريما ، فقد طمأنهن قائلا إنه يخاف فيهن الله !!

إن هذه الصورة المنكرة لاتقع فى حى وضيع إلا موسومة بسقم الذوق ، فكيف صح وقوعها فى مدينة القاهرة قبل

ثلاثين عاما !!

كل هذا لم يكن ، ولكن شوقى أراد أن يتكلم ، فليكن ما أراد لأنه يقول للشعر كن فيكون

وعلى القارىء أن يروض نفسه على الاقتناع بأن نساء القاهرة كانت شمائلهن من هذا الطراز : ولو فى خيال أمير الشعراء !!

— ٣ —

نجوى القلب

شوقى شاعر محسود ، فقد ملأ جميع الأسماع وأشجى كثيراً من القلوب ، وقد أتيح له أن يظل زعيم الشعراء أكثر من أربعين عاما ، وهى زعامة حقة لا يمترى فيها إلا المكابرون . وكم شقى خصومه فى هدمه وهو على الزمن لا يصنع فيه النقد المغرض إلا كما يصنع المطر فى متين الحصون .

لا تسأل عن السر فى عظمة شوقى ، لأن الشعر فى أكثر الأحيان من النفحات الالهية التى لا تنال بالجد وعرق الجبين ، فليس هو بأعلم معاصريه ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود وقد أفصح عن ذلك أبدع إفصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شانى   أنا أسمو إلى نباهة شانه

كان بالسبق والميادين أولى لوجرى الحظ فى سواء عنانه
إنما أظهروا يد الله عندى وأذاعوا الجميل من إحسانه
ماالرحيق الذى يذوقون من كر مى وإن عشت طائفا بدنانه
وهبونى الحمام لذة سجع أين فضل الحمام فى تحنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى من يد فى صفائه وليانه

وكذلك يجيد شوقى حين يسلم خياله إلى فطرته الجيدة ، ويسف حين يتكلف ويتصنع ، لأنه لا يتقن الصنعة إلا الشعراء المحرومون من هبات الروح

وقد راجعت ماقال شوقى في النسيب فكان أكثر ما شاقنى عنده نجواه لقلبه وقد ودع أحلام الشباب ، وكلمة الشباب لها فى شعر شوقى وفى حياته معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم إلا من عاشوا كما عاش ، أو رزقوا من رقة الحس مايتوهمون به كيف كانت حياة مثله بين فتن المال والجمال والشباب

وشوقى رجل ألقى فى غيابات الماضى أطيب الأحلام والأوهام فهو اليوم يعيش تحت أثقال السنين ، ولكن كاهله لا يزال قوياولا يزال يقول : هات ما عندك يازمان! ولا يزال فى ذلك الجسم قلب حساس يفيض بأقوى العواطف والمشاعر والأحاسيس .

غير أن شوقى أذكى من ذلك ، فهو يعلم علم اليقين أنه لا يأسر الجمال بصباه كما كان يفعل فى أيامه الخوالى ، وإنما ينقاد الجمال إليه

لأن شهرته طبقت آفاق الأقطار العربية ، وطبعت اسمه فى صدور الناطقين بالضاد . كل هذا جعل شوقى من أشعر الناس حين يتحدث عن هزيمته فى الحب ، وكان لا يعرف الهزائم فى ذلك الميدان فيارحمة الله لقائد قضى عمره بين أكاليل النصر ، ثم كتب عليه أن يشهد فى آخر أيامه وقائع الاخفاق !

وإلى القارىء نجوى شوقى لقلبه وقد تقطعت حبائله فى أودية الجمال:

شيعت أحــــلامى بقلب باك ولممت من طرق الملاح شباكى

ورجعت أدراج الشباب ووِرده أمشى مكانهما على الأشواك

وبجــــانبى واه كأن خفوقه لما تلفت جهشة المتباكى

شاكى السلاح إذا خلا بضلوعه فاذا أهيب بــــه فليس بشاك

قـــد راعه أنى طويت حبائلى من بعد طول تناول وفكاك

ويح ابن جنـــبى كل غاية لذة بعد الشباب عزيزة الادراك

لم تبق منـــا يا فؤاد بقيـــة لفتـوة أو فضــــلة لعراك

كنا إذا صفقت نستبق الهوى ونشد شد العصـــبة الفتاك

واليوم تبعث فى حين تهزنى ما يبعث الناقوس فى النساك

وإلى القارىء قوله يخاطب قلبه من كلمة ثانية :

صحا القلب إلا من خمار أمانى يجاذبنى فى الغيد رث عنانى

حنانيك قلبى هل أعيد لك الصبا وهل للفتى بالمستحيل يدان

تحن إلى ذاك الزمان وطيبه وهل أنت إلا من دم وحنان

إذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة ولم تدكر إلفا فلست جنانى

أتذكر إذ نعطى الصبابة حقها ونشرب من صرف الهوى بدنان
وأنت خفوق والحبيب مباعد وأنت خفوق والحبيب مدان
وأيام لا آلو رهانا مع الهوى وأنت فؤادى عند كل رهان
لقد كنت أشكو من خفوقك دائبا فولى فيالهفى على الخفقان
سقاك التصابي بعد ما علك الصبا فكيف ترى الكأسين تختلفان
ومازلت فى ريع الشباب وإنما يشيب الفتى فى مصر قبل أوان
ولا أكذب البارى، بنى الله هيكلى صنيعة إحسان ورق حسان
أدين إذا اقتاد الجمال أزمتى وأعنو إذا اقتاد الجمال عنانى

والفرق بين القطعتين واضح ، فالأولى قوية تزخر بالحياة لأن الشاعر ألقى بها وهو واجد محزون ، أما الثانية فوسط بين الجيد والردىء لأن الشاعر قالها وهو شاب يتكلف سآمة الشيوخ ليثبت أن الفتى يشيب فى مصر قبل أوان المشيب. والضعف ظاهر فى قوله:

أتذكر إذ نعطى الصبابة حقها ونشرب من صرف الهوى بدنان

وقوله :

وأيام لا آلو رهانا مع الهوى وأنت فؤادى عند كل رهان

والفتور ملموس فى قوله :

وأنت خفوق والحبيب مباعد وأنت خفوق والحبيب مدان

على أنه اختلس هذا المعنى من قول بعض الأقدمين :

وما فى الأرض أشقى من محب ولو وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل حال مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكى إن نأوا شوقا إليهم　　ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى　　وتسخن عينه عند التلاقى

وفى القطعة الثانية عيب آخر وهو التناقض فى عرض نفسية الشاعر ، فهو يحدثنا أولا أنه ودع عهد الشباب ويذكر أن رد الصبا من المستحيل ، ثم يعود فيذكر أنه لايزال فى ربع الشباب وأن الله بنى هيكله صنيعة إحسان ورق حسان ، فهو فى أول القطعة يندب شبابه ، وهو فى آخرها يتغزل فى نفسه فيذكر أن قوامه كالغصن الرطيب ! وفى هذه الحيرة الفنية دليل على أن الشاعر لا يعنى مايقول

ولننظر كيف يخاطب قلبه من كلمة ثالثة :

أرقت وعادتنى لذكرى أحبتى　　شجون قيام بالضلوع قعود
ومن يحمل الاشواق يتعب ويختلف
عليه قديم فى الهوى وجديد
لقيت الذى لم يلق قلب من الهوى　　لك الله ياقلبى أ أنت حديد

وهذا شعر لا بأس به ولكن مامعنى قوله :

لك الله ياقلبى أ أنت حديد ؟

إنا نظن أن هذا التعبير لايخلو من ابتذال

ومن الانصاف أن نذكر أننا نستجيد من هذه القصيدة القطعة الآتية :

وروض كماشاء المحبون ظله　　لهم ولأسرار الغرام مديد
تظللنا والطير فى جنباته　　غصون قيام للنسيم سجود

تميـــل الى مضنى الغرام وتارة ... يعارضها مضنى الصبا فتحيد
مشى فى حواشيها الأصيل فذهبت ... وماس عليها الحلى وهى تميد
وقامت لديها الطير شتى : فآنس ... بأهل ومفقود الأليف وحيـد
وباك ولا دمع وشاك ولا جوى ... وجذلان يشدو فى الربى ويشيد
وذو كـبرة لم يعط بالدهر خبرة ... وعريـان كاس تزدهيـه مهود
غشيناه والأيام تنـــدى شبيبة ... ويقطر منها العيش وهو رغيد
رأت شفقا ينعى النهار مضرجا ... فقلت لهـــا حتى النهار شهيـد
فقالت وما بالطير ؟ قلت سكينة ... فمـا هى مما نبتغى ونصيـــد
أحل لنا صيدان: يوم الهوى مها ... ويوم تسل المرهفـات أسود
يحطم رمح دوننا ومهنـد ... ويقتلنا لحظ ويأسر جيـــد
ونحكم حتى يقبل الدهر حكمنا ... ونحن لسلطـان الغرام عبيد

وهذا من الشعر البارع الجيد السبك وإن كنا ننـكر عليه البيتين الأخيرين ، لأن شوقى لم يكن يوماً من رجال السيف ، حتى يصطاد المها فى يوم الهوى ويصطاد الاسود فى يوم الجلاد ، وهو قد سرق هذا المعنى من عبدالله بن طاهر إذ يقول :

نحن قـوم تذيبنـا الأعين النجـ ... ـل على أننـا نذيب الحديـــدا
وترانـا عنــد الـكريهة أحرا ... راً وعنــد الغوانى عبيـــدا

وعبد الله بن طاهر يقول ويفعل : لأنه كان من كبـار القواد ومن أقدر الناس على مقارعة الهيجاء ، فى حين أن شوقى حدثنا فى مقدمته القديمة للشوقيات أنه كان يجتاز ميدان عابدين على ظهر أتان !

الجزل والرقيق

شوقى يؤثر الرقيق على الجزل فى الغزل والنسيب ، ولا عيب فيه إلا أنه كما قيل يسيل رقة حتى يصل إلى النعومة واللين ، وإلى القارىء هذه الأبيات :

ياحسنه بين الحسان فى شكله إن قيل بان
كالبدر تأخذه العيو ن وما لهن به يدان
ملك الجوانح والفؤا د ففى يديه الخافقان
ومناى منه نظرة فعسى يشير الحاجبان
فعسى يزكي حسنه من لا له فى الحسن ثان
فدعوه يعدل أو يجو ر فانه ملك العنان
حق الدلال لمن له فى كل جارحة مكان

والتعبير عن ذلك المحبوب بأنه « حسن فى شكله » من التعابير العامية ، ولكن لا بأس فلعل ذلك الظبي كان يلعب في الحارة حينذاك

وعبارة «من لا له» عبارة ثقيلة كان ينبغى نفيها عن هذا الغزل الرقيق

وزكاة الحسن ما موضعها هنا؟ إن الشاعر يجارى بعض المتقدمين فى هذا المعنى ، وكان ينبغي أن يلحظ أن هذا من أخيلة الفقهاء

ولشوقى قطعة رقيقة قالها فى بعض الناس ووهبها للغناء ، وهى

منك ياهاجر دائى وبـكفيك دوائى
يامنى روحى ودنيا ى وسؤلى ورجائى
أنت إن شئت نعيمى وإذا شئت شقائى
ليس من عمرى يوم لا ترى فيه لقائى
وحياتي فى التدانى ومماتى فى التنائى
نم على نسيان سهدى فيك واضحك من بكائى
كل ما ترضاه يامولا ى يرضاه ولائى
وكما تعلم حبى وكما تدرى وفائى
فيك يا راحة روحى طال بالواشى عنائى
وتواريت بدمعى من عيون الرقباء
أنا أهواك ولا أر ضى الهوى من شركائى
غرت حتى لترى أر ضى غيرى من سمائى
ليتنى كنت رداء لك أو كنت ردائى
ليتنى ماؤك فى الغلـ ـة أو ليتك مائى

وهذا شعر مقبول ، ولكن هل يستطيع شوقى أن يدلنا على بيت واحد فيه شيء من الابداع ؟ وما باله يرضى بأن يقدم للغناء هذه المعاني التى رددها مئات الشعراء ؟

وهناك قصيدة أجزل من هذا وهى التى يقول فيها :

وقالوا فى البديل رضا وروح لقد رمت البديل فرمت صعبا
وراجعت الرشاد عساى أسلو فما بالى مع السلوان أصبى

اذا ما الكأس لم تذهب همومى   فقد تبت يد الساقى وتبا
على اني أعف من احتساها   وأكرم من عذارى الدير شربا

وهى قصيدة أكثرها مستجاد ، وإنما نقلنا هذه الابيات لنسأل شوقى عن معنى قوله :

اذا ماالكأس لم تذهب همومى   فقد تبت . يد الساقى وتبا

لأننا لانفهم موجب هذه الدعوة البشعة فى الشطر الأخير وماذنب الساقي إذا تحجرت نفس الشارب فى حضرة الصهباء ؟ وقد نفهم أن يكون شوقي أعف من احتسى الراح ، إن كانت تبقى على عفاف ، ولكننا لاندرى كيف رأى أن يحدثنا أنه أكرم من عذارى الدير شربا !! لقد كان أولى للشاعر أن يذكر أنه أقسى الشاربين فتكا ، لا أنه أكرم شربا من العذارى المتبتلات، فان الراح لا تثير معاني الحنان إلا فى النفوس الضعاف !

ثم ماقيمة قوله فى كلمة أخرى :

حببتك ذات الخال، والحب حالة   إذا عرضت للمرء لم يدر ماهيا
وإنك دنيا القلب مهما غدرته   أتى لك مملوءاً من الوجد وافياً
وبين الهوى والعذل للقلب موقف   كحالك بين السيف والنار ثاويا
وبين المنى واليأس للصبر هزة   كخصرك بين النهد والردف واهيا

وياليت الشاعر أسقط أمثال هذه الأبيات من الديوان

وما قيمة قوله أيضاً يستعطف محبوبته :

فحسب خدى من عيني ماشربا   فمثل ما قد جرى لم تلق عينان

وأين وجه الحسن فى قوله :

يامن هجرت إلى الاوطان رؤيتها   فرحت أشوق مشتاق لأوطان
أتذكرين حنينى فى الزمان لها   وسكبى الدمع من تذكارها قاني
وغبطى الطير ألقاه أصيح به   ليت الكريم الذى أعطاك أعطاني

وبعد فقد كانت هذه الرسائل الثلاث تذكرة للقارىء بما فى باب النسيب من مواطن القوة والضعف ، أردنا بها توجيه الانظار الى الجزء الثانى من الشوقيات ، ونحن أبعد الناس عن التحامل على بلبل النيل الذى يقول :

وقلت له صبراً فكل أخى هوى   على يد من يهوى غداً سيتوب

ليالى الاعتقال

حضرة الأخ أنيس افندى ميخائيل

وصل خطابك البديع بعد عشرين يوماقضاها تحت أثقال الرقابة ولم يصلنى قبله فى معتقل (سيدى بشر) غير خطاب الأخ الشيخ عبد المجيد زهران ، فما أوفاه ياصديق وما أوفاك !

سأضرب صفحا عن الدمعة التى سكبتها على القرطاس ، لأن مثلى لا يبكى له ولا يبكى عليه ، وإنما خلقت لأكون مثلا فى الشمم والاباء ولو كان بى حب الدعة والطمأنينة لما مكثت فى المعتقل هذه الشهور الطوال فقد فكر القوم فى مساومتى لأول لحظة وطئت فيها ثكنة

قصر النيل . ولكنى أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء في سبيل البلاد . وأقسم لوسلم المصريون جميعاً وخرج مصطفى كامل من قبره فصافح الانجليز لما كان فى ذلك مايزحزحنى قيد أنملة عن معاداتهم حتى يكون الجلاء ، وأعيذك أن تحسب أن جلاءهم عن مصر إن تم ونحن أحياء ينسينا مافعلوا بنا وبأهلينا منذ كان الاحتلال !

أترك ذلك . وأحدثك عما يجول بصدرى فى هذه الظلمات . أنا حزين يا أنيس ! وكيف لا أحزن وفى المعتقلين أنفسهم أنصار لمشروع ملنر الذى يعرض الآن بين التصفيق والهتاف ! ياويلتاه ! حتى المعتقلين المعذبين يصدقون بأن انجلترا منحتهم الاستقلال !! متى تنكشف هذه الغمة فأخرج من بين هذه الاسلاك لأساعد الحزب الوطنى فى الغارة الشعواء التى شنها على أولئك الشياطين الذين مكنتهم الليالى من ناصية هذا الشعب الوديع !

ليست انجلترا هى العدو الوحيد للامة المصرية ؛ بل هناك عدو آخر لايزال يبطش بالأمة غير وان ولاراحم . ألاوهو الجهل . هذا هو العدو اللدود الذى تستعين به انجلترا لاغتصاب وادى النيل ولولاه لما رحب المرحبون بأعضاء الوفد حين جاءوا لعرض مشروع ملنر . بل لولاه لحقت على هؤلاء كلمة العذاب ! وسأعرف ما اصنع حين أعود إلى القاهرة ولو بعد حين . سأعرف كيف أحارب الجهل ، وكيف أصب الصواعق على رءوس من يستغلون جهل

الأمة فينالون به ما لهم من سيء الاغراض ، ومنكر الشهوات ، والله بصير بمايعملون

تسألني عن ليالي الاعتقال ، وأجيبك بأنها ليال سود لافرق بين أنصافها والسرار ، ويكفي أن أذكرلك أن هذه الليلة ليلة العيد ، ومنذ لحظة كان الاستاذ الشيخ عبد الباقي سرور يبتسم ويقول : لقد استرحت هذه الليلة من أولادى ، فما يفك عمامتي أحد ولايضحك من صلاتي إنسان .

وكان الشيخ محمد يوسف يرفأ قميصه وهو ينشد قول ابن الاحنف :

رحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

وكان الشيخ شافعي البنا يلاعب الشمعة وهو يتغنى بقول المتنبي :

عيد بأية حال عدت ياعيد بمامضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهمو فليت دونك بيدا دونها بيد

أما أنا فكنت أترنم بقولي :

ليالي النيل واللذات ذاهبة وجدى عليكن أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لي منكن واحدة في سنتريس ويدني بعض خلاني
إذاً تبين دهري كيف يرحمني من ظلم همي ومن عدوان أحزاني

وبمناسبة سنتريس أذكر أني أرسلت خطابا للاخ الشيخ احمد الدكروري أصف به شوقي إلى مغاني ذلك البلد الجميل ، أين أنا من

سنتريس ؟ وأين منى سنتريس ؟

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب اللهو وهو جديد
فاذا تمثـــل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

حسبك هـذا ياأنيس ، ولاتنس أن تزور الشيخ عبـد العزيز صقر ، وأن تـكاتب الأخ العزيز محمد افندى محمود حسين ، فاما الشيخ على مبارك فسأعرف كيف أناقشه الحساب !

وأعود الى الثورة الخطيرة التى تشب فى جوانحى كلما فـكرت فيما يعمل الانجليز لقهر الأمة المصرية . لبيك يامصر ! لن تموتى ونحن أحيـــاء !

(ملحوظة) : لاتذكر لأحد كيف وصلك هذا الخطاب فتشتد الرقابة على المعتقلين المعذبين !

مارس سنة ١٩٢٠

لا تسبوا الدهر !

لقينى أحد أصدقائى فى الأسبوع الفائت وبادرني بقوله : لقد أغضبت الزمخشرى حين فسرت قوله تعالى (وفى أنفسكم أفـلا تبصرون) وقد عزمت بحول الله وقوته أن أغضب الزمخشرى مرة ثانية بتأويل قوله عليه السلام : « لاتسبوا الدهر فان الدهر هو الله » فليس معنى هذا الحديث أن الدهر اسم من أسماء الله ، كما توهم ذلك

كثير من الفقهاء : ولكن معناه أن الدهر الذى تسبونه — وهو نظام الكون الذى تحرمون كل شىء حين تخرجون عليه — هو عند الله كاسمه واجب التقديس !!

وسب الدهر عادة قديمة : فرد لها رواة الأدب بابا سموه (شكوى الزمان) وقد تنبه بعض الشعراء إلى هذه الضلالة الفاشية فرثى لأصحابها بقوله :

كل من لاقيت يشكو دهره ليت شعرى هذه الدنيا لمن؟

وكأن رسول الله رأى جموع الكسالى الذين يحسبون أنفسهم خلقاء بأن يملكوا ناصية العالم ، ولا يعملون شيئا ، حتى إذا حاقت بهم عواقب كسلهم ، بسطوا ألسنتهم فى سب الدهر ، وشكوى الزمان ، فأراد عليه السلام أن ينهاهم عن هذ الخلة النكراء بقوله : « لاتسبوا الدهر فان الدهر هو الله » !

لقد ملأتم الدنيا صراخا وعويلا : فهل أغنى الصراخ والعويل ؟ أفسدتم على الناس فطرهم باذاعة الآراء السقيمة والمبادىء المهلكة : فتى تفتحون أعينكم لتروا نظام الكون كما خلقه الله ، لا كما صورته لكم شهواتكم ، وأهواؤكم !! نحن صرعى خطلكم ، وقتلى جهلكم ، فلاعفا الله عنكم ، ولاعاد زمن كنتم فيه من المكرمين !!

*

شكوى عليل

عزيزتى فتحيه

لاتطيق يمناى الكتابة إلا بألم شديد! وذلك لو تعلمين سبب حرماني من الكتابة إليك منذحين! وكم تمنيت كلما أدرت اللفائف على تلك اليد الجريحة، لوأن يمناك الجميلة هى التى تتولى برفقها ضمد ذلك الجرح البليغ! ولكن هيهات يافتحية، ما كل مأمول ينال، وكم أنشدت كلما أدنى الخيال محياك الجميل:

إن عينى تعودت كحل هند   جمعت كفها مع الرفق لينا

إى والله! فلو رأيتك الآن لفزعت إلى صدرك، كما يفزع الضحيان إلى الظل الظليل! وما كان هذا الجرح بباق بعد قدومك إلا كما يبقى الحزن بعد قدوم الرحيق! ولقد كنت خليقاً أن أطرب لذكراك كلما ألح على المرض، فاعتصمت بذكرى أيامنا الخوالى، ولكنى مافكرت فيك إلا امتلأت حقدا على الدهر، فسقطت صريع جرحين: جرح فى اليد، وجرح فى الفؤاد! فياعجبا كيف صارت ذكراك مثاراً للهم، وكانت كالواحة فى الوادى الجديب!!

الآن — وقد انتصف الليل، ونامت عن شكواى العيون — أتسمع لعل فتحية تطرق الباب ثم أتبين أنى أرجو مالا يكون، وأترقب المستحيل. وهاأنذا أعود إلى مساهرة الأنين

سبحان من لوشاء سوى بيننا   وأدال منك فقد أطلت عذابي

سبتمبر سنة ١٩٢١

ارواح الكتاب

عزيزتى فتحية :

وصل إلى خطابك السادس ، وكنت جديرا بشكر يمناك الجميلة على ماصنعت أناملها الحسان. ولكنى لاأزال أشعر بالوحشة ،كأن لم تكتبى إلى حرفا ، ولم يصلنى منك كتاب ! غير أنى لاأنكر أن قلبى يخفق فى كل صباح ، كلما قرب قــدوم البريد ! ولقد صرت أحسب حملةالرسائل شرذمة من الملائكة ، ينقلون السلام من قلب الى قلب ، ويصلون بين النفس والنفس ، حتى لقد هممت أن أسبح بحمدهم فى أوقات التوزيع ، كما يسبح فريق من الناس للشمس عند الشروق ! !

أجل ! لا أزال أشكو الهجر والصدود ! فاذا كنت تحسبين أن فى هذه الرسائل برءا لقلبى من جواه ، وجسمى من ضناه ، أو اذا كنت تظنين أن فى إرسالها إلى إمتاعا لنفسى التى تكلف بالحسن وتولع بالجمال ، أو إذا كنت تأملين أداء مايفرض الحب على فتاة تعلم أن حياة عاشقها أثر من آثار يديها ، كما كانت حياة الزهر أثرا لما للشمس من ضياء : اذا كنت تنتظرين شيئا من ذلك فأنت واهمة يافتحية ! نعم واهمة وإن ألم فؤادك الذى يفيض بالاحساس - إن الرسائل التى تكتبينها إلى ليست من إملاء قلبك الشفيق

ولـكنها كلمات منقولة من الروايات التى يتراسل فيها المحبون ، على أن الرسائل التى تكتب فى القصص على هـذا النحو لاتمثل أفئدة الأوانس ، لأن كتابها رجال يتمثلون عواطف النساء ! فهم مقلدون وحاكون ! وإنه لمن المخجل أن يملأ عالم الأدب بتقليد التقليد! فأنت تمثلت عواطف رجل كان تمثل عواطف امرأة ! وجدير بخطاب هو تمثيل التمثيل أن ينال من قلب القارىء ماينال الحديث المعاد .

لم أكـد أقرأ خطابك الأول حتى بعثت اليك بزجاجة من العطر كتب عليها تاجرها الخاص (احذروا من التقليد) وكنت رجوت أن لايفوتك النظر فى هذه النصيحة الثمينة ! ولـكن خاب الرجاء ، وتوالت رسائلك على هـذا النمط الذى أشفق على أصحابه أن يموتوا وهم أحياء ، وإنهم لميتون !

ستقولين عاشق لايحسن الخطاب ، وإنى لـكذلك فقلما يظرف الشيوخ ، ولـكنك ستعلمين الآن أنى لم أطع غير داعى الاخلاص . ألا ترين يافتحية أنى كثيرا ماأتحين الفرص لأحدثك وأنت غافلة ، وأنظر اليك من حيث لاتشعرين ، طمعاً فى أن أظفر منك بلفتة لم يشنها التصنع ، أوخطرة لم يفسدها التقليد ؟ أتحسبين أنه لوأقبلت على فتاة ملء العين والقلب كان فى مقدور الجمال أن يزحزح هواك من قلبى حتى تحل منه مـكانا كان قبلك غير مأهول ؟ وهل ترين أن ذلك لوصح - على سبيل الفرض والتقدير - كنت أقدر على التفوه بكلمة الاخلاص والفناء فى الحبيب ؟ وإذا كان محالا أن

أفتح ذراعى لفتــاة غيرك وهى تقبل على وتصدف عن سواى فكيف أطرب من كلمات تقدمها معشوقة إلى عاشق ، من حيث لا يصح لفتاك المدله أن يسمع لغير ما يجرى على شفتيك من حديث ؟ أم كيف أعتد بخطاب وضعه رجل على لسان امرأة، فكان غاية فى المسخ والتشويه ؟

لم يرقنى من تلك الرسائل إلا ما فيها من الأغلاط الاملائية لأنها تمثلك وقد حفظت بعض القطع المختارة فبدا لك أن ترسلى شيئا منها إلى محبك المسكين ، ظنا منك أنه يسكن إلى الكلام الجزل ، ويخلد إلى القول الرصين ، وقد فاتك أن تذكرى أنى حفظت فى عهد الحداثة أكثر ما كتب الحريرى ، والخوارزمى ، والبديع ، ومن اليهم من فحول الأدب وأعلام البيان ، وأنى وإن نسيت أكثر ما حفظت لا أزال أملك من آثارهم مـا يغنينى عن النظر فى أكثر المخطوطات الجديدة التى تقترب فى مبناها من تلك السبائك التى تعز على من رامها وتطول . فما كان أغنانى إذا عن . . !!

إن هناك فرقا بين عاطفة الحب وبين الحـاسة الفنية ، فانا أنعم برسائلك مــن ناحية غير ناحية الصبابة . ولست أناجيك حين أقرؤها لأنك لم تصورى بهـا قلبك وهو يفيض حنانا على محبك الذى يعيش فى أهله كالغريب ! ولولا أنك كتبتها بخطك الذى يسحرنى خلوصه مــن شوائب التنميق ، وأفضت عليها عبقا من روحك

حين الاختيار؛ ولولا أنها منك يافتحية ، لعددتها من سقط المتاع !!
لأني لا أطرب للآداب والفنون ، إلامن حيث هي وسائل إلى
القلوب الصوادف ، وقد منحتنى قلبك والحمد لله والحب ! فماالذى
حال بينك وبين إرساله إلى فى ثنايا الخطاب ؟ أتذكرين الكلمة البديعة
التى وصلتنى منك فى العام السالف ؟ أنا أذكرها لك الآن لتعلمى أنى
أعشق الروح قبل أن أعشق مايصور الروح ، تلك هى قولك فى
حلو العتاب (والدى واخد على خاطره من سيادتكم) وكذلك فلتعلمى
أن اللغة الفصيحة لاتحلو منك إلابعد أن تتذوقى الآداب . وبهذه
المناسبة أرجو أن لاتكتبي إلى ثانية باللغة الفرنسوية لأنى لم أطمع
بعد فى أن أسمع منك رجع الحمائم في أبراج باريس ! وكم تمنيت أن
تدرك الفتيات المصريات سر اللغة العربية فيسمع منهن المصريون
ماكان يسمعه توبة من ليلى الأخيلية ، وما كانت تدخل به ولادة
على فؤاد ابن زيدون

عفا الله عنك يافتحية فقد أخطأت كما يخطىء بعض الناس .
وإني لأرجو أن لايكون النهوض فرديا فى مصر على حين أصبح
خلقا عاما فى كثير من الامصار والممالك ، فان عدت إلى التقليد بعد
مبعث الابداع فسيطول اللوم والتأنيب . أما الآن فلك من غفلة
الجمهور شفيع ، والسلام

اكتوبر سنة ١٩١٨

حديث الحب

— ١ —

كتبت الآنسة الاديبة حياة فهمى كلمة عنوانها (لعن الله الحب) وقد أنحت فيها على الحب والمحبين . قالت فى أثنائها عن نفسها :

«لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» ثم قالت : «الحب عدو لدود للانسان . فيجب أن يبعد عن القلوب ، ويجب أن تعيش القلوب فى جو غير جو الحب»

(. . . . تباعدوا عن الحب)

وقد رأيت أن أجيبها عن كلمتها تلك بهذه الكلمة الصغيرة. قلت:

تلوم حياة على العاشقين رويدا ورفقا بنا ياحياتى

جهلت الغرام فلمت المحب هنيئا لعينيك فى الناعسات

أليس كذلك أيها الاستاذ زكى مبارك ؟؟ اليك يساق الحديث ، والسلام

(السكرية) (شاعر)

(١) كتبت هذه الرسائل فى أوائل سنة ١٩٢٢

— ٢ —

فى مصر شاعر كبير ، وافر الأدب ، كثير الحياء ، يحدثك وكأنه يستفيد منك فيملى عليك مايبهرك من آياته البينات ، وما زلت أذكر كلمة صديقى الأستاذ الشيخ سليمان نوار وقد حادث هذا الشاعر الجليل منذ ثمان سنين ، إذ قال لى بعد هذه المحادثة: انك لاتدرى أتعده من الشعراء ، أم تعده من علماء الأدب ، فتذكرت إذ ذاك قول القدماء فى الاصمعى : إنه أعلم الشعراء ، وأشعر العلماء

ولهذا الشاعر طابع خاص فى النسيب ، يكاد يتمثل فى قوله :

أحس فى القلب وقداً يارب لاكان حبا

وقد اخترت هذا البيت لقربه من كلمته فى حوار الآنسة حياة فهمى :

تلوم حياة على العاشقين رويدا ورفقا بنا ياحياتى
جهلت الغرام فلمت المحب هنيئا لعينيك فى الناعسات

ولهذا الشاعر المقيم (بالسكرية) فضل الاشادة بكاتب هذه السطور ، فقد دعانى الى حساب الآنسة حياة ، وهو يعلم كيف عجزت عن حساب الآنسة منيرة ، وإنى بهذا العجز لمختال فخور !!

يرى سيدى الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب فلامت المحبين ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب ، لأن المرأة كالسياسى سواء بسواء يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتبون ، فاذا قال السياسى (لا) فاعلم أنه يريد (نعم) وإذا

قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) واذا قالت المرأة (لاأحب) فاعلم أنها (تحب) وإذا زعمت انها (كارهة) فاعلم انها(راضية)فان كنت فى ريب من ذلك ياصديق الاديب فانى أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك فى جريدة الافكار سنة ١٩١٩

عهد السياسة كاذب لله درك ياسجاح

وقد قال (تاسو) الشاعر الايطالى المعروف : إن المرأة تفر وتود أن تلحق وهى فارة ، وتأبى وتود فى إبائها أن تسرق ، وتناضل وترغب أن يظفر بها فى النضال ! فقول الآنسة حياة « لست ممن تغلب الحب على قلوبهم » معناه ان الحب صيرها باكية العين دامية الفؤاد !! وقولها (الحب عدو لدود للانسان ، فيجب أن يبعد عن القلوب) معناه : الحب مادة الحياة ، فيجب أن تزود به القلوب وقولها تباعدوا عن الحب معناه : أقبلوا على الحب ، بأسماعكم ، وابصاركم وقلوبكم أيها الشباب !

هذا ياصديقى ماتريده الآنسة حياة فهمى . فهى حين تقول « لعن الله الحب » انما تريد « حيا الله الحب » !

ولا يفوتنى قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للانسة حياة هذا السؤال : انت تأمريننا بأن لانحب (سمعاً وطاعة !) ولو انى سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاما لنجوت من الحب ، ولاسترحت الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكنى يامولاتي لسوء الحظ قد أحببت ، وقد ضربت بمحبتى الأمثال ، وأريد أن أسلم من الحب

على يدك الطاهرة ، جعل الله فى يمناك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك أن تصفى لى طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن أسماء الحب الضلال ؟ ؟

أنا فى انتظار الجواب !

ملحوظه - أرجو أن تحترس الآنسة حياة ، وهى تكتب انواع العقاقير من أن تنهانى عن التطلع إلى العيون والخدود والثغور والنحور والنهود ، فانه لاسبيل إلى مثل هذا المتاب ! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال ، كما يرد الشارب الكأس وهى تتوهج بين أنامل الساقى الجميل !!

— ٣ —

رغب الأديب الكبير النابه والكاتب الفنان اللبق الأستاذ زكى مبارك فى كلمته الى الكاتبة الأديبة الآنسة «حياة» أن تصف له دواء للسلوة عن الحب . فقد اعتزم الأبلال منه فيما يقول بعد أن مست فيه العيون وتوزعت لبه الغيد . بيد أنه اشترط عليها فيما استوصفها إياه من الوصفات والعقاقير الاتحميه بواعث الشوق ولاتحجر عليه أسباب الهوى ودواعى الشجن فقال «أرجوأن تحترس الآنسة حياة وهى تكتب أنواع العقاقيرمن أن تنهانى عن التطلع الى العيون والخدود والثغور والنحور والنهود : فانه لاسبيل الى مثل هذا المتاب . وانما أريد أن اسلو وأنا أعبث بأفنان

الجمال ، كما يرد الشارب الكأس وهى تتوهج بين أنامل الساقى الجميل»

فكان كمن يتقى الداء بالداء ويستكف النار بالحلفاء . وأكبر الظن أن تلك الوصفات وهذه العقاقير لا تصاب فى «صيدلية» آنسة خفرة حيية مثل الآنسة حياة !

من أجل ذلك نتشهى على صديقنا النبيل أن يتقبل منا أن نستطب لدائه عنها ، ونصف له الدواء ، نحن لا هى . أجل إنه لعزيز علينا أن يرمى ذلك الجفن الغضيض بالاطراق ، ويندى ذلك الجبين الوضاح بالخفر ويضرج ذلك الخـــد بالحياء ، فليأذن لى في أن أنشده قولى

تناهب لبـك سود العيو ن وقسمت فى كل نهد ونحر
دواؤك عند مراض اللحا ظ ولا يبطل السحر الا بسحر

ذلك دواؤك الذى يطيب لك ويقر بعينك تناوله . ولا ندعو لك الله بالشفاء ، من ذلك الداء ، وإن أبيت إلا جفوة للحب ، وعربدة على من تحب ، فطالما سمعناك تنشد مثل قول الشاعر :

أعز الله أنصـــار العيون وخـلد ملك هاتيك الجفون
ودام لها على ضعفى اقتدار وإن هى أفسدت عقلى ودينى

وبعد فهنيئاً لك تلك السلوة . وندعو الله لصاحبتك سالبة لبك . بل ندعو عليك لالك بمثل ماقلته أنا لشبيهتها آنفا من كلمة :

لا شفى الله منك جفنا مريضا وشفى من جراح جفنيك مرضى

آمين آمين . والسلام عليك

حسن القاياتي

كيف عرفت فقيد اللغة والادب

الشيخ سيد المرصفى

كلمــــة رثاء ـ كيف رأيت الشيخ المرصفي لاول مرة ـ كيف كان يحاور الطلبة ـ فضله على كاتب هذه الرسالة ـ كيف نشأ وكيف تعلم ـ تفرده بالتعمق فى فهم اللغة والادب ـ رأيه فى قدم العالم ـ كيف ثارت فى درسه مسألة القبر النبوى ـ حقده على مشايخ الازهر ـ ايمانه بجلال القرآن واحترامه للرسول ـ رأيه فى محمد هلال ـ موقفه فى مسألة الشيخ على عبد الرازق ـ كيف ثار عليه الدكتور طه حسين ـ اشتراكه فى الثورة العرابية ورأيه فى تضامن المصريين ـ حبه للمال وسخريته من السخاء ـ رأيه فى الحجاج ـ كيف أفنى بصره تحت ضوء المصباح

باريس فى ٧ مارس سنة ١٩٣١

كنا فى ساعة أنس ، وكان الرفاق يتحدثون فى صفاء ، فيلقون الكلام على عواهنه ذات اليمين وذات الشمال ، وجرى فى المجلس تدريس الادب فى المعاهد المصرية ، فانطلق المحدثون يسلقون مدرسى الأدب بألسنة حداد . فقلت : كيف غاب عنكم أيها الرفاق ان تذكروا دروس الشيخ المرصفى فى الازهر الشريف ؟ فقال قائل منهم : أتريد الشيخ سيد المرصفى الذى مات منذ أسابيع؟

ـ مات منذ أسابيع ؟ وكيف ؟ لعله مرصفى آخر أيها الرفيق !

ـ المرصفى الذى نعته جريدة الاهرام وجريدة الشورى هو مؤلف أسرار الحماسة وشرح الكامل ، فهل هو صاحبك الذى تريد؟

ثم كانت لحظة دارت فيها الأرض ، ومادت السماء ، وانطلق الرفاق فى حديثهم لايلوون على شيء وظللت فى حزن صامت عميق هو أشجى وأوجع من البكاء والنحيب

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا

مات الشيخ المرصفى دون أن أبلل أكفانه بدموعى ، ودون أن أحمل نعشه إلى مقره الاخير

فيا أيها الرجل الذى عرفت بفضله أسرار اللغة العربية واستطعت بفضله أن أرفع رأسى بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام أيها الرجل ، أنا مدين لك بكل شيء فى حياتى اللغوية والأدبية ، ولا يزاحمك فى قلبى إلا إنسان واحد هو فقيد الأدب والبيان الشيخ محمد المهدى الذى خلانا وراح مبكيا عليه منذ سنين

لست وحدى تلميذك أيها الشيخ الجليل ؛ فهناك مئات انتفعوا بعلمك وأدبك ، ولكننى الرجل الوحيد الذى بكى لموتك فى حرارة دونها بكاء الأطفال ، وكاد نعيك يقض مضجعه فى هدآت الليل وينسيه معاني الحياة فى مدينة الحياة

***

فى سنة ١٩١٣ رأيت فى الازهر رجلا نحيل الجسم ، غائر العينين ، لاتفصح سيماه عن شيء ، وحوله عشرة من الطلاب ، وهو ينشد بصوت شجي حنون :

حمامـة بطن الواديين ترنمى سقاك من الغر الغوادى مطيرها
أبيني لنا لازال ريشك ناعما ولازلت فى خضراء جار نميرها

فجلست أستمع لانشاده ، وما هى إلا لحظة حتى تبينت أن الذى يحرم من دروس ذلك الرجل لايخرج من الأزهر إلا بصفقة المغبون . ثم أخذت أواظب على تلك الدروس فى حماسة وإعجاب وكانت عادة الرجل أن يلقى الاسئلة على الطلبة فى تجاهل العارف ، ثم يتركهم يستنبطون الجواب ، وبعد يومين من اتصالى بدرسه جاءت كلمة ابن عباس (ماعصى الله بشعر أكثر مماعصى بشعر عمر بن أبى ربيعة) فقال الشيخ رحمه الله : أهذه مثلبة أم منقبة ؟ فأجاب أكثر الطلاب بأنها مثلبة ، وأجبت وحدى بأنها منقبة . فقال : وكيف ؟ فقلت يريد ابن عباس أن شعر ابن أبى ربيعة يفعل بالقلوب مايفعل الشراب فينقلها من الهدى إلى الضلال !

فقال الشيخ رحمه الله فى حماسة شديدة (إيه ياعروس الأدب !) وكانت أول كلمة حببت إلى قلبي دراسة الآداب .

كان الشيخ خافت الصوت ، فكنت أبكر إلى درسه لأقرب

منه . وكنت أكتب كل ماينطق به ، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراساهى اليوم أنفس ماأملك من ذكريات الأزهر الشريف . وكان الشيخ تعود أن يرانى أمامه ، فجئت يوما متأخرا ، ورفض الطلبة أن يفسحوا لى المجال ، فقال الشيخ :(أين زكى)فأجبت من بعد : هأنذا يامولاى ! فقال الشيخ رحمه الله : (وسعوا له وسعوا له لعله ينفع) !

فان كان من بين آلاف القراء قارىء واحداستطاب ما أكتب ولو مرة واحدة فليذكر أن الفضل فى ذلك يرجع إلى تشجيع الشيخ سيد المرصفى طيب الله ثراه . وإنى لأذكر أنه كان يلقى درسا فى مسجد السلطان برقوق ، ثم حضر الشيخ على الزنكلونى حفظه الله فقال الشيخ : إنه ليحزننى ياشيخ على أن تظل مشيخة الأزهر غافلة عن تشجيع أبنائها ، وإنى لأخشى أن يضيع منا زكى مبارك كما ضاع منا طه حسين !

هـذه أشياء لاتقال ، ولـكن لها دلالتها على رفق ذلك الرجل ـ كان ـ بتلامذته ، وعطفه عليهم ، وتشجيعه إياهم ، فليس ذكرها من الزهو فى شيء ، وقد يكون فيها تذكرة لبعض الأساتذة الذين يشيحون بوجوههم عن تلامذتهم ولايعرفون أن التلميذ ينتظر من أستاذه ماينتظر الابن من أبيه ، وأن كلمة واحدة قد تنقل الطالب من حال إلى حال : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر

ثم ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعى ، فكنت

أحضر جميع دروسه وأصاحبه فى الطريق ، وأمضى إلى بيته فاطلع على ماالديه من مكنون الذخائر الادبية واللغوية وأنشده شعرى فيقومه ويصلح منه فى رفق كثير .

وجاءت أيام شغلت فيها عنه ، فكتب إلى فى سنة ١٩٢٨ يقول « لقد شغلتك الشواغل كما شغلت ولدنا الدكتور طه حسين فماعدت أراه ولاأراك » فمضيت اليه أزوره فوجدته قعيد بيته وقد أضناه المرض وهو بالرغم من قسوة الهرم ماض فى تصحيح شرح الكامل فسألنى رحمه الله عماشغلنى عنه ، فاعتذرت بدروسى فى الجامعة المصرية فقال : كم درسا تلقى فى الأسبوع ؟ فاجبت : عشرة ! فقال : أنتم إذاً فعلة لا أساتذة ! ولماذا إذن تقولون جامعة وتشغلون بكم الناس !

وتلك كانت آخر مرة رأيت فيها ذلك الأستاذ الجليل

***

ولكن كيف نشأ الشيخ سيد المرصفى وكيف تعلم ؟ وكيف وصل إلى ذلك المركز الخطير ؟

المدهش حقا هو أن نرى ذلك الرجل يصل إلى تلك القمة العالية فى فهم اللغة والأدب بدون أستاذ . وقد يقال : إن صيت الشيخ حسين المرصفى بلديه هو الذى أوحى اليه فكرة التعمق فى فى الدراسات اللغوية . ولكن الشيخ حسين المرصفى من طراز آخر ، وليس بين الرجلين صلة ظاهرة من الناحية العقلية . والذى

يقرأ كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى لايرى فيه إلا مجموعة من معارف المتقدمين ، نقل أكثرها بلاتصرف عن كتاب الصناعتين

يضاف إلى ذلك أن الشيخ سيد نشأ فقيرا معدما ، وكان الازهر حين اتصل به لا يعرف ما اللغة ، ولا يدرى ماالادب ، وكان المتأدبون يعيشون بين أهله غرباء

والشيخ سيد حين دخل الأزهر عاش أزهريا صميما لأول عهده ، فكان يحفظ المتون ، ويراجع الشروح والحواشى والتقريرات ، وكان يقع له أن يحدثنا فى درسه عن الساعات الطويلة التى كان يقضيها فى حضرة الشيخ الشربينى ، وبلغ به الأمر مرة أن لعن علماء الازهر أجمعين فى إحدى المناسبات ، فتأفف بعض الطلاب ، فقال الشيخ :

« أنا مالى ، أنا أفكر فيكم ، أناخلصت ، أنا خلصت »

وكنت فى تلك اللحظة أتامل وجه الشيخ وأرقب تغير أساريره ، فرأيته يقول فى صوت خافت وقد واجه صفحات الأمالى

« أنا خلصت ! ولكن كيف ؟ بعد ماضيعت شبابي فيما لا يفيد من علوم هؤلاء الناس ! »

فليت شعرى كيف استطاع الشيخ سيد أن يخلص من الدراسات الأزهرية ، ويفرغ لدراسة اللغة والأدب ، بحيث أمكنه أن يكون نسيج وحده فى هذا الباب ؟

وهنا لانجد بدا من أن نصارح القراء بأن الشيخ سيد المرصفى عاش وحيد زمانه فى مصر والشرق نحو ثلاثين عاما كان هو الحجة البالغة فى فهم اللغة والأدب والقرآن ، وكان لايستطيع إنسان مهما كابر أن يزعم أنه يقارب الشيخ المرصفى فى فهم النصوص القديمة ، وحسب القراء أن يذكروا أنه هو الرجل الفذ الذى تفرد بدرس الأراجيز ، ونسخها بخطه وشرحها شرحا وافيا لازيادة بعده لمستزيد ، فى عصر قل فيه من يستطيع أن يواجه رؤبة أو العجاج

وهذا الذى أقوله لا مبالغة فيه ، وهو رأى المنصفين من الذين تلقوا عن الشيخ المرصفى أوصاحبوه ، وفى ذلك مايضاعف الحيرة لمن يريد أن يعرف كيف انقطع ذلك الرجل لدراسة اللغة والأدب فى عهد كان الانقطاع فيه إلى الأدب من أمارات الفلاكة والجنون

وهل يستطيع القراء أن يدلونا كيف كان يمكن رجلا أزهريا فقيراً معدماً أن يصل بجهده إلى مقارعة الكسائى وسيبويه وابن الأعرابى والزمخشرى ؟ وكيف أمكنه أن يتفرد بتلك القوة نحو ثلاثين عاماً ؟

لقد فكرت كثيرا فى الظروف التى كونت الشيخ سيد المرصفى ثم انتهيت إلى أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

*

***

كان الشيخ المرصفى غريبا بين الأزهريين لا يحب أحداً ولا يحبه أحد، وقدمرت أيام كان يتقرب فيها إلى ربه بلعن علماء الأزهر ولذلك أسباب نبدى بعضها فى هذا الحديث :

جرت فى درسه مرة عبارة : (العالم قديم) فقال : إى والله ! العالم قديم

وهنا نقرر أن الشيخ المرصفى كان له إيمان خاص ، وكان لا يتورع أن يذكر أن أكثر الناس على ضلال ، فلم يكد الأزهريون يتسامعون بأنه يقول بقدم العالم وأنه يعتقد غير ما يعتقدون حتى انطلقت ألسنتهم بذمه وثلبه ورميه بالكفر والفسوق .

وقد استطاع الأزهريون مرة أن يحملوا الشيخ حسونة النواوى على تعطيل درسه إلى أن أشار الشيخ محمد عبده باعادته ، وهناك حكاية مستفيضة لا بأس من ذكرها فى هذا المقام ؛ فقد تحدثوا أنه مرت فى درس الشيخ المرصفى عبارة جاء فيها أن الحجاج قال عمن يطوفون بالقبر النبوى « إنما يطوفون حول جيفة » وكان الشيخ طه حسين يومذاك يواظب على دروس الشيخ المرصفى ، وكان فيما زعموا يتشهى الالحاد والخروج على الدين ، فأخذ يقول : كلام الحجاج صحيح ، وصحيح جدا ، ولم لا يكون صحيحاً وكل جسم ميت أو سيموت ، وكل ميت جيفة أو سيصير جيفة ، وجسم النبى ككل

الاجسام ، وكل الأجسام تبلى فجسم النبي يبلى ، وكل بالجيفة فجسم النبي جيفة الخ ، فقامت مناوشة عنيفة بين الطلبة وبين الشيخ طه حسين ، ووصل الصدى إلى الشيخ حسونة فأمر بتعطيل درس الشيخ المرصفى ، وكانت أول مرة اتهم فيها الدكتور طه بالمروق وأخذ الأزهريون ينسبون مروقه إلى الشيخ المرصفى ، فى حين أن الشيخ وتلميذه لم يقصدا الاساءة إلى الرسول .

وهذه القالة السيئة التى دارت حول الشيخ المرصفى جعلته يحتقر مشايخ الأزهر ويحقد عليهم ، ولا يذكر أحدا منهم بخير حتى الأموات منهم . وأذكر أن المرحوم الشيخ مصطفى القاياتى كان يلقى دروسا فى الأدب والانشاء ، وكان الطلبة يقبلون عليه أيما إقبال وكنت من المعجبين بالطريقة الخطابية التى كانت تصبغ بها دروسه فسألت الشيخ المرصفى مرة عن رأيه فيه فأخذ يتجاهل السؤال فألححت عليه ، فلم يكن منه إلا أن قال : وأين الشيخ مصطفى من أبيه ؟ لقد كان أبوه ملكا . . وبهذا فر من الجواب !

ولكن هل معنى هذا أن الشيخ المرصفى كان رقيق الدين ؟ أستطيع أن أؤكد أن الشيخ المرصفى كان من أقرب الناس إلى ربه وإن لم يكن من أحرصهم على التمسك بالحروف ، فقد كان ذلك الرجل دقيق الاحساس أمام القرآن المجيد ، ولم أجد فيمن عرفت من كان يفهم القرآن كما يفهمه غير المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش وكان جمال القرآن يحمله أحيانا على الذهول ، وكانت له لحظات

يقضيها أسير الخشوع لروعة القرآن الشريف ، وكانَ يسمى النبى عليه السلام « سيدنا رسول الله » وكانت كلمة « سيدنا » حية فى نفسه حياة قوية جدا لا يدركها إلا المؤمنون الفانون فى الله والرسول

***

أشرت فى صدر الكلام إلى أن هناك مئات انتفعوا بأدب الشيخ المرصفى ، ولتحديد ذلك أذكر أن أدبه وعلمه وصلا إلى الناس عن طريق تلاميذه ، أما هو فلم يتتلمذ له شخصيا إلا عدد قليل ، ولذلك أسباب : منها انه كان ضعيف الصوت فلم يكن يستمع اليه فى الازهر أكثر من عشرة طلاب ، ومنها أنه كان قاسيا عنيفا فى معاملة الطلاب الذين حرموا سلامة الذوق واشتعال الذكاء ، وكانت أصغر قذيفة يلقى بها فى وجه الطالب المتنطع عبارة : « نعم ، يا ابن خروف! » وكان من العسير عليه أن يصبر على الطالب المتوسط الادراك وكذلك كان يطرد بعض الطلاب في كثير من الأحيان، ومنها أنه كان يحبس الطلبة فى درسه نحو ثلاث ساعات ، وأين من يصبر على ذلك فى زمن عرف أهله بالسآمة والملال . لاسيما إذا لاحظنا أنه كان يواجه مشاكل دقيقة من لغوية ونحوية وصرفية فى عناية لا يصبر على لأوائها إلا الأقلون

وأظهر الاسباب فى انصراف الناس عن درسه يرجع إلى أنه كان يفسد الطلبة على مشايخهم إفسادا لا صلاح بعده . فقد كان سيء الظن جدا بمدرسى الأزهر ، وكان يراهم جميعا كسالى أدعياء ، وكان فوق هذا يراهم فى الايمان من العوام المقلدين . ولهذا كان لا يتعلق به إلا الطلاب الذين يتأهبون للثورة على الازهر وتقاليده ، حتى ليندر أن يوجد بين الثائرين على التعاليم الازهرية شاب لم يصله بالشيخ المرصفى سبب قريب أو بعيد

ولنقيد هنا أن تلامذة الشيخ المرصفى لم يقصروا على الأزهر وحده ، فقد كان يعطى كثيرا من الدروس الخصوصية لعشاق اللغة والأدب من غير الأزهريين وأظهر تلامذته الأجانب عن الأزهر الكاتب المعروف محمد إبراهيم هلال

كان محمد هلال بك غنيا ، وكان كريما ، وكان فيما يظهر خفيف الروح عذب الحديث فتعلق به الشيخ المرصفى تعلقا شديدا ، وظل يتغنى به طول حياته ، ولا أذكر أنه سألنى عنه إلا وعينه مغرورقة بالدمع .

ومن موجبات الأسى أن محمد هلال بك اضطر فى الأعوام الاخيرة أن يتكسب من قلمه المرهف البليغ ، فكانت أخبار ذلك تقع على الشيخ المرصفى وقع الصاعقة ويقول : لعاً لك أيها الجواد المتلاف!

كان الشيخ المرصفى شاعرا ، ولكنه لم يقل شيئا جيدا إلا فى محمد هلال بك ، وكان يرى أن الشعر لا يطيب فى إنسان سواه ..

وتلك إشارات نثبتها للادب والتاريخ

***

ومن تلامذة الشيخ المرصفى على عبد الرازق ، وطه حسين وقد كان هذان الرجلان يمجدانه كل التمجيد إلى أن جاءت حكاية كتاب الاسلام وأصول الحكم ، فنفضا أيديهما من وداده آسفين

وتفصيل القصة أن الشيخ المرصفى كان عضوا فى هيئة كبار العلماء التى قضت بحرمان الأستاذ على عبد الرازق من لقب العالمية وفصله من منصب القضاء . وقد كان حكم الهيئة بالاجماع ، وكان ينتظر من الشيخ المرصفى أن يدافع عن تلميذه ولكنه لم يفعل

وكان هذا الموقف سببا كافيا لأن يبسط الدكتور طه لسانه فى أستاذه القديم ، فكان يقول بدون تورع : ماذا تنتظرون من رجل كان يتقاضى سبعين قرشا فأصبح يتقاضى أربعين جنيها ! يريد أن الشيخ المرصفى جبن عن نصرة تلميذه خوفا من الفقر وتعلقا بالثراء

والواقع أن الظروف كانت سيئة جدا ولم يستطع الشيخ أبو الفضل الجيزاوى نفسه أن يدافع عن الشيخ على ، مع أنه كان من أكثر الناس احتراما لأسرة عبد الرازق ، والدكتور طه نفسه لم يدخل الميدان مدافعا عن الشيخ على ، ولم يكتب فى مناصرته إلا مقالة واحدة لم يذيلها باسمه الصريح ، ولهذا معناه عند من يعقلون !

يضاف إلى ذلك أن الشيخ المرصفى كان قد أسن جداً وفقد نشاطه ، وانضوى طائعاً بحكم السنين إلى صفوف المحافظين ، فلم يكن ينتظر منه أن يناصر رجلا وصفوه بالكيد للدين والخروج على التقاليد

وقد عاتبت الشيخ المرصفى بعد ذلك فقال : الشيخ على رجل فاضل ، ولكن قلمه أحمق

فيادكتور طه ، من لك بأخيك كله ، لعل له عذرا وأنت تلوم !

***

اشترك الشيخ المرصفى فى الثورة العرابية ، ثم اعتقل مدة قصيرة. فلم يسأل عنه احد ولم يفكر فيه صديق . فلما خرج من المعتقل وضع لنفسه خطة سار عليها طول حياته ، وهى سوء الظن بتضامن المصريين ، وقد بلغ به الأمر أن يرفض الاشتراك فى جمعية أزهرية تكونت سنة ١٩١٥ للدفاع عن الدين ، وحجته فى ذلك كانت أن العلماء كسائر المصريين لا تصح الثقة فيهم ، ولا يحسن الركون إليهم . . . وهذه كلمة نثبتها للتاريخ ، راجين ان تكون الجماعات المصرية أعلى من أن يصدق فيها هذا الرأى الفظيع . . وكذلك كان رأى الشيخ المرصفى سيئا فى الهيئات الاسلامية جميعاً ، فلم يكن يفكر فى شرق ولا غرب ، ولا تتعلق نفسه بشىء غير التدريس والتأليف

وكان رحمه الله يحب المال حبا جما ، وكان لا يتحرج من إعلان أن السخاء المعروف عن العرب لم يكن إلا ضربا من الجنون

وقد وقعت فى درسه مرة العبارة الآتيـــة :

وقف رجل على باب بيت وقال : هل من لبن يبـاع ؟ فقالت ربة البيت : إنك يا هذا لئيم ، أو حديث عهد بقوم لئام ! هل يبيع اللبن كريم ، أو يمنعه إلا لئيم ؟

فقال الشيخ : يا سبحان الله ! أنا لا أفهم هذه الأشياء

وكان إذا سلم عليه أحد الطلبة فرأى يده ناعمةلينة قال له : مالك كدهيدك زى يد الأولياء !

ثم ينطلق فيعجب كيف يأكل المتصوفة طعام الناس ثم تقبل أيديهم ، ويقول : هم الذين يجب عليهم أن يقبلوا أيديكم لأنكم تطعمونهم ، فما هذا الحال المقلوب !

وجاء فى درسه مرة قول بعض الأعراب يودع رفيقا له : انصرف راشدا يرحمك الله !

فقال الشيخ : هذا هو الكلام . ولكنكم تجدون علماء الأزهر جميعا يكتفون بعبارة واحدة :

« الله يفتح عليك »

وهى عبارة كانت تجرى على ألسنة المشايخ جميعاً حتى غيرها أستاذنا الشيخ الظواهرى بعبارة

« بارك الله فيك »

فهى الآن فيما أظن كلمة الشيوخ أجمعين أكتعين أبصعين !

وكان الشيخ رحمه الله قد لقى الأمرين من أصحاب المكاتب فقد كانوا يأخذون مؤلفاته ثم لا يفكرون فى الحساب فقرر أن يبيعها بنفسه ، وهى خطة عوجاء ، وهذا هو السبب فيما أصيبت به مؤلفاته من الخمول

كان الشيخ المرصفى بخيلا على نفسه فى كل شىء ، إلا فى اقتناء الكتب ، وقد شكوت إليه مرة أنى لا أملك نسخة من لسان العرب فقال فى انفعال : بع ثيابك واشتر نسخة من اللسان

وكان رحمه الله يرى أن العرب اختصوا من بين الأمم بالفصاحة والبيان ، فكان يقول كلما جاء شاهد جميل : هم العرب يقولون ما يشاءون !

وكان رحمه الله يحترم الجبابرة من القواد أمثال زياد والحجاج وكان يعيب على المشايخ أن يقولوا فى الحجاج: قبحه الله ! وقد غضب أحد الطلبة يوما من ثناء الشيخ على الحجاج ، فرفع الأستاذ بصره وقال للطالب : لو نشأت فى عصر الحجاج لكنت رجلا !

وقد نظر الشيخ مرة فى الكتاب فزاغت عينه عن السطر المطلوب فقال :

رحمة لك ياعينى ! لقد طال ما أقذيتك تحت ضوء المصباح !

*

. . .

وبعد فهذه كلمات تمثل شخصية الشيخ المرصفى بعض التمثيل أردنا بها التقريب لا الاستقصاء. فرحمة الله على ذلك الرجل الذى كل نفع من اتصلوا به، وهداهم سواء السبيل فى فهم نصوص الآداب

ومانزعم اننا وفيناه حقه، وإنما أدينا بعض مايفرض الوفاء والسلام عليه بين الأبرار

فيه قولان!

الح بعض الأدعياء على أبيه أن يدعى العلم!! وزوده بهذه النصيحة: اذا سئلت عن شيء لم تعرف وجه القول فيه فليكن جوابك (فيه قولان) فسمع الوالد نصيحة ولده البار! وكان الناس قديما قلما يعنون بغير المسائل الفقهية والنحوية، فسأله سائل عن طهارة الكلب فأجاب: فيه قولان، فقالوا صدق لأنها موضع خلاف بين الشافعية والمالكية!! وسأله آخر أيرفع الخبر أو ينصب بعد ما؟ فأجاب فيه قولان! فقالوا صدق لأن فيها خلافا بين الحجازيين والتميميين!

وكان فى المجلس رجل ماكر ظريف فلاحظ أن هذا الرجل جاهل وأنه ينفذ خطة رسمت له . فسأله : أفى الله شك ؟ فأجاب المسكين فيه قولان !

فجاء ابنه — رضى الله عنه ! — وقال صدق فى جوابه فان فيها قولين فى الاعراب ! ولكن هيهات أن تغنى المغالطة بعد أن ضحك الناس من عمامة أبيه !

وهكذا تجرى الحال فى مصر : فكل مشكلة لها وجهان ، وكل أمر فيه قولان ، ولا يعلم إلا الله متى يعرف المصريون كيف تحدد نقط الخلاف .

الادب الجديد

أ كنت تحسبنا فى حاجة إلى أن نبنى دارا جديدة للبرلمان لو أن قصر « اللابيرانت » موجود ؟ إننا لو فعلنا ذلك لكنا من المسرفين وهل ترى من الحزم أن نبنى قناطر أخرى بمحاذاة القناطر الخيرية وهى ماهى فى متانة البناء[١] ؟ وهل ترى من حسن الادارة أن نحفر مجرى آخر للنيل يساير فرع رشيد أو فرع دمياط على حين لم يشك أحد الظمأ بالقرب من هذين الفرعين ؟ وهل تجد من الرأى أن يبنى مسجد جديد فوق القلعة مع أن مسجد محمد على يسع أضعاف المصلين هناك ؟

(١) تغيرت الحال ، فقد كتب هذا المقال منذ زمان

الأمر واحد أيها القارىء فى عالم المحسوسات وفى عالم المعقولات فما بالنا نبنى ما لا حاجة اليه فى الآداب باسم التجديد والابداع ؟ وأريد أن أقدم لك هذا الموضوع بشىء من التفصيل : هل تذكر أن النقاد الأقدمين فضلوا جريرا على الفرزدق لأن هذا ماتت امرأته «النوار» فلم يبكها إلا بقصيدة جرير فى بكاء امرأته :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

وهذا لا يدل عندى على أن الفرزدق أضعف من جرير فى الرثاء ولكنه يدل على حبه للقصد وبغضه للاسراف ! وإلا فما الحاجة الى أن ينظم فى رثاء امرأته قصيدة جديدة وأمامه قصيدة جرير تسعده على البكاء ؟

إن عرائس الشعر فى عالم المعقولات تشبه الأنهار فى عالم المحسوسات ، فكما لا يجوز أن تحفر نهرا جديدا تتلف فى سبيله ماشئت من المبانى والمزارع من غير حاجة ماسة ، لا يجوز أن تنشىء قصيدة جديدة تسهر من أجلها ليلك من غير سبب معقول . وليس معنى التجديد والابداع أن تزيد أو تنقص ما أجاد فيه من قبلك الكتاب والشعراء ؛ وإنما تكون مبدعا حين تنشىء آثاراً جديدة فيما غفل عنه الأقدمون أو قصر فيه المحدثون .ولأضرب لك الأمثال :

ألم تشك مرة غدر الصديق ؟ ألم تحاول النيل من أخ كان وفاؤه طيب الحياة ، ثم عاد غدره نكد الحياة ؟ فان كنت وقفت هذا الموقف فى حياتك الوجدانية ؛ فهل تذكر أنك فزعت بعد نية القطيعة

إلى الصفح الجميل

كثير منا عالج هذا الموقف العصيب ، ثم هم بأن يعبر عنه رسالة أو ينظم فيه قصيدة ، ولكن ألا يكون من العبث أن يفعل ذلك وقد سبقه الشريف الرضى إلى الغاية القصوى فى استبقاء الصديق

وإليك ماقال الشريف :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه ... أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظـــاهرا متبلجا ... وأدمج دونى باطنا متجهما
ولو أننى كشفته عن ضميره ... أقمت على مابيننا اليوم مأتما
كعضو رمت فيه الليالى بقادح ... ومن حمل العضو الاليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه ... أقول عسى ضنا به ولعلما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ... ومن لام من لا يرعوى كان ألوما
هى الكف مض تركها بعد دائها ... وإن قطعت شانت ذراعا ومعصما
دع المرء مطويا على ما ذممتــه ... ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته ... على مضض لم تبق لحما ولا دما

خبرنى بربك ما الذى ينقص هذه الصورة الشعرية حتى تحاول بناءها من جديد ؛ وما الذى بقى فى نفسك بعد هذا التفصيل حتى تتورط فى الفضول ؟ إذن فلتكن هذه القطعة أنشودتك حين يبدو لك ما يسوء من صديق قديم

وبعد هذا ؛ أتذكر أنك ظمئت إلى بعض الثغور ، وأنك حين وردت عدت وأنت صديان هائم ، ثم هممت بأن تقول شعراً فى

هذا المعنى الجميل ؟

قل الحق فكلنا ظماء ، ولكن هل وجدت أبدع من قول ابن الرومى :

أعانقه والنفس بعـد مشوقة   اليـه وهل بعـد العناق تدان
وألثم فاه كى تزول حرارتى   فيشتـد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذى بى من الجوى   ليرويه ما تلثم الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليـله   سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وماذا عسى أن تصنع إذا حاولت بسط هذا المعنى البديع ؟ إنك لابد مفسده إذا أقدمت على هذه المحاولة ! ويجب أن تعلم أن الثوب حين يلابس الجسم لايجمل به بعد ذلك أن يتسع ولا يحسن به أن يضيق ، وكذلك الصورة الشعرية حين تلابس المعنى المراد

وهل تذكر أنك هجرت بعض البيوت غير قال ولا صادف ثم أقبلت على بعض البيوت غير عاشق ولاوامق ، وأنك عجبت لترك حبيبك إرضاء لبغيضك ، حين أقبلت على بيت عدوك وأوليت بيت حبيبك الصدود ؟ وهل تجد فى مثل هذا الموقف أجمل من قول الأحوص :

يابيت عاتكة الذى أتعزل   حذر العدى وبه الفؤاد موكل
أصبحت أمنحك الصدود وإننى   قسما إليك مع الصدود لأميل
فصددت عنك وماصددت لبغضة   أخشى مقـالة كاشح لايعقل

وتجنى بيت الحبيب أوده أرضى البغيض به حديث معضل
ولئن صددت لأنت لولا رقبتى أهوى من اللائى أزور وأدخل

فما الذى فات الشاعر فى هذا الموقف حتى تضع له غير هذه الأبيات ، ففى البيت الأول خلاصة الحديث وفى الأبيات التالية إيضاح وتفصيل ، ولعلك لاتجد أحكم من قوله :

وتجنى بيت الحبيب أوده أرضى البغيض به حديث معضل

وهل تذكر أن صديقا لج فى عتابك وكنت فى وده من الأوفياء وأنك أردت إقناعه بأن الحياة قصيرة ، وأن الحزم كل الحزم فى الانصراف عن العتب واغتنام أوقات الصفاء ؟

هذا معنى فطرى يجول فى جميع النفوس ، ولكن هل تجد فيه أجمع من قول سعيد بن حميد :

أقلل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل تارة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألمت مدة ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الاخاء جماعة إن حصلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقت لتبكين بحسرة وليكثرن على منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامق حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ـ ولا سبقت ـ ليمضين
من لا يشاكله لدى خليل
وليذهبن بهاء كل مودة وليفقدن جمالها المأهول

وأراك تكلف بالعتاب ودونا باق عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثر عتبنا ويطول ؟!

ألم تر إلى الشاعر وقد سد فى وجه صديقه منافذ الفراق ؟ ألم تر إليه وقد تحسر على أيام كان يظنها ظوالم وهو الآن يبكيها بالدمع السخين ؟ فما معنى ذلك ؟ أليست هذه دعوة رفيقة إلى اغتنام الصفو العتيد ؟ ولا تنس خوفه من أن يموت أحد الصديقين فتكون قاصمة الظهر ، وغائلة الفؤاد ، وتأمل رفقه فى قوله :

ولئن سبقت ـ ولا سبقت ـ ليمضين
من لا يشاكله لدى خليل

بربك هل تجد أرفق من هذا الدعاء ؟ وهل ترك لك الشاعر شيئا تقوله في هذا الباب ؟ إذاً لاتحاول أن تضع شعرا جديدا فى هذا المعنى الذى وفاه سعيد بن حميد حتى لايقبل المزيد !

ولاأشك أيها القارىء فى أنك رزئت مرة برجل أكول ؟ فان لم يكن ذلك ، فاعلم أنه سيكون . وإني مقدم لك قول ابن هانىء الأندلسى فى هذا المخلوق :

ياليت شعرى إذا أوما الى فمه أحلقه لهوات أم ميادين
كأنها وخبيث الزاد يضرمها جهنم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ! ماأمضى أسنته ! كأنما كل فك منه طاحون
أين الأسنة أم أين الصوارم أم أين الخناجر أم أين السكاكين ؟!
كأنما الحمل المشوى فى يده ذو النون فى الماء لما عضه النون

يخفض الرز من قرن إلى قدم   وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه   نار وفى كل عضو منه كانون
كأنما فى الحشا من حمل معدته   قرنفل وجواريش وكمون
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا   وجاذبتنا أعنتها البراذين

هذه نماذج من الأدب القديم . وقد قدمت لك أن من العقل أن ننتفع بما للأسلاف من الأدب الممتع الرصين ، ومن الأدب ماصار ميراثا للانسانية جمعاء ، فلننتفع به كما هو ولنعفه من التغيير والتبديل . وإذا شئنا أن يكون لنا أدب جديد فليكن فى موضوعات جديدة لم يتناولها الأقدمون ، وإلا أضعنا ماطمحوا اليه من الخلود وأسأنا الانتفاع بما قدموا من جهود !

***

رفقا بالورق والحبر والمطابع ياحملة الأقلام ! لاتكونوا أبواقا للقدماء ، بل كونوا شيئا يذكره التاريخ ! لا خير فى الكاتب إن حرم الصدق والأمانة ، وليس فى السارقين صادق أمين ! اكتبوا بأنفسكم ولأنفسكم ، فان لم تستطيعوا ففى الأدب القديم مايروى ظمأ كم لو تعلمون

فبراير سنة ١٩٢١

*

أحاديث . . .

فائدة مهمة جداً

ما كنت أعرف ، ولا كان غيرى من مدرسى الأدب فى مصر يعرف كيف يغلب على الأسماء العربية فى الأندلس والمغرب وجود مثل زيدون ، وعبدون ، وعيشون ، وخلدون ، ووهبون، وسعدون الخ

و كان الظن أن هذه من صيغ جمع المذكر السالم ، ثم غلبت على أسماء الافراد

ولكن اسمع ماحدثنا به المسيوكولان الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية فى باريس :

اللغة الاسبانية تضيف إلى أواخر الاسماء لفظ (اون) للتعظيم وقد نقل العرب ذلك عن الأسبان حين اتصلوا بهم فى الأندلس فقالوا فى زيد (زيدون) وفى وهب (وهبون) وفى عيش (عيشون) الخ . .

وقد جاء فى كلام لسان الدين بن الخطيب عمن اسمه حفص ما معناه : لقد كان مكتفيا باسمه حفص ، فلما أيسر واستغنى تطاول واستكبر وسمى نفسه (حفصون)

ومن أمثال أهل المغرب (إن كان لك عند الكلب حاجة قل له ياسيدى كلبون)

أليست هذه حقا فائدة مهمة جدا ؟

وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ أحمد زكى باشا كان يلقى محاضرة منذ نحو خمسة عشر عاما عن عرب الأندلس ، فذكر من خصائصهم أن منهم من كان يقول ستين وعشرة فى مكان السبعين وكان الأستاذ يريد أن يقول إن مرونتهم فى التعبير وصلت بهم إلى مثل مايعبر اللاتينيون

فلنعرف الآن أن عرب الأندلس لم يقولوا ستين وعشرة فى مكان السبعين إلا تأثرا باللهجات اللاتينية ، أو تسهيلا للتفاهم مع الاسبان المستعربين

صك أم شيك ؟

كانت الجمعية المصرية فى باريس تعيد النظر فى لائحتها وكنت حاضرا ومعى الاستاذ كولان فكان الأعضاء يسألوننى أن أحول بعض الكلمات الأعجمية إلى كلمات عربية ، فلما جاءت كلمة «أرشيف» رأيت أن أحولها إلى «سجل» وهى كلمة وردت فى القرآن (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) بغض النظر عن احتمال أن تكون فى الاصل دخيلة على اللغة العربية

ثم جاءت كلمة (شيك) فرأيت أن يوضع مكانها كلمة (تحويل) وهى لفظة مستعملة فى إدارة البريد لنفس المعنى الذى تؤديه كلمة (شيك)

ولكن المسيو كولان أسر إلى بتفضيل كلمة (صك) لأنها أصل كلمة

(شيك) فقد نقلها الانجليز أولا عن الفرس فقالوا (تشيك) ثم نقلها الفرنسيون عن الانجليز فقالوا (شيك) (١)

فاذا كانت كلمة (صك) هي الاصل المنقول عنه فلم نتخطاها إلى كلمة شيك ؟

ولا عبرة باحتمال أن تكون فى أصلها فارسية ، لأنها موجودة فى اللغة العربية منذ أكثر من عشرة قرون ، وفى هذا مايكفى لعدها من أصول العربي الفصيح

فلنقترح اذاً على بنك مصر إحلال كلمة صك محل كلمة شيك . . . وكلمة بنك هل تغير أيضا ؟ والجواب أن كلمة بنك قد تعربت ، فى حين أن كلمة شيك لاتزال عليها المسحة الأعجمية

الجهاد فى سبيل الله

الاستاذ كولان يعد من أوائل المتعمقين فى فقه اللغة العربية ، وقد سألته كيف أتيح له - وهو أعجمى - أن يصل إلى هذه الثقافة المتينة فى لغة العرب ؟! فأجاب بأن السر فى ذلك أنه ظفر باساتذة متفوقين فهو أولا تلميذ المسيو مرسيه والمسيو ديمومبين ، وهما من كبار المستشرقين ، وهو ثانيا عاش فى مصر وتتلمذ للشيخ أبو درة

(١) ومعنى هذا أن كلمة صك ذهبت إلى أوربا ثم عادت إلينا وعلى رأسها برنيطة !

هذا جميل ، ولـكن من هو الشيخ أبودرة ؟

هو رجل فاضل من المدرسين بالازهر الشريف وقد اتصل حينا بالجامعة المصرية وجرت على يده القصة الآتية

لما أفرج عن المرحوم سعد باشا وانتقل هو ورفاقه من مالطة إلى باريس قرر طلبة الجامعة أن يرسلوا اليه برقية تهنئة وكان الشيخ على أبودرة أكبر الطلبة سنا وعلما ، فرأوا لذلك أن يطلبوا اليه تحرير البرقية ، فـكتب صدرها هـكذا :

« إلى المجاهد فى سبيل الله والوطن سعد باشا زغلول »

فاعترض فريق من الطلبة قائلين : كلمة «المجاهد فى سبيل الله» تغضب إخواننا الاقباط ، لان الجهاد فى سبيل الله لا يـكون الا لاعزاز كلمة الاسلام ، وسعد باشا يعمل لاعزاز كلمة مصر فقط فمن الواجب إسقاط كلمة «فى سبيل الله» والاكتفاء بعبارة « الى المجاهد فى سبيل الوطن سعد باشا زغلول »

تلك أيام خلت ، وأظننا فهمنا الآن أن الجهاد فى سبيل مصر هو أيضا جهاد فى سبيل الله ، لان الله لا يرضى أن يقنع المصريون بالضيم والهوان تحت راية الاحتلال

الآنسة مى

وبمناسبة الشيخ على أبو درة أذكر أن الجامعة المصرية لذلك العهد لم يـكن فيها من الجنس اللطيف إلا فتاة واحدة هى الآنسة مى وكانت نعمة من الله ساقها الينا فى تلك الأيام ، وكنا جماعة من المحرومين

لانعرف الجمال إلا اذا قرأنا كتاب تزيين الاسواق أو مصارع العشاق
وفى أحد الأمسية جاءت الآنسة مى تسأل عن الحجرة التى تلقى فيها
دروس الفلسفة العربية ، فتحامت أن تسألنى ، لأنى فيما يظهر كنت
«غلباويا» ولأنى كنت نشرت كتابا عن حب عمر بن أبى ربيعة
الفاجر الملعون ! وكذلك لم تجد الآنسة مى أوقر من الشيخ أبى درة
فى لحيته المستديرة وقفطانه الفضفاض ، وكانت هذه المحاورة :

ـــ الآنسة مى : أين حجرة الفاسفة العربية ياأستاذ ؟

ـــ الشيخ أبو درة : نعم يامولاتى ! نعم يامولاتي ! نعم يامولاتى
ولم يستطع الشيخ أن يتجاوز هذه الجملة . فتقدمت إلى الآنسة
مى (فدللتها على السبيل) ثم عدت إلى الاستاذ أبي درة فقات له
«فضحتنا ياسيدنا الشيخ ! ماهذا الهذيان؟»

وانتظر الشيخ أبو درة لحظة حتى أفاق من إغمائه ثم قال :
سبحان الله ! أنا يا أستاذ مبارك لا أستطيع مقاومة الجمال !

فزلقته ببصرى وأنشدت :

أعلى هلا إذ كلفت بها   كنت استعنت بفارغ العقل
أرسلت ترجو الغوث من قبلى   والمستغاث اليه فى شغل

وقد وصلت هذه الحكاية إلى مسامع المرحوم إسماعيل بك
رأفت ، وكان رجلا غزلا هده مر السنين ، فلما لقينى قال : تعال
يامبارك أجب على هذا السؤال : ما معنى كلمة مى ؟

ففكرت طويلا ولم أهتد إلى الجواب

فقال : مى معناها الخمر ، وهى كلمة فارسية ، والفرس يسمون الخمارة (مى خانة)

فقلت : أشكر لك ياسيدى الأستاذ ، ولكن ما مناسبة هذا السؤال ؟ فأجاب : قدرت فقط أنك قد تبحث عن معنى هذا الاسم فأردت أن أعفيك من عناء البحث عن معناه

فيا أيها القراء اعلموا أن (مى) معناها الخمر ، وأن الآنسة مى معناها المدموازيل صهباء !!

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ... فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذاانفردت وماشوركت فى صفة ... فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا

تصفية حساب

كان الأستاذ لطفى بك السيد مراقب الجامعة المصرية فى عهدها الأول ، وقد أخبرني أحد الثقات أنه تحدث فى إحدى سهراته بأن بعض الطالبات فى الجامعة المصرية شكون إليه مرة أن الطلبة يجذبون شعورهن وقت الدرس ، وأنه لذلك فكر فى إبعاد الطلبة عن الطالبات !

وهذا خطأ يحتاج إلى تصحيح ، فان الجنس اللطيف ما كانت تكثر أزهاره إلا فى دروس المسيو لويس كليمان ، وكان جمهور الطالبات من عناصر أجنبية ، وكان حرصنا شديدا على معاملتهن بالرفق والحنان

وأنا أقسم بالله أنى كنت فى غاية الأدب ، فان كان فى ريب من

ذلك فليعد التجربة من جديد !

ولكن هل يستطيع لطفى بك أن يراجع مثل هذا الحساب ؟

لقد كان ذلك الرجل ناراً تضطرم فى عهد الشباب ، وهو اليوم كتلة من الرزانة والوقار ، وإن كان يخف أحياناً ، كما تزلزل الجبال !

فيارب باعد بيننا وبين وقار لطفى بك ، فقد يكون نزق الشباب أحب اليك من وقار الكهول !

٢٩ فبراير سنة ١٩٣١

درس الادب

فى الازهر الشريف[1]

نريد أن نعرف لم يحرم طلبة الأزهر من دراسة الآداب العربية ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة التى وضعها قوم أقل عيوبهم أنهم لا يفقهون لغة القرآن المجيد ، ونود لو تفضل القائمون بادارة المعاهد الدينية فدلونا على الغرض الذى رموا اليه حين ألقوا بالطلاب فى بيداء من الخلط والتعقيد، لنطمئن كما اطمأنوا

(١) نشرت فى جريدة اللواء فى نوفمبر سنة ١٩٢٢

ولنترحم مثلهم على المؤلفين الأغبياء الذين أفسدوا ماللطلبة من قلوب وعقول !!

لا تنتظر أيها القارىء من كاتب مثلى أن يحدثك عن جهود العلماء فى نشر الآداب العربية فى ذلك البيت العتيق ، فانى لا أريد أن أفجعك فى آمالك وأحلامك ، ولا أريد أن تعلم ماأعلم من أمر أولئك الذين يحسبون أنهم حارسو لغة القرآن وهم يفعلون بها مالا يفعل الأعداء ! وماظنك بقوم يخطئهم العد من حملة الشهادة العالمية تمضى السنون والقرون وماتظهر لهم رسالة فى اللغة أو مؤلف فى البيان !!

وحسبك أن تعرف أن الاحاطة بالأدب أو الفهم فيه ، مما يغض هناك من أقدار الرجال ، فان كنت فى ريب من ذلك فأت بشاهد واحد يدل على أن الخبرة بالآداب العربية كانت مرشحاً للدخول فى هيئة كبار العلماء ! !

وهل سمعت يوما أن طالبا أخطأه النجاح لأنه لم يعرف منازل الخطباء فى الدولة الأموية ، أو مراتب الشعراء فى الدولة العباسية وهل تحدث العلماء فى ناديهم بأن فلانا غير كفء لدراسة التفسير أو الحديث ، لانه لم يفقه ذوق العرب الذين تلقوا كلام الله وكلام الرسول ؟ وهل كتب واحد من المفتشين فى الأزهر والمعاهد الدينية كلمة واحدة فيها ملاحظة وجيهة عن دروس المطالعة والانشاء ؟ وهل يجرؤ مدرس واحد ممن يدرسون للطلبة كتاب العقد الفريد

فيدعى ولو كذبا أنه خبير بما فيه من مظان الخطأ والصواب ؟ وهل
نجد من بين الذين تصدوا لبيان مافى كتاب الله من الحرام والحلال
من درس الشرائع الوضعية والسماوية لذلك العهد حتى يدرك حكمة
التشريع ، وهذا أول واجب على من يدرس قصيدة قيلت فى غرض
خاص ، فضلا عن كتاب أخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ وهل
تألفت فى الأزهر جمعية أدبية كما تألفت فيه الجماعات للطرق الصوفية
من جميع الأشكال والألوان ؟ أليس فى كل أولئك دليل على أن
الأدب لانصير له فى ذلك المعهد الذى تحتشد فيه الآلاف المؤلفة
من الشباب والكهول ؟ أو ليس فى بعض ماذكرت مايجعل تنبيه
هؤلاء الغافلين فرضا على من يغار على لغة القرآن والحديث ؟

أشراك العقول

لا تجد كتاباً من الكتب الأزهريه قد خلا من الحكم على
الشعر : أحرام هو أم حلال . وهذا خلاف قديم رويت فيه هذه
النكتة الطريفة : وهى أن سعيد بن المسيب سمع رجلا يذكر أن
إنشاد الشعر ينقض الوضوء فأنشد من فوره :

أنبئت أن فتاة جئت أخطبها   عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

ثم أقام الصلاة ! ويذكر الرواة أن سعيد بن المسيب هذا نقل
إليه أن قوماً يكرهون الشعر . فقال : لقد تنسكوا تنسكا أعجمياً !

ويقرب من هذا ما قاله رجل من علماء الدولة العباسية وقد سمع أن الامام مالكا يحرم الغناء فقال : أما والله لو قال مالك ذلك ويدى تناله لأحسنت أدبه ! إن رسول الله ماكان يحرم أو يحلل إلا بوحى من الله !

ولا يزال هذا الخلاف موجودا فى الممالك العربية : فى جريدة العراق التى تصدر فى بغداد مقالة نشرت فى الشهر الفائت ترد بها على بعض الصحف العراقيه التى أنكرت على جريدة العراق(ذكرها خبر قدوم المغنية المصرية الشهيرة السيدة منيرة المهدية)ومنذ شهور نشرت جريدة الاهرام كلمة لاحدى السيدات (الشريفات) تستنكر فيها ان تكتب السيدات الممثلات (السيدة فلانه !) وتستبعد أن يصبح التمثيل حرفة لواحدة من نساء الأشراف . وكذلك ظل الشعر والغناء ثم التمثيل موضع خلاف .

وقد اضطر الغزالى إلى مدافعة هذه الأذواق السقيمة بقوله (إن لله سرا فى مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا فمن الأصوات مايفرح ومنها مايحزن ، ومنها ماينوم ، ومنها مايضحك ، ومنها مايستخرج من الأعضاء حركات على وزنها)ولعل أمثال هذه الكلمات الصريحة كانت من الأسباب التى حملت الجهلة على رمى الغزالى بالكفر ! ويغلب على الظن أن تورط هذا الامام فى مذاهب الصوفية الغريبة كان شبه كفارة لما جناه فى شبابه من التفكير المعقول !!

الشعر والغناء والتمثيل - ولا تنس التصوير الذى حرموه - كل أولئك مما يجب على كل مفكر أن يبعد عن موارده الشهية ليوصف بالوقار والجلال! فيا ويحكم ماذا أنتم صانعون لو شهدتم المعركة القائمة بين الهدى والضلال! إنكم لو رأيتم كيف تتصاول العقول، لسبق إليكم الجنون - إن لم تكونوا مجانين - ولكنه لالوم عليكم، وإنما اللوم على الجبناء الذين جعلوا رأى الجهال مما تنصب له الموازين!

نوفمبر سنة ١٩٢٠

درس فى الادب

قصائد المديح فى اللغة العربية

درس فى الأدب؟

إنها كلمة ضخمة جدا، كنت أحب أن أتحرج منها، ولكن ما الحيلة وطلاب الأدب يحتاجون إلى هذا الدرس أشد الاحتياج وما كانوا يحتاجون إليه لو أن كتاب الصحف والمجلات لم يوحوا إليهم بغض طائفة من الفنون الأدبية، وكتاب الصحف يقدمون المصاعب بلا حساب إلى أساتذة المدارس الثانوية والعالية، فمن السهل أن يتندر كاتب بغمز العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة

ليصبح بغض تلك العلوم شريعة عند الطلاب ، ومن السهل أن يعبث كاتب فيزعم أن الشعر العربى أكثره مديح ، وأن المديح لم ينظم إلا فى طلب المال ، لتصبح قصائد المديح كلها لغواً عند طلبة الآداب.

إن أساتذة اليوم يعانون صعابا كثيرة فى توجيه الطلبة إلى الدراسات الجدية ، لأن هؤلاء الطلبة يرون الحياة الأدبية تنال بأيسر الجهد ويرون من الكتاب من يذيع صيته مع الجهل المطلق بأصول العربية ، ويرون من الشعراء من يهز كتفيه حين توجه إليه مؤاخذة صرفية أو نحوية أو عروضية ، ثم يمضى مرفوع الرأس بين النـاس .

لقد آن أن نعرف أن الأساتذة والصحفيين يشتركون فى تكوين الجيل الجديد ، وأن من الخير أن تقترب أوجه النظر فى فهم الأصول الأدبية ، وإلا فسيقع الطلبة بين تيارين متنافرين أشد التنافر وسيكون لهذه الحيرة آصار خطرة تصبح بعدها عقليات الطلاب موزعة بين القوة والانحلال

وقد يسأل القارىء عن الباعث لهذا الدرس .

وأجيب بأنى كنت أوصى فريقا من الطلبة بالمبادرة إلى اقتناء طائفة من المصنفات أعرف أنها لن تطبع مرة ثانية لأن الناس هنا يغلب عليهم الملل ، والكتاب الذى يقع فى أجزاء كثيرة يندر أن يطبع مرتين فى جيل واحد ، والمكتبة عند الأديب كالمعمل عند العالم ، وطالب الأدب يحتاج إلى تكوين مكتبته رويدا رويدا حتى

تغنيه بعض الاغناء عن تضييع الوقت فى الاختلاف الى المكتبات العمومية ، فلما جاء اسم (مختارات البارودى) وقف أحد الطلبة وقال : « هذه المجموعة أكثرها مديح »

أيها القراء ، إن المديح ديوان العرب فان كنتم فى ريب من ذلك فسأشفيكم من الشك بهذا الحديث .

***

لا أنكر أن كثيرا من الشعراء اتخذوا مدح الملوك والأمراء وسيلة من وسائل العيش ، ولا أنكر أن كثيراً منهم وصل بذلك إلى أسفل دركات الاسفاف ، وأصرح بأن من النقائص النفسية أن يسخر الشعر تسخيرا فى سبيل المنافع الزائلة ، وأعترف بأن هذه النقيصة تمس طوائف كثيرة من شعراء اللغة العربية ، وإن كان من أسباب العزاء أن هذه النقيصة لم يتفرد بعارها شعراء العرب ، فقد كان أكثر الشعراء فى أوربا يعيشون عالة على الملوك والامراء ولم يعرف منهم باستقلال الشخصية إلا القليل .

ولكنى ـ مع هذا ـ أقول بأن المديح ديوان العرب ؛ وهو الوثيقة الباقية على ماكان فيهم من كرم الشمائل والخصال ؛ والمادحون قد يكذبون ولكنهم فى كذبهم يصورون ما اصطلح عليه معاصروهم من ألوان المحاسن والعيوب ؛ فالشاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة ممدوحه ، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق

لانه يصور مايتشهى ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال وهل يمكن الارتياب فى تصوير المكارم البدوية التى تمدح بها الشاعر حين قال :

ومستنبح تهوى مساقط رأسه
إلى كل شخص فهو للسمع أصور (١)
يصفقه أنف من الريح بارد
ونكباء ليل من جمادى وصرصر (٢)
حبيب إلى كلب الكريم مناخه
بغيض إلى الكوماء والكلب أبصر (٣)
حضأت له نارى فأبصر ضوءها
وما كاد لولا حضأة النار يبصر (٤)
دعته بغير اسم هلم إلى القرى فأسرى يبوع الأرض والنار تزهر
فلما أضاءت شخصه قلت مرحبا هلم ، وللصالين بالنار أبشروا
فجاء ومحمود القرى يستفزه اليها وداعى الليل بالصبح يسفر
تأخرت حتى لم تكد تصطفى القرى
على أهله والحق لا يتأخر

(١) أصور : من الصور بالتحريك وهو الميل الى الشىء بالوجه والعنق

(٢) الانف : من الريح أولها ، والنكباء : كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الاربع . والصرصر : الريح القوية .

(٣) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

(٤) حضأ النار : أوقدها ورفعها

وقمت بنصل السيف والبرك هاجد
بهازره والموت فى السيف ينظر (١)
فأعضضته الطولى سناما وخيرها
بلاء وخير الخـــير مايتخـــير
فأوفضن عنها وهى ترغو حشاشة
بذى نفسها والسيف عريان أحمر (٢)
فباتت رحاب جونة من لحامها
وفوها بما فى جوفها يتغرغر (٣)

وقد يمكن الشك فى هذه الصورة من حيث انطباقها على ذلك المتمدح ، ولكن لاريب فى أنها تمثل النبل فى الشمائل البدوية والباحث الموفق الذى يستمد من الأدب شواهد لعلم النفس سيجد فيها صورة صحيحة للاخلاق العربية ، وسيتمثل كيف يهيم الجائع فى الليل فيستنبح لترد عليه الكلاب فيعرف أين يقيم الناس ، ثم يمضى حيث يرحب به الكلب الذى ألف الضيافات ، وتنفر منه الجمال التى تعرف حتفها بقدوم الضيف ، وسيتمثل أيضا أريحية ذلك البدوى الذى يرفع النار ليهتدى بها الضالون فى البيداء ثم يتصور

(١) البرك بفتح الباء : الابل ، والبهازر جمع بهزرة على وزن قنفذة وهى الناقة العظيمة

(٢) أوفضت : تفرقت

(٣) الرحاب الجونة : هى هنا القدور السود

تلك الضجة المرحة التى تفيض بها خيام الأعراب الاجواد وهم يستقبلون الضيف

وأنت، يا ابن المدينة ويامادر العصر ، ستقرأ هذا الشعر فتتمثل فيه ألوانا من الاريحية العطرة لم يشتمل عليها إهابك فتعرف حينا وتنكر أحيانا ، وأنت فى عرفانك ونكرانك مدين لهذا الشاعر الذى أمتع وجدانك بهذه النفحات العطرات

***

نترك البادية ، وشعراء البادية ، ثم ننتقل إلى شعراء الحضارة وسنجد عندهم أفانين من القول هى الصور الباقية لما عرفوا من أزمات النفوس والقلوب

هل تعرفون قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية ؟

لقد حدثتكم عنها فى المذياع منذ أسابيع ، وفاتنى مع الاسف أن أدلكم على موقف هو نموذج للتشفى ، والتشفى رذيلة خلقية ولكن الباحث يحتاج إلى شواهد للرذائل ، فانها تدرس كما تدرس الفضائل . ومن لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وبضدها تتميز الأشياء

انظروا كيف يتشفى ذلك الشاعر الفحل وقد تهدمت عمورية :

ماربع مية معمورا يطيف به … غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

ولا الخدود وإن أدمين من خجل … أشهى إلى ناظرى من خدها الترب

سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه جاءت بشاشته عن سوء منقلب

قد تقولون إن من القسوة أن يفرح الرجل لمدينة دكت حصونها ، وهدمت أبراجها ، وقوضت معالمها ، وصح في أهلها قول ذلك الشاعر الشامت :

لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على
بان بأهل ولم تغرب على عزب

وأجيب بأنى أستقبح من هذا ما تستقبحون ، ولكنى أقرر أن هذه الصورة البشعة ، صورة الشماتة ، مما يجب تقييده ، والدلالة عليه ، لانها من الصور الانسانية التى يهتم بتحليلها العالم والفيلسوف وهذه الصورة بالذات من نماذج القسوة الحربية ، والجيش الذى يهدم مدينة معادية يقف على أطلالها وقفة الفرح والابتهاج

وصاحبنا أبو تمام جاء بصورة بارعة كل البراعة لشهوة الشماتة والحقد . وما ظنكم بمن يتمثل ربع مية وهو معمور يطيف به المحب فيراه أقل جاذبية من منظر عمورية وهى خراب ، ويتمثل الخدود أدماها الخجل فيراها أقل نضارة من خد عمورية وقد عفره التراب

هذا بغى فى عالم الأخلاق ، ولكنه نبل حين تذكر البطولة والابطال

تذكروا هذا ، ثم حدثونا : أنغفل بائية أبى تمام هذه لأنها قصيدة مديح ؟

إن الحكمة ، وهى أنفس مايقتنى الناس ، وقعت غير مرة فى تلك القصيدة ، وهل يمكن فى عالم الفكر أن نستغنى عن هذين البيتين

عداك حر الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلنا بالسيف منصلتا ... ولو أجبت بغير السيف لم تجب

وسيقول ناس من خلق الله : لقد ثقل البيت الأول بالجناس فليعرفوا أننا نراه غاية فى خفة الروح ، وحسب الشاعر أن وفق إلى أن يقول :

« ولو أجبت بغير السيف لم تجب »

***

والبحترى الذى ضربت بمدائحه الامثال ، أترون تلك المدائح مما يجب إهماله لأنها من صنوف التملق والرياء ؟ . لقد تأملت تلك المدائح فوجدت فيها كثيراً من الصور النفسية التى يقف عندها من يهتم بدرس دخائل النفوس ، وانظروا هذه الأبيات من داليته فى مدح ابن الزيات محمد بن عبد الملك

واستوى الناس فالقريب قريب ... عنده والبعيد غير بعيد
لا يميل الهوى به حين يمضى الرأ ... ى بين المقلى والمودود
وسواء لديه أبناء إسما ... عيل فى حكمه وأبناء هود
مستريح الأحشاء من كل ضغن ... بارد الصدر من غليل الحقود

مارأيكم فى هذا ؟ أترون سوء المنقلب فى مصاير الناس يقع

إلا بعلة الهوى فى إمضاء الرأى ، والتفرقة بين الأصدقاء والأعداء حين تنصب الموازين ؟ وهل ترون متعة أفضل وأروح من راحة الاحشاء من عنف الأضغان ، وبرد الصدور من غليل الأحقاد ؟

إن مثل هذا الشعر لايمر باسماع الممدوحين بدون أن يترك فى نفوسهم شوقا الى العدل ، وحنينا إلى سلامة الصدر من الغل. فهو من نفثات الاصلاح ، ولو كره المتحذلقون

وفى القصيدة نفسها قطعة وصفية ، وان كانت مدحا ، فقد وصف « الكاتب » فى شخص ابن الزيات وصفا دقيقا يعد نموذجا من نماذج البيان . وإليكم هذه الابيات :

لتفننت فى الكتابة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ما شـك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا ... حك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع مايخـ ... ـلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيـ ... ـس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى ... عن أغانى مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا ... ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافى ... هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ... ـن به غاية المراد البعيد

هذه قطعة وصفية وردت فى قصيدة مدح ؛ أترون فيها شيئًا من الفضول ؟ وكيف والبيت الأول وحده يفيدنا فائدة عظيمة ، فهو يدلنا على أن الناس فى عهد البحترى كانوا يفهمون أن هناك فنا انشائيا اسمه « فن عبد الحميد » وفى ذلك رد على جماعة من المستشرقين كانوا يرون عبد الحميد من الشخصيات الخرافية ، وتبعهم فى ذلك أحد أدباء مصر فى العهد الحديث . ولكم أن تقولوا إن فى بعض هذه القطعة ما يجرى فى طريق المدح الفضفاض ، غير أنكم لا تستطيعون أن تنكروا دقة الوصف فى هذين البيتين :

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

ففيهما دستور لنظام الكلام البليغ ، وهما يصلحان للتمثل فى أكثر مقامات الافصاح

***

أما بعد : فهذه اشارات تنفع من يدرس الأدب ليستخلص منه الحقائق النفسية والاجتماعية ، وسنتبعها بأمثالها ان اقتضى المقام ذلك ، ليعلم شباب هذا الجيل أن أسلافهم لم يكونوا عابثين ، وأن من الهزل نفسه ما يكشف عن مواطن هى عند الباحث جد صراح

أول نوفمبر سنة ١٩٣٤

من عهد الى عهد

كان احمد بن يوسف مصريا ، وانا كذلك مصرى . لقد لقى فى مصر بعض الظلم ، وأكاد ألقى فيها كل الظلم ؛ كان يحسن إلى كثير من الناس ، فيفي له من يفى ، ويغدر به من يغدر ، وانا ـ فى حدود طاقتي ـ ابذل البر والمعروف . ثم ألقى من بعض من احسن اليهم اشنع ألوان الجحود . وأتلفت الى اصدقائى الاوفياء أعدهم فاقول : واحد ، اثنان ، ثلاثة . ثم أغمض عيني من لذعة الكمدالوجيع
النثر الفنى ج ١ ص ١١٣

فى اليوم الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٣١ لقينى فى فناء السوربون أحد أساتذة مدرسة اللغات الشرقية فصافحنى وقال : « لقد تلقيت اليوم دعوة لحضور الحفلة التى سيقيمها الأساتذة تكريما لك بعدظهر الأحد المقبل ، فأنا أهنئك ، لأن فى ذلك دلالة على أن الأساتذة يعتقدون أنك قدمت إليهم كتابا يستحق التمجيد »

وكان ذلك قبل الامتحان بيومين ، ففهمت أن نجاحى صار مؤكدا ، ثم تلفتت نفسى إلى مغزى التكريم الذى يظفر به رجل فلاح فى أروقة السوربون ، ولم يكد خيالى يطوف بهذا المعنى حتى غلبنى الدمع ، وقلت : سبحانك ربى ! ما أعدلك وما أرحمك ! هذا عبدك الذى خرج من مصر طريدا شريدا لايملك إلا دعوات أهله

وزوجته وأطفاله ، سيكـرمه الأساتذة بأنفسهم تكريما لا يقع إلا فى النادر القليل!

ثم عدت إلى بيتى فتوضأت وصليت صلاة الشكر ، ودعوت الله أن يلهمنى حب الخير ، وأن يقينى شر الزيغ ، وأن يهبنى التوفيق

ومضيت إلى منزل المسيو ديمومبين أسأله : أصحيح أن الاساتذة سيقيمون لى حفلة تكريم ؟

فابتسم الرجل وقال : إذا نجحت فى الامتحان!

فقلت : كنت أنتظر أن تصلنى دعوة !

فقال : لو فعلنا ذلك لكان معناه أنا نعلن اليك نجاحك ، وذلك غير مضمون !

فقلت : نجاحى غير مضمون بعد ذلك الجهاد الطويل ؟!

فقال : أحب أن تعلم أنى سأحضر يوم امتحانك ومعى المسدس

فانزعجت وخشيت أن يكون جادا ، فان الرجل الفرنسى لاتؤمن وثباته وبدواته ، وكنت قد ناقشته في كتابى مناقشة عنيفة !

ولكن الرجل استدرك فقال : هذا هو المسدس ! وأخرج زمرة أوراق أعدها للنضال

عندئذ اطمأننت ، لان هذا الجدل لايخيفنى ، وأستطيع بفضل مافطرت عليه من الهجوم والعنف أن أحطم ألف مسدس من هذا النوع ! وهل أخشى المسدس حين يصنع من الأسئلة والاعتراضات؟

وجاء يوم الامتحان وكان يوما سعيدا ، وكان الأساتذة أبر من

الآباء بنجباء الأبناء ، وكان المسيو ماسينيون يعترض ويجيب ، وناقشني المسيو ميشو في بحث كنت أعددته عن فيكتور هوجو مناقشة رفيقة وجاء دور المسدس الذى أعده المسيو ديمومبين فوجدت الخطر أهون مما كنت أظن ، وقضيت ثلاث ساعات فى الامتحان حسبتها ثلاث دقائق

وجاء دور التكريم بمعهد الدراسات الاسلامية فى السوربون واجتمع فريق من الأساتذة ورجال الأدب والصحافة ، وأعدت مائدة الشاى ، فحملت السيدة الكريمة حرم المسيو ديمومبين كأس الشاى وابتدأت بى ، فاستحييت وتراجعت فقالت وهى تبتسم : لن أبدأ إلا بك ، لأنك المنتصر

وفى مساء ذلك اليوم أقامت الجمعية المصرية فى باريس حفلة تكريم لذلك الانسان الذى احتفل بتكريمه فريق من أساتذة السوربون ، وخطب الخطباء وفيهم المصريون والسوريون والتونسيون . وأنا فى أثناء ذلك كله أنطوى فى نفسى حياء وخجلا ، لانى ما كنت أطمع فى أكثر من أن يمر الامتحان بسلام !

وعدت إلى مصر ، ولكن بأى قلب ؟

عدت وأنا يائس من أن أجد من يقول أحسنت ، وكنت أومن بالحكمة التى تقول « ليس إنسان بنبي في وطنه » وماهى إلا أيام حتى رأيت كلمة فى جريدة « أبو الهول » وكانت حينذاك تصدر يومية وفى تلك الكلمة دعوة لتكريم زكى مبارك ، فدهشت وقلت : أفى

الحق أني أجدمن يكرمني في وطني ؟ وزادت دهشتي حين علمت أن صاحب هذه الدعوة هو الاستاذ محمد على غريب ، وما كنت لقيت منه قبل ذلك إلا الشر ، فبدأت أومن أن قومى أكرم على أنفسهم من أن ينسوا من يوفق إلى عمل مجيد

ونسيت تلك الدعوة حالا ، لأنها وقعت في ضوضاء الانتخابات الاخيرة ، ومضى عامان ، ثم ظهر كتاب (النثر الفنى) بالعربية بعد أن نشر بالفرنسية ، فقابله النقاد بالصمت المطلق ، وخشيت أن يتزعزع إيمانى بكرم قومى ، ولكن هيهات فقد انطلقت الألسنة والأقلام بالمدح والثناء ، ودعا الداعى إلى تكريمى فلباه رجال الأدب مسرعين وكان ذلك الاحتفال الذى لم تشهد القلوب مثله إخلاصا وصفاء

ماالذى قدمت لأمتى حتى أظفر بمثل ذلك الاعزاز

قدمت إلى أمتى كتابا هو جهد متواضع ، وإن تفضل النقاد فوصفوه بأجمل الصفات ، فما هو السر فى هذا التبجيل

كنت أعرف هذا السر ثم نسيته ، أذكر أننى كنت رجلا مخلصا فى خدمة الأدب العربى ، ثم جدت أحداث وخطوب كادت تبدد ذلك الاخلاص ، فجاء كرام قومى لينقذونى من أشراك الشك والارتياب

إن الذين اشتركوا فى تكريمى تعاونوا على إنقاذ رجل كاد يقتله ما توهمه فى زمانه من غدر وعقوق ، فكان صنيعهم صنيع الطبيب الموفق حين يأسو العليل

وما رأيت ولا رأى الناس أصفى من تلك الليلة التى اجتمع فيها صفوة رجال الأدب لتكريم مؤلف النثر الفنى ، وكان فى ذلك درس. كنت محتاجا إليه أشد الاحتياج ، كنت أحب أن أجد من يقنعنى بأن أمتى ترعى أبناءها رعاية كريمة ، أحب أن أطمئن إلى أن الاخلاص قوة عظيمة تزلزل الجبال ، كنت أحب أن أومن إيمانا صادقا بان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأخيراً كنت أشتهى أن أعرف أن التأليف باب إلى المجد فى زمن انتهبت فيه الصحافة جهود الرجال

أفى الحق أن الرجل يحتاج إلى إعجاب المعجبين ليشد من عزمه وينشط ؟

إن نشاطى كان فى عنفوانه يوم كنت أشكو الجحود ، فما الذى جد بعد أن غمرنى قومى بمظاهر الوفاء ؟

أتظنون أن نشاطى سيخمد ؟ ما أظن ذلك، فقد درست نفسى غير مرة ورأيت حب الأدب وحب الدرس من الميول القوية التى تسيطر على وجودى وتوجهنى إلى البحث والتنقيب

ولكن الذى سيقع بعد هذه الحفاوة القومية هو إصلاح نفسى وكنت عييت عن إصلاحها ، ذلك بأنى كنت أخشى أن يصح ما يتوهمه الناس من أن الجد لا قيمة له فى هذه البلاد، وأن الناجحين فى هذه البلاد هم النفعيون الذين لا يقدمون ولا يحجمون إلا فى سبيل منافعهم الذاتية ، فجاء كرام قومى فأزالوا عن ضميرى هذه الغشاوة وأفهمونى أن العاقبة للمخلصين

ولكن هل صفت نفسى كل الصفاء ؟

لا أزال أشكو بعدى من ربى ، وكنت قبل ذلك فى فراديس من الايمان الجميل ، كنت أقول كلما رأيت ظلم الناس :

« لقد بقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفد ولا يفنى ، وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيض ، يبقى لى الله الذى تلمس يدى وترى عينى آثار رحمته وعدله ، وتكاد تصافحه يمناى ، ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة ، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب ؟ »

أشتهى أن يعود ذلك الايمان الذى كنت أنعم به فى الأيام الخالية ، حين كنت أومن بأن الناس أصغر وأضعف من أن يملكوا لأنفسهم نفعا أو ضرا ، وأن الذى يصرف الأرزاق والحظوظ هو الله رب العالمين

ماأذكر أنى فكرت فى غدى مرة واحدة ، وما أزال كذلك وتلك هى البقية الباقية من إيماني ، ولكن هذا لا يغنينى ، أنا أشتهى أن ينعم الله على بايمان أقوى وأمتع ، أشتهى أن أعرف ربي كما كنت أعرف ، وأ كثر مما كنت أعرف ، فمتى أظفر بذلك ؟ كنت أعد أصدقائى ، ثم أصبحت أراهم لا يعدون ، فهل أستطيع الوصول إلى ذلك الصديق الأعظم الذى أشتاق الى وداده اعظم الاشتياق ؟

ليس فى الوجود كله مايغنينى عنك ، ياسر الاسرار ويا روح الأرواح ، فاشملنى برحمتك وأغننى عن خلقك ، واجعلنى لديك من المقربين

رباه!

أنا أشتهى أن أومن بك ، فامنحنى الايمان ، واجعلنى فى إيمانى من المخلصين

٤ مايو سنة ١٩٣٤

مكاتب الموظفين

فى شهر رمضان

الصوم فريضة إسلامية يراد بها إعداد النفس لاحتمال مشاق الظمأ والجوع ، فهى ليست تعجيزاً للناس ، ولا صداً لحريتهم الذاتية ولكنها رياضة روحية يعد بها المرء نفسه لاحتمال مشاق الحرمان إذا جد فى الحياة مايوجب ذلك . ومن الواضح أن للحياة ألوانا كثيرة ، ففيها السلم والحرب ، وفيها الغنى والفقر ، وفيها المرض والعافية . . . والقدرة على ضبط النفس هى أساس الصلاحية للنهوض بأعباء الحياة . والصوم وسيلة من الوسائل الصالحة لكبح جماح الأهواء ، وتهيئة الملكات الانسانية لمقاومة مايعترضها من المشاق

كان الصوم فريضة واجبة فى الأيام الخالية ، وهو فى هذه الأيام أوجب ، فقد كثرت القيود التى صنعها الناس لأنفسهم بما افتنوا من ضروب اللذات الحسية التى يسمونها « الكيوف — جمع كيف » كالتدخين والقهوة والشاى ، فهذه الكيوف عقال عنيف

وهى تصد الرجل عن واجباته فى عنف وقسوة ، وإنى لأعرف من يلقون دروسهم والسيجارة فى أيديهم ، ولست فى هذا أمزح وإنما هى حقيقة ، وأعرف من لا يستطيع الشروع فى أى عمل إلا بعد أن يتناول فنجانا من القهوة ، أوكأسا من الشاى ، وهى قيود حسية ونفسية فى وقت واحد ، ولها أثر شديد فى تقييد العزائم والنفوس

والصوم يقاوم هذه العادات السيئة ، ويحرر النفس من قيودها ساعات من كل يوم ، والعاقل يحرم نفسه تدينا ـ أو تجملا ـ من هذه المهلكات . . . والنتيجة أن الصوم ليس سنة قديمة يجب أن تبيد وإنما هو سنة حسنة كانت واجبة يوم كانت الشهوات الحسية بسيطة أما اليوم فهو أوجب لأن الشهوات والكيوف أصبحت فى غاية من التعقيد

أكتب هذا بمناسبة ما أوصى به وزير المالية من منع التدخين والقهوة فى مكاتب الموظفين أثناء شهر رمضان ، وقد اتفق لى أن نقدت هذه العادة السيئة فى كلمة نشرتها بالبلاغ منذ سنين ، وأعود اليوم فأقول : إن الحكومة تعدل مواعيد الدواوين فى شهر رمضان تعديلا حسنا يعود به هذا الشهر وهو عبء خفيف . والحكومة لا تفرض على موظفيها أن يصوموا ، فان الصوم سر بين المرء وبين ربه ، ولكنها تمنحهم امتيازات فى المواعيد باسم الصيام . فان عز على الموظفين أن يحترموا شهر الصوم فمن حق الحكومة أن تعاملهم معاملة مدنية ، فلا ترفع عنهم شيئا من ساعات العمل اليومى ، ولهم

بعد ذلك أن يعودوا كيف شاءوا إلى القهوة والتدخين !

على أن الأمر كله فى هذه المسألة يرجع إلى الذوق . ومراعاة الذوق أول مايعنى به كرام الناس

٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤

بين العقل والهوى

أثر أنظمة الحكم فى حياة الشعوب

باريس فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣

صديقى ...

أكتب اليك ، وقد قضيت ساعات فى فونتينبلو ، بين القصر والحديقة ، ويهمنى قبل المضى فى هذا الكتاب أن أذكرك بأنى لا أكتبه لغاية سياسية ، وإنما أمضى على الفطرة ، كما عودت نفسى وعودتك فأعرض وجوه الحياة فى حيدة خالصة من شوائب الاغراض ، وأحاول جهد الطاقة أن أطلعك على نواح مختلفة من أثر أنظمة الحكم فى حياة الشعوب . فان رأيت فى خلال الحديث ماينقض مذهبا تحبه أو يؤيد رأيا تميل اليه ، فاحذر أن تظن أنى أثير غضبك أو أتملق هواك ، إنما هى رياضة عقلية يجرى بها القلم بلا شطط ولا ضوضاء. وقد آن لك أن تعرف أن حياة العقل تحتاج إلى حرية فى الكتابة والحديث

كانت زيارتي لفونتينبلو فرصة لدرس بعض النواحي من عقلية الشعب الفرنسى ، فقد كانت دعوة من صديقين عزيزين من كرام أهل باريس ، وكان فى تلك الدعوة مايمثل شغف أولئك الناس بروائع الفن الجميل ، وزادنى يقينا بصحة هذا الفرض أن تلك السياحة كانت فى يوم أحد ، وكان الطريق إلى فونتينبلو يموج بالألوف ، وكان رفيقاى يعلمان ذلك ، فحضرا الى المحطة قبل قيام القطار بنحو أربعين دقيقة ، لنستطيع الظفر بمقاعد فى الدرجة الثانية يضاف إلى ذلك أن أولئك الزائرين كانوا يمشون فى غرفات القصر وساحاته خاشعين ، وكانوا يستمعون مايلقى عليهم من الشرح فى سكون وإجلال ، وماأذكر أنى سمعت من أحدهم إشارة لغو أو كلمة فضول ، وهذا وذاك يمثل جانبين من العقلية الفرنسية ، فهم أولا يقدرون الفن حق قدره ، ويفهمون أن النزهة الجميلة لاتتم إلا بمشاهدة الفن الجميل ، وهم بعد هذا متصلون بماضيهم أشد اتصال فلا يوجد فتى ولافتاة ولا كهل ولاعجوز إلا وفى أنفسهم صور من ماضيهم الذى يمثل الفزع حينا، ويمثل المجد أحيانا . والحياة الكاملة لا تكون فى الحاضر وحده ، فان الحاضر قد يعجز عن تغذية المشاعر والعقول وهو بشواغله ومضجراته قد يغزو النفوس بالسأم والملال . ومن أجل هذا تتطلع النفوس إلى الماضى فتأخذ من صوره وألوانه ، وأفراحه وأتراحه ، ماتلون به الساعات الحاضرة ، وتدفع به مايساورها من وحشة الاملاق فى عالم الأذواق والأحاسيس ، وفى النفس الانسانية

آفاق عجز عن درسها علماء النفوس ، وتلك الآفاق تقفر وتوحش كلما تقدم الانسان فى طريق العلم والمدنية . فهو لذلك محتاج إلى من يروح عنه بطائفة من الملاهى المصقولة التى تسمى العلم والأدب والفلسفة والتاريخ والتشريع . فالطفل يلهو بأرجوحة أو ألعوبة والرجل المثقف يلهو كما يلهو الطفل ، ولكن لهوه يأخذ وجهة معقدة تناسب عقله المعقد ، ومن تلك الألاعيب خرجت العلوم والآداب والفنون ، وهى ألاعيب لا ينصرف عنها إلا المريض من الرجال ، كما لا يزهد فى ألعابه إلا العليل من الأطفال

وقصر فونتينبلو الذى نتحدث عنه قديم العهد ، فقد بنى جزء منه فى القرن السادس عشر ، وبنى باقيه فى القرن السابع عشر ، فهو أقدم من قصر فرساى بنحو مائة عام ، ويمتاز بأنه فى مبانيه يمثل مذاهب مختلفة فى العمارة والبناء والنقش ، بخلاف قصر فرساى الذى بنى فى نحو عشرين سنة فانه يمثل عصر بانيه لويس الرابع عشر ومع أن قصر فرساى أفخم وأروع فان قصر فونتينبلو يفضله بما بقى فيه من نفائس الأثاث ، ذلك بأنه بعيد عن باريس ، فسلم لبعده من فتك الثائرين الذين بددوا ما كان فى قصر فرساى من التحف الغالية . . . والثورات لاترحم إذا خرجت من قلوب الشعوب

وقد بنى هذا القصر على رأس غابة هى أكبر الغابات الفرنسية على الاطلاق ، والقصور الملكية فى فرنسا بنيت كلها فى رؤوس الغابات ، وسبب ذلك أن ملوك فرنسا كانت نشأتهم فى الأغلب

ريفية . وكانوا يفضلون أن تكون القصور مما يواجه أماكن الصيد فكان الملك يخرج من قصره على ظهر جواد ثم يتوغل فى الغابة ليصطاد ، وبهذا كان الجمهور لا يراهم إلا قليلا ، لأن الغابة دنيا ثانية لا يحتاج من يقيم فيها إلى مشاهدة الناس

والنشأة الريفية لملوك فرنسا هى فى رأيى من أهم الأسباب لتعلق الفرنسى بأرضه ، فالفرنسى يمتاز بأنه يحب أرضه حبا شديدا ، وحاله فى هذا الحب يماثل حال الفلاح المصرى ، وربما كان الفلاح الفرنسى ألصق بأرضه وأعلق ، فهو لا يتحدث عن الوطن فى جملته إلا عند المناسبات ، أما وطنه فهو بلدته التى يحيا فيها ما له الصامت والناطق ، ولا كذلك الناس فى الأرض المصرية ، فان انحياز الأغنياء إلى العواصم والحواضر كاد يغرس فى أنفس الفلاحين بذور الزهد فى أرضهم التى تدر عليهم الخير والبركات

***

كان قصر فونتينبلو سكنا لجماعة من الملوك ، وفى أبهائه وأروقته نماذج باقية من الفن فى مختلف العهود ، وزيارتى لهذا القصر جددت فى نفسى التفكير فى الملكية والجمهورية ، وما لها من الأثر فى حياة الشعوب

وأستطيع أن أصارحك بأن نظام الجمهورية ليس خيرا كله ونظام الملكية ليس خيرا كله : فكلا النظامين له مزايا وعيوب .

غير أنه من المؤكد أن نظام الملكية هو النظام الذى تزدهر فى ظلاله الآداب والفنون ، فان كنت فى ريب من ذلك فتذكر اهرام مصر ، فان تلك الاهرام بنيت ولا جدال تحقيقا لهوى من بناها من الفراعنة ، ولو كان فى مصر لذلك العهد حكومة جمهورية أو برلمانية لاستطاع أقل الناس سلطانا أن يقف ذلك البناء بحجة أنه لا ينفع الفلاحين ، وأن إنشاء ترعة أعود بالفائدة من تلك المبانى الصماء!

ونحن اليوم نحكم بأن الاهرام بنيت فى ظلال الاستبداد ولكن كيف تكون مصر لو خلت من شوامخ الاهرام ؛ إن تلك المباني التى نهض بها الفلاحون مسخرين هى عنوان عظمتها فى العالمين وما نقوله عن الاهرام نقوله عن قصر الكرنك ، ذلك القصر الذى تحدثنا أطلاله بأنه كان آية الآيات فى دقة الهندسة وفخامة البناء .

وقد بنى قصر الكرنك عن طريق السخرة ، لا ريب فى ذلك ، والفلاحون فى الاقصر لا يزالون يئنون مما قاسوا فى بناء الكرنك وآية ذلك أنهم لا يجتمعون فى عمل شاق إلا تغنوا بهذا النشيد :

« ياعين ، كونى صبارة »

ولا تعجب مما أقول ؛ فان آلام الأجداد تنحدر فى الأصلاب حتى يئن بها الأحفاد

وللاهرام والكرنك أمثال من الآثار الخالدة على ضفاف النيل وهى كلها تمثل أهواء الملوك ، وفى مقابل تلك الآثار لا تجد قنطرة فرعونية تمثل عقل الفراعنة فى تدبير ماء النيل ، ولو أنهم شغلوا عقولهم

وأنفسهم بمصالح الاهالى لكان للفرعونية وجهة قومية ، ولكنهم وقفوا عند شهواتهم فى دنياهم وأخراهم، ولم يظفر الفلاح من تفكيرهم إلا بالقليل

وكذلك الحال فى الارض الفرنسية ؛ فالقصور الملكية هناهى أروع آثار هذه البلاد ، وهى كلها تمثيل لشهوات الملوك ، ولكن أى تمثيل ؟ إن الفن العالى ليحيا حياة خالدة فى أبهاء هذه القصور وغرفاتها وشرفاتها ، وسراديبها وأبراجها ، والقلم يعجز عن وصف غرفة واحدة ؛ وما ظنك بقصر تفرد كل ركن من أركانه بأسلوب فى النقش والتصوير ، وتميزت سقوفه وجدرانه بأساليب من التلوين والتهويل ؛ إن هذا من عمل الجن لا من عمل الناس !

وقد تسأل : أكان ملوك فرنسا يشغلون برعاياهم كما يشغلون بقصورهم ؟

قد يكون ذلك . ولكن الآثار الباقية تدل على أن الأثرة كانت أغلب على طباع أولئك الملوك . والتاريخ يحدثنا أن العهود الملكية لم تخل من عنف الظلم وقسوة الاعتساف ، غير أن هذا كله اعتصر اعتصارا ليحفظ لفرنسا مجدا خالدا هو مجد الأدب العالى والفن الرفيع والشعب الذى سخر تسخيرا فى بناء القصور الملكية هو نفسه الشعب الذى يحيابها اليوم ، وقيام تلك القصور هو وحده دليل على أن ذلك الشعب صالح للنهوض بجلائل الأعمال . فمن أى عنصر من عناصر الصبر صيغت نفوس المهندسين والفنانين الذين أبدعوا ما أبدعوا من القصور والتماثيل فى بلاد السين ؟ ومن أى عناصر الاحساس صيغت أذواق المثالين الذين جعلوا أرض فرنسا سلاسل ذهبية

من آيات الفن الجميل ؟

لقد سخرت الانسانية طويلا لأهواء الملوك ، العادلين منهم والظالمين ، ولكن تلك السخرة كانت رياضة فنية هى الذخر الباقى لأذواق الانسانية . فلا تلوموا الملوك على مافعلوا ، وانظروا ماتركوا من آثار هى الدليل على ما عند الانسان من عقل وذوق واحساس .

إن الجمهورية نظام مقبول ولكنها ليست إلا إدارة منظمة ففى عهد الجمهوريات تحفظ حقوق الشعوب ، ويشعر الناس بأنهم سادة أنفسهم ، غير أنهم يقفون عند مصالح المعاش ، ولا يتخطونها إلا قليلا . وفى ظلال الأنظمة الجمهورية يقل الترف فى الحياة العقلية والوجدانية وتصبح الامور وهى تقاس بمقياس النفع ، ولا تتقدم الآداب والفنون إلا بوحى من الأفراد الذين بقيت فى نفوسهم بقايا من الأذواق الملكية ، والملكية نوع من الذوق يحتل أحيانا رؤوس الصعاليك فيصبحون وهم فقراء الجيوب ، أغنياء القلوب

فى الجمهورية عزة قومية ، ولكنها لاتحيا حياة صحيحة إلا إذا عاش الافراد عيش المياسير ، وحياة اليسر والترف كفيلة ببقاء الآداب والفنون . والترف هنا ليس معناه اللين الذى يأنس اليه الوزراء والأمراء فى عهد مثل عهد لويس الرابع عشر ، ولكن معناه الغنى المعقول الذى يوحى فنونا وآدابا تمثل القوة والفتوة ، فقد يكون فى المصانع والمعامل حياة أنضر وأجمل من مظاهر الفن المترف فى

فونتينبلو وفرساى

فى فرنسا اليوم حزب يدعو إلى عودة الملكية ؛ وهو حزب قوى شديد المراس ،ولكن حذار أن تظن أن أولئك الملكيين يثورون على الجمهورية لتبنى لهم قصور جديدة كقصور اللوار . هيهات فتلك أيام خلت ، لم يبق للترف فى بناء القصور أعداء ولا أنصار !

إن اصطدام الجمهورية بالملكية لا يقوم على أساس الفن ، وإنما يقوم على أساس المعاش ، فالنظام الأصلح للحكم هو النظام الذى تعيش فى ظلاله الشعوب عيش العزة والغنى ، و من أجل ذلك سادت الأنظمة البرلمانية بجانب نظام الملكية ، وصار من المتعذر أن تصير أمور الأمم إلى رجل فرد يسخرها كيف يشاء

لكل عصر فنون وآداب ، وآداب العصر الحاضر وفنونه تأخذ مددها من قلوب السواد ، فاذا خلت من بريق الأريستوقراطية فلها بريق آخر هو شعاع القومية . وإذا كان الشعراء والفنانون فى العصور الخوالى عرفوا المشجعات ممثلة فى عطايا الامراء والوزراء ، فمشجعات الفن والأدب فى العصر الحاضر تتمثل فى أذواق الجماهير التى تناصر الأدباء والفنانين ، وأذواق تلك الجماهير قوامها النفع والفائدة فى تصور جلائل الأعمال

أتريد الحق أيها الصـــديق ؟

إن ســـاعة فى مصانع ستروبين فى باريس أعود على القلب بالمعانى الشعرية من أيام فى قصر فونتينبلو أو قصر فرساى ، وإن

منظر الفتاة العاملة وقد سود وجهها الحديد لأبلغ فى الجاذبية من صورة بسيشيه فى جدران قصر شانتيى ، أو ملعب الولدان فى قصر هنرى الرابع

إن الذوق يتابع الزمن فى صوره وألوانه ، وأصلح الناس للحياة أطوعهم للانطباع بصورة عصره ، فتأمل ذلك ياصديقى ورض نفسك على التأدب بذوق هذا الجيل.

الغاء الدراسات

الاسلامية فى جامعة استامبول

فى عرف الدول قانون مصنوع اسمه « حق الفتح » فلنعرف اليوم أنه جد قانون جديد اسمه « حق النصر » فالفاتح يصنع مايشاء والمنتصر يفعل ما يريد. وحق النصر يطبق فى تركيا الكمالية كل التطبيق بلا مراعاة للقواعد والأصول ، ونحن لا ننكر أن مصطفى كمال انتصر بفضل الحزم والجد وقوة المراس والصبر على مقارعة الخطوب ، فله منا كل حمد وثناء. ولكن هذا لايمنع أن ننظر إلى بعض تصرفاته العلمية والاجتماعية نظراً كان خليقا بأن ينظر مثله لو وقف مثلنا موقف الناقد الذى يرقب الحوادث بدون أن يكون له فيها هوى خاص

إن هذا الرجل المنتصر يريد مجاراة أوربا فى كل شىء ، لأن أوربا عنده هى النموذج وهى المثال ، ولكنه يسرف فى مجاراتها كل الاسراف ، فان الأمم الأوربية لم تفكر جديا فى تخليص لغاتها من الألفاظ اليونانية والعربية ، أما هذا الرجل الذى أطغاه النصر فيسعى جاهدا لتخليص اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية والفارسية ، وينسى أنه يشل لغته بهذه الوثبة الجامحة ، فان اللغة المصنوعة لا تعبر عن أصحابها كما تعبر اللغة التى احتلت أذهان الناس وعقولهم منذ أزمان. وقد حدثنا من نثق بروايته أن كبار الحكام فى تركيا يحفظون من تقاريرهم نسخا سرية مكتوبة بحروف عربية لأن الحروف اللاتينية لم يمض عليها من الزمن ما يربطها بالألفاظ التركية ربطا وثيقا كالذى كانت تربط به وهى فى حروف عربية فاذا كان هذا حظ ما يكتب بحروف لاتينية فكيف يكون حال لغة تفصل منها ألوف من ألفاظها الحية لتحل محلها ألفاظ ماتت منذ عهود طوال

أما البدعة الجديدة فهى إلغاء الدراسات الاسلامية من جامعة استامبول ، وهى بدعة من جميع النواحى ، فان أمم أوربا تهتم فى جامعاتها بالدراسات الاسلامية ، بحجة أن الاسلام دين لكثير من الشعوب ، وأنه لا يصلح بالرجل العالم أن يجهل دينا يدين به ثلاثمائة مليون

إن مصطفى كمال لن يستطيع مطلقا أن يطارد الاسلام فى البلاد

التركية ، فكيف جاز له وهو رجل خبير بأهواء الشعوب أن يطبع شباب تركيا على غرار مدنى صرف ، وهو يعلم أن فى دمائهم قوى إسلامية تجيش وتضطرم وإن تجاهل المسيطرون ؟!!

من حق مصطفى كمال أن يحارب المتخلفين عن العلم والمدنية من رجال الدين ، ولكن من الخطر أن يتجاهل الدين نفسه تجاهلا تاما وأن يتوهم أن الدين ولى زمانه وزال

لقد سمعنا أن بطل تركيا يصم أذنيه عن النقد ولو كان صحيحا ولكن المخلصين للعزة الاسلامية لايملكون كتمان الحق ، ويرون أن رياضة شبان تركيا على فهم أصول الدين فهما صحيحا تسمو بهم إلى آفاق من المجد والكرامة والنبل

اساليب الكتاب

أشرت فى كلمة سالفة إلى المقالين النفيسين اللذين كتبا عن « ديوان زكى مبارك » ورأى القراء أني أجد فى هذين المقالين مايمس الحقائق التى أعيش عليها فى حياتى الأدبية ، فانا عند الأستاذ خلدون أشعر ، وعند الأستاذ المازني أكتب ، والأستاذ خلدون يرى أن أنقطع للشعر ، ولا أتخطاه إلى سواه. والأستاذ المازنى يرى أن أفرغ للنثر ولا أتعداه إلى سواه . وأنا أبدأ بمناقشة الأستاذ

خلدون وأقدم إلى القراء الفقرة الأساسية من مقاله الممتع ليظهر لهم جيداً وجه الخلاف :

« كان همي وقصاراي حين تصفحت ديوان زكي مبارك أن أتحسس من روح الشعر : هل استقر فيه ، أو هو محوم عليه من قرب أو من بعد ؟ وقد فرحت لصديقي حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ، ويجيل فيه الحياة ، بل لقد تهيأ لي معنى من تصفح الديوان أخشى إن ذكرته أن أغضب شطر الدكتور زكي مبارك النثري ، ذلك أنني وجدت له في الشعر من حسن الديباجة وقوة النظم وطلاوة الأسلوب ما لم أجده له في النثر . ولقد كان نثر الدكتور في نظري محسوبا على نثر العلماء الذين لا تعنيهم الديباجة ولا يتعملون الحسن ، ولا ينصبون أنفسهم في التأنق والتزين ، ومن أجل ذلك كنت أعني دائما بتلقف الفكرة أو الموضوع الذي يعرض له الدكتور وأتجاوز عن النظر إلى الوعاء الذي قدم فيه »

ومعنى هذه الفقرة أن الأستاذ خلدون لا يرى الفن إلا فيما نظمت من الأشعار ، أما ما أنشأت من الرسائل وأذعت من المؤلفات فالفن فيها قليل ، ونثري فيها محسوب على نثر العلماء ، وأنه لأجل ذلك كان حين يقرأ ما أكتب لا يعني إلا بتلقف الفكرة أو الموضوع الذي أعرض له ويتجاوز عن النظر إلى الأسلوب

وأسارع فأقرر أني اصطنعت أسلوبين في حياتي الأدبية ، كان اولهما صنيع الفن والزخرف ، وكان ثانيهما وليد الفطرة والطبع

والنسخة التى بأيدى الناس من كتاب «حب ابن أبى ربيعة وشعره» تشهد بذلك ، ففيها فصول كتبت سنة ١٩١٩ وفصول كتبت سنة ١٩٢٨ والفرق بين الأسلوبين واضح كل الوضوح ، وهو ينطق بأن زكى مبارك تغير كل التغير فى مدى عشر سنين ومن المؤكد أنى تغيرت أيضا فصرت اليوم إلى غير ما كنت سنة ١٩٢٨ ومن ذا الذى لا يتغير يا سيد خلدون !

ولهذا التطور أسباب يحسن أن نعرض لها بشىء من الشرح والتفصيل :

كنت فى مطلع حياتى الأدبية من المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوارزمى والصابى وابن العميد ، وكان كتاب الصنعة المتأنقون أقرب الناس إلى نفسى ، وأحبهم إلى ، وأبعدهم تأثيرا فى تكوين مشاعرى الأدبية ، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريرى ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جدا من مختار ما كتب الخوارزمى وابن عباد وابن العميد ومن إليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون النثر فنا خالصا يسامى الشعر ويباريه فى الزخارف والتهاويل ، والوزن والقافية ، لأن أكثر النثر المصنوع مقفى موزون ، وإن لم يجر وزنه وتقفيته على وتيرة واحدة ، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما فى زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم المأثورة فى الأوصاف والتشبيهات ، فاطمأنت نفسى إلى أن النثر الجيد هو

النثر الذى يعنى الكاتب ويشقيه فى اختيار الألفاظ والتعابير ، وأن الكاتب البليغ هو الصنع الفنان الذى ترى جهده وصنعته وفنه فى كل لفظة وكل جملة بحيث ترى فى رسالته أو خطبته ما تراه فى الأعمال الفنية من مظاهر البراعة والحذق ، ودقة النظم ومتانة التراكيب .

ثم شاء الله ، عز شأنه ، أن أتعمق فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى ، وأن أقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم ومشاعرهم وضمائرهم وألوان حياتهم ، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التى تشوق الحواس ، هناك جمال النفوس الصافيـــة ، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة ، التى تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل وتسكب على الوجدان مايوقظه ويحييه من نمير العطف والحنان وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والجناس والتورية والمطابقة والازدواج ، وأن مانسميه بالمحسنات البديعية ليس كل شىء فى صناعة الكتابة ، كما كان يفهم فريق من القدماء ، فقد يشقى الكاتب فى وضع الجملة وصياغة الاسلوب من غير أن يحس القارىء أنه أمام نثر مصنوع وتلك حالى فى أكثر ما أكتب اليوم ، وهذا النوع من الصنعة أدل على الحذق والمهارة وقوة الطبع وعبقرية الخيال . إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارىء بأنه أمام نثر مطبوع لاأثر فيه للجهد والعنت

فى تخير الالفاظ ، ورصف التراكيب . ومثله مثل المناظر الطبيعية فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والتصاوير ، أو تعرض عليه سمكة ملونة تلوينا دقيقا يزيغ البصر ويثير الحس ، ثم لايحسب الانسان أن فى هـذه السمكة أو تلك الزهرة فنا وصنعة ، لأنه يظنها هـكذا خلقت . ولا يدرى أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء ، وكـذلك نقرأ الآثار الأدبية التى تنقصها الصنعة الظاهرة فنحسبها مطبوعـة . وذلك خطأ مبين ، فكل شاعر يصنع قصيدته ، وكل كاتب يصنع رسالته ، وكل خطيب يصنع خطبته والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيـه أثر التكلف ومحاولة الابداع ، أما الثانى فيصدر عن طبيعة سخية لبقة تعودت الاتقان والاجادة ، بحيث يظن أنها تبدع ماتبدع بلا كلفة ولا عناء

غير أنه ينبغى أن نقيد أن هنـاك جمهورين من القراء : جمهور المبتدئين الذين تروقهم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة ، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين والتهويل ، مثلهم مثل البـاعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف من الثياب المخططة المبهرجة ، وهى ثياب ظريفـة خلابة لاتكلف صانعيها جهداً كبيرا ، ولـكنها تروق العامة وتفتنهم وتبدو لهم غاية فى التجويد والابداع .

وهناك الجمهور الثانى ، جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية ، وهؤلاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية ، ويفرقون بين الصنعة السطحية

والصنعة الخفية التى لا يجيدها إلا الافذاذ القلائل من فحول الكتاب .
هذا الجمهور المثقف هو الذى يشق الكاتب المتفوق ويحمله على مراعاة الذوق الأدبى والحاسة الفنية لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة وكيف تؤدى الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف .
والكاتب البليغ حقا هو الذى يضع الالفاظ على قدود المعانى وضعا رشيقا مهندما يفتن العقل والذوق ، بحيث لا يود القارىء المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة ، ومثل هذا الكاتب مثل الصيدلى البارع الذى يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان . وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح ضاراً أو غير مفيد

ومثل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مثل التاجر المتأنق الذى يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا ، فقد تبدو بضاعته عادية لا رونق فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط ، ولكنها تظهر نفيسة ثمينة عند من ألفت عيونهم وأذواقهم دقائق النسج وغرائب الصنع .. ومثل هذا التاجر خليق بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والاعلاق . فان فهم النفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لا تتاح لكل مخلوق

وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذى يدق فنه وتسمو صنعته على كثير من العقول والاذواق يجب أن يطمئن إلى أن جمهوره

معدود الأفراد ، فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق لهو تستعيده
وتشيد بذكره فى الأندية والأسواق ، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء
له ولاعزة ولا كبرياء ، فان الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه
ملايين العقود لن يصل فى أى ذهن إلى مساماة اللؤلؤ المكنون
الذى كتب عليه الخمول وظل سجين الأصداف

وفى ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم ، وأقصتهم عن الجماهير ،
فعاشوا فى أوطانهم غرباء ، ويرحم الله أبا تمام إذ يقول :

غربتـه العلى على كثرة النـاس فأمسى فى الاقربين جنيبا
فليطل عمره فلومات فى مر و مقيما بها لمـات غريبـا

***

أيرانى القراء أحسنت الدفاع عن أسلوبى فى النثر ، وأقنعت
صديق الأستاذ خلدون ؟ إنى لأنتظر من أدبه وفضله أن ينظر
نظرة ثانية فى كتاب « ذكريات باريس » وأن ينصفنى من نفسه
فقد ظلمنى حين نقد ذلك الكتاب ، ولا يستكثر عليه أن نفزع إلى
انصافه ، فان المنصفين فى مصر أقل من القليل !

*

عيد الحرية

فى باريس مدينة النور والحرية

باريس فى ١٥ يوليه سنة ١٩٣٣

صديقى . . .

لقد تاقت نفسى الى محادثتك ، ولكن أين السبيل اليك ، وبينى وبين وجهك أيام وليال ؟

إنك تنتظر ، ولا ريب ،أن أصف لك بعض ماشهدت باريس فى عيد الحرية . ذلك العيد الحافل الذى يجدد شباب الناس فى كل سنة ، وتحيا ملاهيه أربع ليال سويا ، ونحن الأجانب عن باريس نسميه عيد الحرية ، والناس هنا لايعرفون إلا كلمة (١٤ يوليه) فنحن نتذكر فتح الباستيل لأننا لانزال نجاهد فى ما بلادنا من ضيم وعنف ، أما الشبان الفرنسيون فقد نسوا الباستيل نسيانا تاما ولم يبق لهم من ذكريات ١٤ يوليه إلاماشهدت باريس فى السنين الماضية من ملاعب وشهوات . والانسان ياصديقى لايذكر الظلم إلاعند الصراع ، فاذا انتصر أقبل على نفسه يرفهها ويمسح عنها آصار الضيم والاستبداد . فلا تحسب الناس يلهون فى باريس إحياء

لانتصار الحرية ، إنما يلهون لأن اللهو شريعة إنسانية أو حيوانية يجدد بها المرء مارث من عزائمه بعد طول النضال . وأهل باريس كانوا ولايزالون أهل جد ولهو ، وهم فى الجد أبطال ، وفى اللهو أبطال ، وكذلك تكون الحيوية فى الأمم والأفراد ، فالرجل الذى لا يعرف كيف يلعب لا يعرف كيف يجد ، والأمم التى لاتحسن المرح فى أيام السلم لا تحسن الضرب فى أيام الحرب . فالغرائز الانسانية مزاج من الضحك والعبوس ، والحلاوة والمرارة ، والعمل والفراغ والسلم والقتال .

على أن الحرية ياصديقى ، ليست إلا كلمة ، وهى فى الأغلب كلمة عديمة المدلول . والناس اصطلحوا على طلب الحرية حين تصطدم منافعهم بعقبات الغاصبين ، فاذا خلصوا من خصومهم حسبوا أنفسهم أحراراً ، وذلك وهم جميل !!

إن الحرية ترجع إلى أصلين : الخلاص من ظلم العدو ، والخلاص من ظلم النفس . وقد أفصح عن ذلك الرسول عليه السلام حين قال وهو عائد من إحدى الغزوات

« رجعنا من الجهاد الأصغر جهـــاد العدو إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس »

فقد يكون الرجل حرا لاسلطان عليه ، ولكنه يظل مستعبدا لطائفة من العادات والتقاليد والطقوس ، ويمشى مثقل الرأس والقلب والروح بمايساوره صباح مساء من عدوان العرف والمألوف فى أنظمة الأخلاق

وهو إذا خلص من عنف التقاليد لم يخلص من عنف الشهوات والأحاسيس ، وليتك تفتح عقلك فتفهم أن المرء قد يخلص من جميع القيود ثم يظل أسير أمعائه فى جميع الأحوال . أتحسب الدنيا تجمل لأنها فى ذاتها جميلة ، أو تقبح لأنها فى ذاتها دميمة ؟ قد يكون فى الدنيا شيء أصيل من عناصر الحسن والقبح ، ولكنه شيء يسير بالاضافة إلى ما تفرضه الامعاء . فان كنت فى ريب من ذلك فتأمل كيف يحلو فى عينك الشيء تارة ويسمج تارة أخرى ، وهو كما كان لم يتغير ولم يتبدل . وإنما غيرته أمعاؤك التى تسيطر عليك فتريك القبيح جميلا ، وتريك الجميل دميما .

أفهمت الآن أن الحرية ليست إلا كلمة ، وأنها فى الأغلب كلمة عديمة المدلول ؟ !

***

ومالى أكدر عليك صفوك بهذه الفلسفة ؟ إنك أيها الشقى تنتظر شيئا آخر ؛ إنك تحب أن أصف لك ملاهى باريس فى عيد الحرية . ولكنى لا أحب أن أكرر ما قلته في السنوات الماضية فتلك صور تراها فى كتاب «ذكريات باريس» ويكفى أن أشير إلى أن الناس هنا لايزالون يحترمون مظاهر اللهو والعبث والشهوات وماظنك برجل حاكم مسئول هو محافظ باريس حين يعلن إباحة الرقص فى الميادين العمومية ؟ وهذه الاباحة لها معنى ، فهى تصريح

بإقامة المنكر الجميل والشر المحبوب ، هى تصريح بأن تتلاقى الأجسام والقلوب والأحاسيس أربعة أيام فى ساحات باريس . . . وتلك مناظر ساحرة يخرقها غلاف القلوب . والدنيا لاترى في فتنتها وزينتها كما ترى فى عيد ١٤ يوليه ، فوق أرض باريس وطن الحقائق والأباطيل ، والهدى والضلال . إن حياة ساعة واحدة يخلص فيها المرء من كل شىء فى مدينة هى بغداد القرن العشرين لأشهى وأجمل من حيوات طوال يقضيها المرء فى بلاد التزمت الجمود . إن الحياة ياصديقى لاتقدر بالأعوام والسنين ، إنما تقدر بما فيها من المعاني . فإن لم تفهم هذا فتذكر أن لحظة واحدة فى شواغل قلبية وحسية أنفع لك وأجدى على قلبك وروحك من كل هذا البقاء الطويل المملول الذى تقضيه فى شواغل لاصلة لها بالقلب والاحساس

أكتب هذا اليك ، وليقل من شاء ماشاء ! وممن أخاف ؟ ومن هو الرجل الصالح الذى تفرض علينا تقواه أن نتحفظ فى الحديث ؟ إن أكثر الناس أشباه لصاحبنا « فلان » الذى اصطنع التوقر حتى عاد وهو من أشباه المتقين . وأقسم لو عرضت حياة « فلان » هذا فى الأسواق لما اشتريتها بدرهم واحد ! لقد حسب المفتون انه غنم وفاز حين استطاع تضليل الناس بالوقار المصنوع . إن الفوز الأكبر أن يكون الرجل ابن قلبه وعقله وروحه ، أما هذه الصور التى لاتضحك ولا تعبس إلا وفقاً لشائع الأهواء والأغراض فهى أقل حياة من الدمى والتماثيل . وأين يكون أصحابنا هؤلاء من الدمى

والتماثيل وهى لم تصنع إلا لتمثيل مادق ولطف من وثبات العقول وشهوات القلوب ، ونزوات النفوس .

كانت باريس ، ياصديقى ، فى تلك الليالى تذخر بأسباب اللهو والفتون ، وكان فى كل حى ، وفى كل شارع وفى كل حارة ، مرقص عابث يبعث أموات الاحياء . وكان ذلك كله يجرى فى رفق ولطف حتى لاتجد مايجرح ذوقك أو يشعرك بأنك تشهد ماينافى الحياء

ولا أدرى ، والله ، كيف كان يطيب لى أن أعود ثم أعود إلى المرقص الذى أقيم فى ميدان السوربون ، أكان ذلك لانى أحب أن أرى كيف يقام اللهو الصراح على أعتاب الجد الصراح ؟ وكيف وأقطاب السوربون قضوا شبابهم فى أمثال هذه السهرات ، وفى قلب السوربون تقام المراقص فى أعياد الشتاء !..

أفأستطيع أن أحكم بأن الاخلاق ليس لها ميزان ، وأن الشر والخير مما يصبغ بالالوان المحلية فنرى حلالا هنا مانراه حراما هناك؟ تصور ذلك كيف شئت ، ودع الحياة تفعل ماتشاء

***

ولكن أكان اللهو والعبث والمجون هو كل ماشهدت باريس فى هذه الأيام ؟

هيهات ، فتلك علالات يتلهى بها الفتيان والفتيات ، ويأنس اليها من خلا قلبـه من هموم السياسة وهموم المعاش . فالى جانب

المراقص العمومية كان أقطاب السياسة ينظمون عرض الجيش ليذكروا الشباب بأن مجدهم قائم على السيف والمدفع والنار والحديد ، ولو رأيت كيف تصطف الجنود في حي الشانزليزيه أو كيف تجلجل خطواتهم في ميدان الايتوال ؛ لعرفت أن في باريس روحاً آخر هو روح الجد والفتك ، ولأدركت أن القوم لا يلعب فتيانهم إلا في ظلال مايملك فحولهم من الطيارات والمدافع والأساطيل

وفي الأيام اللاهية العابثة التي طوقت جيد ١٤ يوليه كان أصحاب النواجذ من زعماء الأحزاب يشتجرون ويقتتلون ، وفي ساعات الرقص الملتهب في مونمارتر ومونبارناس كان رجال من حملة الأقلام يلقون النار فيما ينفثون على بياض القراطيس ، وكانت الصحف تخرج إلى الناس وفي ألفافها السم الزعاف . .

في تلك الأيام الماجنة أقيم المؤتمر الاشتراكي وثار فيه من العواصف مايزلزل الجبال

فافهم الآن ياصديق ، أن باريس ليست أمة واحدة ، إنما هي أمم مختلفة ، وإن شئت قلت ليست جمهورا واحداً ولكنها جماهير مختلفة فهناك جمهور الشباب وعشاق الشعر والخيال ، وهؤلاء يملأون الدنيا لهواً وعبثا ، وهناك جمهور الساسة ورجال الأحزاب الذين يوعدون وينذرون ويصرخون في كل لحظة بأن الخطر على الابواب وهناك جمهور الملاك وأصحاب المصالح الذين لا يشعرون إلا قليلا بايام المواسم والاعياد

ومن ائتلاف هذه الجماهير ينظم عقد باريس ، فهى ليست للهو وحده ، ولا للجد وحده ،وليس الأمر فيها للشبان وحدهم ، ولا للشيوخ وحدهم . وإنما هى دنيا يتعاون شبابها وكهولها ويأتلف فيها الجذع الباسق بالغصن الأملود

***

أما بعد فقد انقضت أيام العيد ولياليه ، ورجعت كما كنت آوى إلى فراشى قبل منتصف الليل ، وكنت فى تلك الليالى لا أصافح مضجعى إلا قبيل الصباح . فأين مضت تلك النجوم السواطع التى ملأت الدنيا نورا فى ليالى العيد ؟ أين ولت جيوش الصباحة والملاحة التى أزاغت الأبصار وبعثرت حبات القلوب ؟

لقد هدأ كل شيء بعد أن انفض السامرون ، فأين قلبى الذى زلزلته بروق الجمال ؟

عد إلى عشك ياقلبى ، فقد أوت إلى أوكانها أسراب الحسن وسكن الأليف إلى الأليف

إنى فى انتظار عودتك أيها القلب ، فمتى تعود ؟

إنى لأعرف أين أضعتك ، ولكنى لا أعرف أين يقيم من انتهبوك !

وأنت ياصديقى الذى تحيا بطلعته شواطىء النيل ، ألا تغنى أخاك هذا البيت الحزين :

ياليت ماء الفرات يخبرنا أين استقلت بأهلها السفن

قبل الطعام والشراب [١]

أين عهد الهمجية ؟

أين عهد الانحطاط ؟

أين عهد الخمول ؟

رحم الله تلك العهود ؛ فقد حدثونا أن الحكومة المصرية : كانت تأخذ الأطفال قهرا من أيدى آبائهم ، وحجور أمهاتهم ، بين البكاء والعويل لتعمر بهم دور العلم التى أنشأتها لرحمة الأمة من بلايا الهمجية ، والانحطاط والخمول . وقد حدثونا أن الحكومة المصرية كانت تخرج الشبان من ديارهم ، لتبعثهم إلى العواصم الأوربية بالرغم من التمائم التى كان الآباء يعوذون بها أبناءهم من (التغرب فى بلاد بره !) وقد حدثونا أن الآباء والأمهات كانوا (يقيمون الولائم لأهل الله والأولياء ، ويوزعون الصدقات على المساكين والفقراء ويقرءون الفاتحة والصمدية و المعوذتين ثلاثمائة مرة عند الشروق وعند الغروب

كل ذلك ، ليرحم الله أولادهم من دخول المدارس ، ويقيهم شر السفر إلى لندرة أو باريس أو برلين ، فما كان الله وهو أرحم

(١) نشرت فى جريدة ابو الهول فى خريف سنة ١٩٢١

الراحمين ينظر إلى زفراتهم المحرقة ، وعبراتهم المغرقة . بل كان يعين الحكومة عليهم فيصبح أبناؤهم بالرغم منهم تلاميذ فى المدارس أو اعضاء فى البعثات العلمية !

فيارب وأنت الحكم العدل : إليك نشكو (وجودنا) فى عهد المدنية والرقى والنهوض ! لقد كان آباؤنا يساقون إلى المدارس سوقا ، فيتعلمون وهم راغمون ، كما يؤجر المؤمن رغما عن أنفه ! وهانحن أولاء نقاسى ألوان العذاب ، كلمااشتعلت فى صدورنا نيران الشوق إلى العلوم والفنون !

يارحمة الله لهـذا القلب الحزين ! لقد قضيت بضع سنين وأنا ظامىء أترقب لعل طيف (الزمن الماضى) يطيف بى فجأة فأصبح وقد وجدت من مناهل العلم مايطفىء تلك النار التى تتأجج فى صدرى فلا تجد غير الرجاء من وقود ! وهأنذا أتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، فلاأجد غير أنداد فى التعاسة ، وأشباه فى الشقاء !

أيها الآباء والاجداد !

لقد كانت الحكومة فى عهدكم محسنة كريمة ، ولكنكم عددتم كرمها بخلا ، وإحسانها إساءة !

وهاأنتم أولاء تنظرون كيف انتقم الله للحكومة منكم ، فأغلق فى وجوه أبنائكم أبواب المدارس ، وحرمهم من البعثات العلمية والفنية ! فاقرءوا إن شئتم (الفاتحة والصمدية والمعوذتين) على أرواح أولادكم التى أماتها الجهل ، وقبرهـا الخمول ! لقد كنتم تبكون كلما ألزمتكم

الحكومة بارسال الاطفال الى المدارس! وكنتم تعولون كلما سمعتم أن الحكومة ستبعث فريقا منكم إلى الحواضر الأجنبية! فابكوا الآن حتى تنزفوا دموعكم كلما ضاقت عن أبنائكم المعاهد ويئستم من أن يروا — ولو فى النوم — منابع العلم فى برلين وباريس!

فيارب وأنت الحكم العدل: لقد قضيت أن لا تزر وازرة وزر اخرى ونحن أبناء هذا الجيل لم نعص أمر الحكومة ولم نهرب من المدارس ولم نفزع من الارساليات فكيف نؤخذ بذنوب آبائنا الذين أنكرنا عليهم ماتورطوا فيه إذ ذاك من كراهة التهذيب؟

فان لم يكن بد من أن يؤخذ الأبناء، بما جنى الآباء، فانى أستطيع أن أثبت أن جدى رحمه الله أدخل أبى المدرسة وهو طائع! وفى مقدور كثير ممن ضاقت فى وجوههم سبل العلم أن يبرئوا آباءهم وأجدادهم من (تلك الجناية) التى يحاسب عليها الأبناء والأحفاد! فهل تتفضل الحكومة فتفسح المجال لهذا الفريق (البرىء) عسانا ننجو من بلية الجهل، ونكبة الجمود!

نريد أن نتعلم، لا تكفينا السلامة من العرى، والظمأ، والجوع لا نشكو ظاهر المرض، ولكنا نتألم من الداء الدخيل! إرحمونا من الداء العياء! أغيثونا فكلنا ملهوف! (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) ونحن أيتام العلوم والآداب، فليرحمنا القائمون بالعلم فى هذه البلاد، ليرحم الله أبناءهم من بعدهم

فلا يجدون ما نجد من اللوعة والغليل !!

يرحم الله هذه الأمة : فلقد كانت وكل همها أن تظفر بكفايتها من الطعام والشراب ، فأصبحت وليس لها غير هم واحد ، ولكنه هم معقد مقيم ؛ وهو أن تجد كفايتها من المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . وهى بعد ذلك ترحب بالفاقة ، إن صح هذا الحلم الجميل !

أما البعثات العلمية . . . ويلاه ماذا أقول ! اللهم لا تمتنى قبل أن أرى بعينى كيف يدرس العلم فى الممالك التى أصبح أهلها سادة الأمم وأساتذة الشعوب .

العمر الضائع (١)

فى الازهر والمعاهد الدينية

فى يوم الثلاثاء المقبل سيحتفل المصريون بذكرى الشيخ محمد عبده فى الجامعة المصرية !!

وأول مايمر بالخاطر ، هو مكان الاحتفال ، فقد نذكر أنهم احتفلوا بتأبين الشيخ حمزة فتح الله فى المكان الذى كان يلقى فيه دروسه العامة فى درب الجماميز ؟

(١) نشرت فى الافكار فى ٧ يوليه سنة ١٩٢٢

وليست الجامعة المصرية بالمكان الذى كان يلقى فيه الأستاذ الامام دروسه العامة ؛ ولكنه كان يلقى أبحاثه الممتعة فى الأزهر الشريف !!

فياعجبا ! أيضيق الأزهر على الشيخ محمد عبده فى الحياة وبعد الممات ؟ . .

لافرار من الحق ! إن الذين فكروا فى الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده هم تلامذته القدماء الذين ضاق بهم الأزهر ، ووسعتهم الجامعة المصرية

لقد تسكن النفس ، ويطمئن القلب ، حين نرى بأعيننا حياة هذا الرجل بعد موته ! — أليس هو القائل : وإن فناء فى الحق لهو عين البقاء ؟ ! صدقت أيها المصلح الجليل ؛ فانظر بعينك الآن من عالم الأبدية ، لترى من جديد (إن رحمت الله قريب من المحسنين !) إن للمجاهدين عبرة فى حياتك الأولى والثانية ، لقد مت وأنت تتسمع عساك تجد منصفاً يعترف لك بجميل ، فهل علمت أن الناس يعلنون عن أنفسهم بالحب لك ، والاقتداء بك ؟؟

(إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)

***

فى يوم الثلاثاء المقبل ستتقاطر جموع العلماء إلى دار الجامعة

المصرية فلنسمعهم هذه الكلمة عساهم يصلون إلى تلك الدار وهم خاشعون

لقدمرت السنون على وفاة الشيخ محمدعبده ، فهل قامفريق منهم فوقف وقفة المستبسل الجرىء ، فذاد عن المعاهد الدينية ، واقتفى أثره فى إصلاح الأزهر ، وتعديل برامج التعليم ؟

لقد عطلت الدروس شهوراً عديدة فهل انتفعوا بهذه العطلة فملأوا الخزائن ببدائع المؤلفات وروائع المصنفات ؟ ألم يعد الازهر كالطلل البالى لأنهم استبدلوه بالأندية الخصوصية حتى عطلت الجمعة فيه أسابيع كثيرة ؟ ألم يتركوا السذاجة تطغى وتستطيل حتى أعلن بعضهم فى الصحف السيارة أنه سأل الشيخ بخيت عن حكم التكلم فى السياسة ؟ ألم تنطق صوامت الموجودات وهم لائذون بالصمت والسكوت ؟؟

لايقنع الأمة أن ترى من بين هؤلاء الجموع خمسة أوعشرة يكتب كل منهم بضع رسائل فى السنة ثم تطوى الصحيفة ويجف المداد !!

كنا سمعنا أن امرأة صالحة وقفت فى طريق الفخر الرازى فسألها الناس أن تفسح له الطريق فقالت من هذا الذى تحتفون به ؟ فقالوا رجل عالم أقام على وجود الله ألف دليل ! فقالت : ويحكم هل عميتم حتى تطلبوا على وجود الله ألف دليل !! — وكـــذلك يقتل الازهريون وقتهم فى إثبات وجود الله ، تعالى الله عما يصفون !!

العلم من مرقده ، فى هذه البلاد التى كانت نقطة الاتصال بين الشرق الناهض والغرب الهامد ، والتى لولاها ماحفظت علوم العرب التى كانت نواة هذه المدنية الفسيحة الأرجاء!!

إن الجامعة المصرية لم تعد فى حاجة إلى الاشادة بذكرها ليلتفت إليها الناس . ولم يكن أبناؤها بالقليلى العدد حتى يقول قائل ما الذى صنعته فى ترقية البلاد! ولكن كلمة واحدة تختلج بين شفتى من حين إلى حين وأريد أن أقول : هل يذكر كل قادم إلى الجامعة المصرية من منتسب أو مستمع أنه ضيف صاحبة السمو الأميرة فاطمه بنت اسماعيل تغمدها الله برحمته ، أو ضيف المرحوم حسن باشا زايد أو أحمد بك شريف ، ومن نحا نحوهم فى الخروج من بعض ماله لتشييد هذا المعهد الذى تفزع إليه العقول ؟ ! وهل يفكر بعض طلبة الجامعة من الذين قدر لهم أن يكونوا أغنياء أو ذوى دالة على الأغنياء أن يكثروا من أصحاب الأيادى البيضاء على هذا المعهد بما يبثونه من تبجيل من سهروا عليه وهو وليد ؟

أما أنا فلا أملك غير الوفاء ، وسأجعل لأولئك الكرام النفوس منزلة من قلبى تعز على من رامها وتطول . وليشهد الله و ملائكته والناس أن لكل من مد يده لمساعدة الجامعة المصرية دينا فى عنق قضاؤه الشكران

أين البيان والافصاح ؟ أين الشعر الجميل ، والنثر البديع ؟ أين شعر زهير فى هرم بن سنان ؟ أين مدائح البحترى للفتح بن خاقان ؟

اللهم إنى أعجز عن أداء ما على من واجب الثناء على أولئك الأمجاد فاكتب لهم عندك مايطربون لمرآه يوم يبعثون

قالت التوراة

فى باريس

صديق الاستاذ أحمد الزين

لقد رأيت أن أوجه اليك هذه الرسالة علها توحى إليك فى معناها فكرة جديدة تذكر القراء بما عرفوا من آثار فضلك ، وتسوقك إلى مناصرتى فيما أرمى اليه بهذا الحديث

وألفت نظرك أولا إلى أن (قالت التوراة فى باريس) جملة مفيدة مركبة من ثلاث كلمات لا من أربع . ولك أن تعربها هكذا : قالت التوراة مبتدأ ومابعدها خبر المبتدأ ، وأنت تعرف تفصيل الاعراب فلا موجب للتطويل ، ولك أن تسأل كيف اتفق لى أن أحكى (قالت التوراة) فأصيرها كلمة واحدة ؟ وفى الجواب أسوق القصة الآتية :

فى باريس كما تعلم ماشئت من المدارس والمعاهد والكليات .

نريد أن يتغير التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية ؛ نريد أن نكون أعزة وقد صيرتنا هذه التعاليم أذلاء ، نريد أن نرسم الخطة لنهضة الممالك الاسلامية ، حتى يغلب الجاحدون على أمرهم فيدخلوا فى دين الله أفواجا أفواجا من حيث لا يشعرون !!

نريد أن نمحو الوساوس التى دخلت فى العلوم العربية وأصول الفقه وعلم التوحيد ، ولا يضيرنا أن يخمل بذهاب هذه الوساوس مئات المتصدرين فى العلم والدين ! فهل نحن واجدون من بين العلماء من يسمع هـذه الكلمة التى اضطررنا اليها اضطرارا وألجأتنا اليها الغيرة على الدين الذى مات فى تأييده الآباء والأجداد ؟ ؟

الاحسان الى العقول (١)

كتب التاريخ فيما كتب ، أن الأمير عبد العزيز بن مروان كانت له اياد بيضاء على المعوزين فى مصر . ولا زلت أذكر ماطربت له من وصف الاستاذ محمد بك الخضرى لذلك الامير الجليل حينما عرج على ذكراه فى الجامعة المصرية ، ولم يكن عبد العزيز بن مروان واحد الناس فى الكرم والافضال حتى أخصه بالطرب لما عمل ، والاعجاب بما صنع ، ولكن الذى انتشيت له إنما هو وجود باحة

(١) نشرت فى جريدة المحروسة فى نوفمبر سنه ١٩٢٠

سعيدة فى الديار المصرية ؛ ابتسم فيها الجود للعافين حينا من الدهر ومن ذا الذى لا يستروح لذكرى السعادة مرت ببلاده ففلت من غرب الشدائد ، ونالت من جانب الاحداث ؟

أجل ! كان ابن مروان موئلا للنفوس الحائرة أعواما معدودات ثم انطوى بره ، حينما انطوت أيامه ، ولم يبق من جوده بقيه تفزع اليها النفوس الهاربة من الفقر ... وكذلك لم يبق من ذكراه إلا كلمات قلائل حفظت فى الكتب المنسية ! وذهب ماقيل فيه من جيد الشعر وبارع النثر ، وأكثر ما يعرف عنه أنه والد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وكان أولى أن يعرف بجوده الشامل قبل أن يعرف بابنه العادل

كذلك كان الناس فيما سلف : يعملون لليوم لا للغد ، ويحسنون إلى البطون لا إلى العقول ، اللهم إلا أفرادا كانوا يثيبون على الكتب المؤلفة وربما حبسوا شيئا من مالهم على المساجد يدرس فيها العلم ويذكر فيها ذو الجلال والاكرام !!

تلك أيام خلت ! وقد اكتفينا بما لدينا من التكايا والمساجد ووجب أن تتوجه العزائم إلى الأعمال التى تخلق الأمم خلقا جديدا وينال صاحبها من كرم الأحدوثة ما لا يذهب به كر الغداة ومر العشى ، ولن يتمثل ذلك إلا فى إنشاء المعاهد العلمية ، والعمل على تكوين العقول وتهذيب النفوس وأكثر ما يتضح ذلك فى العمل الذى قام به منشئو الجامعة المصرية ، التى أخذت منذ سنوات تبعث

وهم فى غاية الطاعة والخضوع ، ثم تنبرى إحدى الأوانس فتلقى بصوتها العذب إحدى العظات الدينية ثم تتبعها رفيقاتها واحدة فواحدة والناس يستمعون فى خشوع وسكون ، فاذا مضى على ذلك نحو ساعة صاحت إحدى الفتيات : من كان يؤمن بالله ويرى نفسه فى حاجة إلى الخلاص فليحضر الينا بعد العشاء فى المنزل رقم ١٨٤ بولفار سان جرمان ، ثم تكرر الرقم بصوت مرتفع نحو عشر مرات بطريقة تأسر النفس وتشوق الفؤاد

وليس هذا كل حظ باريس من النفحات الروحية ، فهناك الكنائس ، وهناك عظات أيام الآحاد . وقد رأيت أن أشهد بنفسى حفلة يوم الأحد التى تسمى « ميس » فتوجهت مرة إلى كنيسة مونبارناس وأخرى إلى كنيسة نوتردام

وحى مونبارناس حى خليع هو اليوم مزاحم قوى لحى مونمارتر ومع ذلك لم أجد مقعدا خاليا بالكنيسة حيث كان المصلون يعدون بالألوف ، ثم صعد الخطيب المنبر ، ولكن أى خطيب ؟ إنه رجل مثقف إلى أسمى حدود الثقافة ، يتكلم فى شئون دقيقة تمس الحياة الاجتماعية ، ولا يلقى الكلام على عواهنه كما يفعل أكثر الخطباء ، ولكنه يفترض أنه يعظ فى باريس وفى القرن العشرين ، لذلك تراه يتعمق فى نقد الأخلاق وتحليلها ، ورد كل رذيلة إلى أصلها من أهواء القلوب وأدواء النفوس . ويستعين فى شرحه بجميع ما وصل اليه العلم فى فهم الغرائز الانسانية ، وتكييف طبائع الناس ، وكان يتكلم

عن الأزمات الروحية والعقلية التي تصادف الرجال والنساء في بعض أطوار الحياة بافاضة شائقة تخترق ما أضمر واحتجب من سرائر السامعين

أما خطيب نوتردام فشعلة مضطرمة من الحياة والذكاء، والمصلون من حوله يجلون عن الحصر والاحصاء، وهو لا يخطب سامعيه من أهل باريس فقط، بل تنقل خطبته عن طريق الراديو إلى سكان المقاطعات والأقاليم! فحدثني بربك أتظن مع هذا أن فرنسا نسيت دينها وأقبلت بنفوسها وأهوائها على معالم الشهوات كما يظن أكثر الشرقيين؟

أكتب هذا اليك وأنا خالى الذهن مما يسمى القديم والجديد فلست أحب أن أكون من أنصار القديم أو أشياع الجديد، وإنما يرضيني أن أكتب ما أعتقد غير ناظر إلى المحافظين والمجددين. وأنا أعتقد بصراحة أن الجماهير في جميع الأمم لابد أن يكون لها ضمير، وهذا الضمير يخلق في أكثر الشعوب مصحوبا بالدين: فلا بد للعالم من وازعين: العلم أو الدين. ومادامت الجماهير لا تصل إلى العلم الواسع الذى يحملها على فهم معانى الخير والشر فمن الاجرام أن تدعوها إلى التخلى عن الدين، فانه لابد لها من ضمير تعتصم به وهذا الضمير لا يخلق إلا في ظلال الدين السمح أو العلم المتين

وكذلك ينقسم أهالى أوربا إلى قسمين فريق: العلماء الذى يعتمد على علمه فى التفريق بين الخير والشر والضر والنفع؛ وفريق

ولكن لاتحسب أن الحركة الفكرية والعقلية والروحية يقف نشرها عند حدود مايلقيه الأساتذة والمعلمون فى دور التعليم !! لا. فهناك عشرات من المحاضرين يلقون فى كل مساء وفى أمكنة مختلفة عدداً من المحاضرات العلمية والأدبية والاجتماعية. ولهؤلاء المحاضرين جماهير تتسابق فى الاستماع اليهم إذ كان أكثرهم يعتمد على جمعيات منظمة تتنافس فى نشر ماتؤمن به من مختلف المذاهب والمعتقدات، والدعوة إلى تلك المحاضرات لاتكون عن طريق الصحف كما هو المتبع فى مصر وإنما تجرى عن طريق النشرات الخاصة التى توزع على الجمهور فى نفس الأحياء التى يتكلم فيها المحاضرون، فلا ترى هنا من السخف ماتراه عند بعض خطباء المساجد إذ يعلن فى الصحف السيارة عن خطبة سيلقيها فى مسجد سيدى الأربعين!

وقد كان أن وزعت فى بعض الأمسية نشرة مفصلة للدعوة إلى سلسلة محاضرات تلقى فى صالة الدراسات العليا بجوار السوربون. وكانت موضوعاتها شائقة، منها: هل يشعر الأموات؟ ومنها: هل تتكلم الأرواح؟

ذهبت لاستماع تلك المحاضرات فاذا رجل يلقى عظة دينية، وقد حضر لاستماع عظته عدد غير قليل من الرجال والنساء وكان يلقى السؤال ثم لايضطرب فى جوابه لأنه كان يفزع إلى التوراة فيستنطقها الجواب، وكان الناس كلهم فى سكون وإنصات. أما أنا فكان يغالبنى الضحك كلما سمعته يقول قالت التوراة، وكنت أقول

فى نفسى : ماعسى أن تصنع قالت التوراة فى باريس ، وخاصة بجوار السوربون ؟!

ثم مر أحد مساعدى المحاضر فأعطى كل جالس ورقة صغيرة وسأله أن يكتب عنوانه إذا كان يهمه أن ترسل اليه خلاصة المحاضرات مطبوعة ، فأعطيته عنوانى ، وبعد ثلاثة أيام تلقيت من ساعى البريد خلاصة تلك المحاضرات

ومنذ تلك اللحظة أخذت أتعرف إلى باريس من الوجهة الدينية وكان مفهوما عندى وعندك وعند أكثر المصريين أن باريس ودعت الدين منذ أزمان . وما كان أشد دهشتى حين رأيت أن أهالى باريس مؤمنون إلى حد التنطع والجمود . وقد عرفت بذلك أننا فى مصر خدعنا أشد خداع فى فهم فرنسا من الوجهة الدينية فان القوم لم يزالوا مؤمنين ، ولاتزال كنائسهم عامرة يغشاها جماهير عظيمة من الشباب والكهول . والخلاعة الفاشية فى باريس لاتشمل إلا طوائف قليلة من الشبان الفارغين الذين يعجزهم أن يقضوا أمسية الفراغ وأيام الآحاد فى عمل مقبول

وفى باريس جمعية كبيرة تسمى « جيش الخلاص » وهى جمعية دينية يقوم عملها على أكتاف عدد عظيم من الآنسات المهذبات وأولئك الأوانس ينقسمن إلى طوائف منظمة ، تذهب كل طائفة إلى حى من أحياء المدينة ، وهناك يقف ذلك السرب الأنيس ويأخذ فى إلقاء الأناشيد ، فيجتمع الناس من شيب وشبان ورجال ونساء

وإنى أؤكد لك أنها لاتفهم جيدا خطر هذه المهمة ، فان كبار الاشياخ يظنون أن الامر لا يزيد عن إيجاد مرتزق للعلماء ، ولو أنهم عرفوا أن الواعظين يستطيعون أن يشغلوا الناس بأنفسهم ويحملوهم على التفكير فى معاشهم ومعادهم ؛ لرأينا لتلك الحركة الطيبة بودر قوة ونهوض

أليس عمل الواعظين فى جوهره يرجع إلى إيقاظ ما خمد من النفوس ، وبعث ما اندثر من حرارة القلوب ؟ فأخبرنى إذن أين المؤلفات الجديدة التى تصلح لجماهير أهل الريف ، والتى تبث فيهم الثقافة الاسلامية بلا مشقة ولا عناء ؟

إن الوعظ لا تظهر ثماره إلا إذا رأينا الاهالى فى شغل بصقل أخلاقهم ، وإحياء ضمائرهم ، وتعهد أنفسهم ، وصيانتها من الكذب والغش والبهتان ، وتلك مهمة شاقة لا يكفى فيها ذلك العدد الضئيل الذى عينته وزارة الاقاف

***

بقيت مسألة أحب أن أعرضها عليك ؛ هنالك كما تعلم أنواع من التسهيلات يعطاها الموظفون بسبب الفرائض الاسلامية . فهل ترى من الذوق أن ينتفع الموظفون بتلك التسهيلات دون أن يقيموا وزنا للفرائض ؟

هنالك التخفيف الذى يمنحه الموظفون فى شهر رمضان . فهل

من الذوق أن يستهين بعضهم بكرامة شهر الصوم ويتمتع فى مكتبه بالقهوة والدخان ؟ إن هؤلاء بين اثنتين : إما أن يحترموا الصوم وينتفعوا بالتخفيف ، وإما أن يحضروا إلى مكاتبهم فى الساعة الثامنة صباحا ولهم ماشاءوا من القهوة والشاى والدخان . أما هذه الوقاحة الاجتماعية فشىء تضيق له الصدور !

وكنت أحب أن أعرض للعطلة الظريفة التى يتمتع بها موظفو دار الكتب المصرية يوم الجمعة ، والتى تحرم الجمهور من المراجعة نحو ثلاث ساعات ، كنت أحب أن أعرض لهذا ، ولكنى أعرف أن موظفى دار الكتب أكثرهم أشياخ يحرصون على أداء الفريضة وليس فيهم رجل واحد يدخل فى زوايا القهوات فرارا من الصلاة !

إقرأ هذا ياسيد أحمد وتأمله ، ولا ترم أخاك بالجمود فانى لاأحب أن تعفو الديار المصرية من تقاليدها الحميدة ، لتصبح وليس لها ماتتأدب به إلا الروايات السخيفة يمضغها الشبان فى الغدو والرواح

وقد بينت لك أن أوربا لم تكفر حتى يطمئن إلى الكفر من يقلدونها فى كل شىء ، إن أوربا هى هى فى روحها وصميمها ، وكل ماتسمعه عنها من أخبار الهزل والبطالة والمجون لايمثل إلا جانبا صغيرا لا يستطيع البقاء إذا جد الجد وجاء يوم النضال

على أن أوربا تعذر إذا لهت ولعبت فأولئك قوم كادوا يجنون من الجد والنشاط ولا بد من الاستجمام ، أما نحن فما عذرنا وقد أقبلنا على الشهوات دون أن يكون لنا بين الحازمين مكان

الدهماء الذى يعتمد فى فهم الحلال والحرام على ماسنت الديانات والشرائع ، أو العادات والتقاليد

فتأمل هذا وانظر أين نحن من أولئك الناس فى سياسة الجماهير لقد أخذنا ننصرف عن تراثنا الروحى فى لهو وسخرية ، وقل منا من يتوجه إلى المساجد بقلب خاشع ، وطرف دامع ، وقد درجنا مع الأسف على تقدير أن من البدع أن تزخرف المساجد وتدخل فيها آيات الرفاهية . وحجتنا فى ذلك أن مساجد الأولين كانت خشنة لا ترف فيها ولا لين ، وفاتنا أن نذكر أن وسائل الأولين كانت قليلة وأنهم كانوا أفقر من أن يزينوا مساجدهم ويصيروها صالحة لاستقبال المترفين ، وهؤلاء المترفون هم أحوج الناس إلى الرياضة الروحية ، وهم قوة هائلة يحسب لها ألف حساب ، فمن الحزم وحسن التدبير أن نقربهم بشتى الوسائل إلى بيوت الله .

إن الموسيقا تعد أكبر جاذب لرواد الكنائس ، ونحن كما تعرف لم نألف رنين الأوتار فى المساجد ، ولكن لدينا مايغنى عنها :

لدينا تلك الأناشيد الروحية التى طالما هزت قلوب المصلين ، وأنا أذكر أنك كنت تختار جامع قيسون لتسمع الشيخ عبد الشافى ولعلك كنت تتأثر خطوات أستاذنا المرحوم محمد بك المهدى إذ كان يحب الصلاة هناك فهل تظن أن أولى الأمر فى وزارة الأوقاف يفكرون فى إغناء المساجد بالقارئين والمنشدين من أصحاب الأصوات

الرخيمة ؟ وهل تقدر أن صلاةالتراويح فى رمضان تجد من الراغبين ما كانت تجد فى سالف الأيام ؟

ستقول: إن الزمن تغير ، ولكنى أقول لك : إن الناس هم الناس ولا تزال أرواحهم فى ظمأ تتلهف إلى من يسكب عليها قطرة من عصير الاخلاص، فمن للجماهير الاسلامية بمن يفكر فى ردها إلى تلك الآفاق العلوية التى حرمت جلالها وبهاءها منذ هجرت البيوت والمساجد ولجأت إلى القهوات والحانات

لقد أكثر الناس من مطاردة الصوفية ، ولهم بعض العذر ، فقد كثر أدعياء التصوف حتى أفسدوا ما كان له من رونق وجلال ولكن هل من العدل أن ننسى أن الصوفية كانوا أخبر الناس بسياسة الجماهير ؟ إن الصوفية هم الذين حفظوا تراث الأولين ، وأذاعوا بين أتباعهم ومريديهم فكرة الحق والخير ، وحببوا اليهم التحلى بمكارم الأخلاق

وقد تقلص ظل الصوفية من أكثر الاقاليم ، أفتدرى ما الذى حل بالاهلين ؟ لقد شاعت فى الارياف بدعة فتح القهوات ، وصار الفلاح يعرف كيف يمسك (الجوزة) وكيف يتحدث عن المخدرات وكان منذ أعوام يخرج من منزله فيصلى العشاء ويقرأ الاوراد ثم يعود إلى بيته فى طمأنينة وسلام . فأى الحالين خير ؟ وأيهما أجدى فى حفظ الصحة والعرض والمال ؟

لقد فكرت وزارة الاوقاف أخيرا فى تعيين طائفة من الواعظين

تعرف داء الأمة رفقا بنفسه من مطالعة آثار الرذيلة، ولكنا نعرف أن الطبيب يجرم أفظع جرم إن نفر من رائحة الجروح ، وليس جرم الكاتب بصغير إن نفرته مناظر الفاحشة عن درس الأصول الأولى للفاقة والبأساء ، وكما أن الطبيب يمضى في العملية الجراحية غير حاسب أى حساب لما يسديه اليه المريض من الشتائم كلما آلمته المشارط ، فان الكاتب المخاص يضع (سمعته) نهبة لشتائم الصارخين من مرضى النفوس ، وكلما آلمهم قلمه فسبوا وشتموا تذكر أن القلم فى يده كالمبضع فى يد الطبيب ، وأنه يجب أن ينسى نفسه ، وأن يعرف أن عدوه هو المرض الذى يحاربه فى شخص المريض ، وأن هذا المسكين لايشتمه بصدق ، وأنه سينظم له عقود الثناء بعد ذهاب الداء

***

كانت الليلة الأولى فى شارع عماد الدين ، وكانت الليلة الثانية فى مصر الجديدة ، وكنت فيهما ذلك الفارسى الذى تخيله (مونتيسكيو) يجوس خلال باريس ، فينكر الناس ماله من زى غريب ، وينكر ما للناس من خلق غريب !

دعانى للمرة الأولى حسن افندى فائق لاسمع أنشودته فى صريع الكوكايين ، فأجبت الدعوة كارها غير طائع ، ولم أكد أدخل الملعب حتى التهمتنى العيون ، فمن قائل جاء ليلقى عظة فى النهى عن

الموبقات ، ومن قائل ياعجبا للهو لم ينج من عدواه المعممون !!
فصحت فيهم إنما جئت لمقابلة حسن افندى فائق صاحب أنشودة
«شم الكوكايين» !! فتقدم إلى بعض العاملين فى المسرح وقال: لقد
انصرف حسن افندى ، وقد يعود بعد قليل ، فان شئت شربت
فنجانا من الشاى وانتظرته حتى يعود ، وكانت الليلة شاتية ، وكان
الشاى فيها خير مشروب فأخذت أتخير مكانا بعيدا عن «همسات»
الحاضرين وغمزات الحاضرات!! وماهى إلا لحظة حتى صرخ صارخ
«اضبط ! هذا صاحب مدامع العشاق !» فالتفت فاذا عفريت الليل
عن يمينى ، وابن الهوى عن شمالى ، كأنهما منكر ونكير ، أو رقيب
وعتيد ! قال عفريت الليل : من أتى بك ههنا ؟ فقلت وأنت من أتى
بك ههنا ؟ قال ، أنا صحفى أحرر جريدة أسبوعية ! فقلت وأنا صحفى
أحرر جريدة يومية ! فما لك تشاركنى فى الفعل وتفردنى بالعجب ؟
ثم دعانى إلى تناول الشاى معه فى مكان من الراقصات قريب !

جلسنا نتحدث ، ولكنى منحته أذنا غير واعية ، وأقبلت
بسمعى وبصرى وقلبى على تلك القطع المختارة من شعر الوجود ،
فان النساء ياصاح قصائد مسطورة فى سجل الحياة ، وأصحاب المراقص
يتخيرون من هذه القصائد أعلقها بالنفس ، وألصقها بالقلب ، وقد
خيل إلى ساعتئذ أنى لم أحضر إلا لدرس هذه الطرف البديعة لأتبين
السر فى « ضلال » من فتنته الخدود ، وسحرته العيون ، ولأعذر
قتلى الحسن ، وصرعى الجمال !

إنه لامانع من محاكاة أوربا فى لهوها ولعبها ، على شريطة ان يكون لنا ما لها من مغارم الجد ، وأن نشقى كما تشقى فى خلق أسباب الظفر والقوة ، وأن نقاسمها الجد فى السيطرة على أقطار الأرض ومسالك الهواء

والسلام عليك ياصديقى وعلى من لديك من أفاضل الزملاء

٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٠

ليـــلة وليـلة

أزهرى يصف المرقص

رأى الكاتب المرقص الحديث لأول مرة وهو شيخ يلف على رأسه العمامة ويرتدي الجبة والقفطان ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٢٢ فكتب فى وصفه هذه الرسالة الساذجة التى تمثله وهو يفتح عينيه على فتن الوجود فى دهشة وانجذاب

صحبت عفريت الليل [١] » الى حفلة راقصة فى مصر الجديدة ، وكنت مدعوا لهذه الحفلة كما دعيت لأختها من قبل فى شارع عماد الدين ، وقد غالبت حيائي عند إجابة الدعوة الأولى ثم غالبته عند إجابة الدعوة الثانية : وخلقت لنفسى ماشاء الهوى من شتى المعاذير!!

(١) هو لقب الصحفي مصطفى اسماعيل القشاشى وكانت مشاهداته تذيل بهذا الامضاء

وإنى لمحدثك عن المرقص الأول والمرقص الثانى ، تلبية للصديق العزيز عفريت الليل ! ولكنى أتقدم هذا بأبلاغك ماجال فى خاطرى عند تسلم بطاقة الدعوة ، فقد أعرف أنى شيخ وأعرف أني فى نفسى من حماة الدين الحنيف ، والله عليم بذات الصدور ، ولكنى تذكرت بجانب ذلك أنى صحفى ، وأن المهنة تقضى على بارتياد مواطن الشبهات، ومواقف التهم ، لأرى كيف يعيش الناس ، ولأقابل بين ماأراه على لوح الوجود وما أراه على لوح التاريخ !! وعندى أن الصحفى كالطبيب : فكما يجوز للطبيب أن يرى أجمل ما تستر المرأة ليقف على موقع الداء يجوز للصحفى أن ينظر أغرب ماتكتم الأمة ليقف على موطن الداء . ولا فرق بين هذا وذاك . إلا أن الطبيب يعالج الجسوم والصحفى يعالج العقول . فمن الجناية أن يتورع صحفى أو طبيب عن الوقوف على بواطن الأشياء . وهو عن فهمها مسئول !

وتذكرت أني كاتب ، والكاتب كالمصور ، لاغنى له عن رؤية كل مكنون ، ولن يعذره أحد إذا أخفق في تصوير الغرائب المستورة والعجائب المكنونة بحجة الدين والأخلاق ، لأن الفنان لادين له إلا فى قرارة نفسه ، ولا خلق له إلا فى أعماق ضميره ، وهو غالبا فاسق النظر فاجر البيان !!

ولئن جاز للطبيب أن يحجم عن إسعاف المريض إشفاقا على نفسه من رائحة الجراح القديمة ، فقد يجوز للكاتب أن يحجم عن

رأيت من بين الراقصات فتاة فرنسوية ، وأخرى إسبانية ، وثالثة مصرية ، وقد رأيت الفرق واضحا بين هؤلاء الأوانس ، وأظهر مايكون الفرق فى الحركات . فللفرنسويات والاسبانيات حركات فى الرقص تشبه حركات الجنود فى ميادين الحروب ! ولا هم لهؤلاء الفتيات حين يظهرن على المرقص إلا أن يبهرن الأنظار بخفة الحركة وسرعة الدوران ، فى حين أن الراقصة المصرية لا هم لها إلا لفت الأنظار إلى خصرها النحيل ، وردفها الثقيل ، وخــــدها الأسيل وطرفها الكحيل ؛

ترنو فتنقلب القلوب للحظها مرضى السلو صحائح الأوصاب

ويحسب الرائى رقص الافرنج نوعا من الألعاب الرياضية ، إذ يرى الراقصات يتثنين بسرعة كأنهن ثعابين ، ويختفين بسرعة كأنهن شياطين ! ولا تكاد الراقصة تبدو حتى تختفى فيحسب مثلى أنه كان فى حلم وأن ما رآه طيف خيال !! ولا يكاد الملعب يخلو من تلك الغادة اللعوب ، حتى يقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون : أى شمائل هذه الغادة أروح للنفس وأمتع للعين ؟ فمن قائل شعورها الذهبية ومن قائل خدودها الوردية ومن قائل ثناياها اللؤلؤية ، ويسألنى (عفريت الليل) مارأيك فى هذه الفتاة ؟ فأعتذر ، فيعيد السؤال فأكرر الاعتذار ، فيلح ، فأقول ويحك لم أرمنها شيئا ، لقد مرت كالبرق الخاطف ، فان شئت هاتها بين يدى ، أتأملها قطعة قطعة ، كما أتأمل القصيدة بيتــا بيتا ، وكما أتأمل الرســالة فقرة فقرة ، وكما أتامل

الكتاب بابا بابا ، ثم أحكم أى ملامحها أحق بأن تسهد من أجله العيون ، وتعذب فى حبه القلوب !!

أما الراقصة المصرية فهى ملك كل عين ، وطوع كل قلب ، إذ تخطر فى المرقص ، وكأنها الغصن الرطيب ، يعبث به النسيم العليل ، تقبل فاذا هى هيفاء ، وتدبر فاذا هى عجزاء ، وترنو برفق إلى كل ناظر ، فيحسب كل امرىء أنه مرمى طرفها الناعس ، ومهوى قلبها الخافق ، فيمسى وهو صريع !! وقد تتغنى وهى ترقص ، فيروقك ماتسمع وماترى ، حتى لتحسب أنها آلة موسيقية ، صورت من ماء اللؤلؤ ، أوصيغت من نهود الكواعب ، ثم تثوب إلى رشدك ، فتذكر أن هذه ليست آلة موسيقية ، بل هى إحدى اللواتي كان النيل يغضب قديما فلا يرضى حتى يضم إلى صدره واحدة منهن مفلجة الثغر ، وضاحة الجبين !!

حوراء إن نظرت اليك سقتك بالعينين خمرا
تنسى التقى معاده وتكون للحكماء ذكرا
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهبا وعطرا
وكأنها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا

وتطيل الراقصة المصرية فى التثنى ، والتغنى ، حتى تهيج المشاعر والحواس ، وحتى يقبح الهدى ، ويجمل الضلال ، ولا كذلك

الراقصة الافرنجية ، فانها تخطف البصر ، ثم تغيب . وقد تتغنى ولكنها تقتصر من الكلمة على حرف واحد ، ومن القصيدة على بيت واحد ، ثم تفر قبل أن تنقع الغليل !!

كيف السبيل إلى اقتناص غرائر　　يدمى بأسهم لحظهـــا القناص
بيض السوالف عذبة أفواهها　　ريا الروادف والبطون خماص
يجرحننا بنواظر ما إن لنـــا　　منهن عند جراحهن قصاص

ولم أجد هذا الفرق البعيد بين الراقصة المصرية والافرنجية إلا فى مرقص عماد الدين ، ففيه تظهر الفوارق بين النزعات الشرقيه والغربية . وكل حزب بما لديهم فرحون !

***

الليـــلة الثانية

أما مرقص مصر الجديدة ـ وياويلتاه من مصر الجديدة ـ فهو خاضع للبدعة الفرنسوية ، لاتكاد الموسيقى تصدح حتى تنتظم العذارى كأسراب الحمائم راقصات شاديات !

من بنات الروم لايكذبنا　　لونها المشرق عن منصبها
فهى حسب العين من نزهتها　　وهى حسب الأذن من مطربها
تشرع الألحاظ فى وجنتها　　فتلاقى الرى فى مشربها

وإذا قامت إلى ملعبها كمهاة الرمل فى ربربها
سألت أعطافها أردافها هل رأت أوطأ من مركبها

وكأن الحسان فى هذا المرقص ، لايستطعن الرقص منفردات وكأن أقدامهن الصغيرة ، لايستطعن حمل أردافهن الوثيرة ! فلكل فتاة فتى يطوق بيمناه خصرها النحيل ، ويسند بيسراه خدها الأسيل ثم يسير بها ضاحكة الثغر ، ناعسة الجفون . وكل فى فلك يسبحون !!

ياليت شعرى وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو أسوان
لأى أمر مراد بالفتى جمعت تلك الفنون فضمتهن أفنان
تجاورت فى غصون لسن من شجر لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتى فى أكمتها نعم وبؤس ، وأفراح وأحزان
ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعفات لهم منهن أقران
مناضلات بنبل لا تقوم له كتائب الترك يزجيهن خاقان
يارب حسانة منهن قد فعلت سوءا وقد تفعل الأسواء حسان
تشكو المحب وتلقى الدهر شاكية
كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

وهذا المرقص ملتقى المحب والمحبوب . وليس العاشق فى حاجة إلى أن يكون كابن المعتز حين يقول :

هل تذكرين وأنت ذاكرة مشى الرسول إليكمو سرا
إن يغفلوا يسرع لحاجته وإذا رأوه أحسن العذرا
فطن يؤدى مايقال له ويزيد بعض حديثنا سحرا

بل يكفى ان يتخذ له سحنة صناعية ، وأن تضع المعشوقة خرقة سوداء على وجهها المشرق الجميل كما يحجب البدر بالسحاب ،أو كما تحجب الشمس بالضباب . ثم يتلاقيان : فلا يعرفهما رقيب ولا يشعر بهما حسيب !!

وربما نظر امرؤ إلى فتاة فاطلع منها على كل مغيب مكنون «إلا الوجه الكريم» فتبعتها نفسه ، وعلق بها فؤاده،وقد تكون أخته وما يدرى !! لأن « أقطاب» هذا المرقص يبدلون خلق الله ، فيلبس الأمرد لحية بيضاء أو زرقاء وتتخذ الفتاة لوجهها من سود البراقع ماتشاء ، وما ضر الفتى والفتاة أن تحجب من وجهيهما آثار الجمال مادام الخصر على الخصر والساق على الساق !

ولو كنت معنا هناك لفزت فوزا عظيما فقد حشرت فى تلك البقعةفنون الملاحة وألوان الفتون. كما تحشر ضروب السحر فى الطرف الغضيض ! وكان (عفريت الليل)يوصينى بوصف تلك الليلة قبل أن تعزب عن البال ! رويدك ياصاح !وكيف تنسى ليلة هى أنموذج لنعيم الجنة دار الخلود ! وهل أنسى أنى ما نظرت أمامى أو عن يمينى أو عن شمالى إلا رأيت الحسن منثورا نثر النجوم الزهراء فى القبة الزرقاء ، أو نثر الزهور البيضاء فى الروضة الغناء ؟

لما مشين بذى الأراك تشابهت أعطاف قضبان به وقدود
فى حلتى حبر وروض فالتقى وشيان وشى ربى ووشى برود
وسفرن فامتلأت عيون راقها وردان ورد جنى وورد خدود

وضحكن فاعترف الأقاحى عن ندى
غض وسلسال الرضاب برود

ولحظة واحدة ، فى تلك الجنة العالية ، تنسيك الدين والأخلاق ويكذب ثم يكذب من يزعم أنه لم يحسد أولئك الذين أنعم الله عليهم فحاصروا من يعشقون على مسمع من الرقيب ومرأى من الحسود !!

ألا ليقل من شاء ماشاء إنما
يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

ولم يكن الحسن فى ذلك المرقص قاصرا على الراقصات . فقد كان الفندق يموج موجا بالرائحات الغاديات

من كل ضاحكة الترائب أرهفت
إرهاف خوط البانة المياس

فاذا مشت تركت بقلبك ضعف ما
بحليها من كثرة الوسواس

وما زلت أحدق عينى فى كل رائحة وغادية حتى تألمت عيناى فكأنما أطالع ذكاء فى كبد السماء ، وكنت كلما بهرتنى الثغور الضواحك وأسرتنى العيون الفواتك ، أفكر فى جناية الجمال ، على عشاق الجمال وعلى أهل الجمال . ثم أفكر فى فضل الجمال ، على أعداء الجمال : ففى العالم مئات الألوف من القسيسين والرهبان والعلماء تصرف عليهم المرتبات لأنهم يقلون الخطب الرنانة فى ذم الجمال ، وأهل الجمال ، وعشاق الجمال !!

مر بخاطرى ذلك وأنا فى فندق هيليوبوليس فعرفت أنه كلما وجدت الرذيلة ، وجد موجب للدعوة إلى الفضيلة ، ووجد الوعاظ

ما يأكلون . ثم استسلمت إلى التفكير العميق !!

والآن فى الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وقد مضى على تلك الليلة ست ليال ، أفكر من جديد فى جناية الجمال ، على عشاق الجمال ، وعلى أهل الجمال ، ثم أطيل التفكير فى فضل الجمال ، على أعداء الجمال !!

تعرض رسل الشوق والركب هاجد
فتوقظنى من بين نوامهم وحدى
وما شرب العشاق إلا بقيتى
ولا وردوا فى الحب إلا على وردى

الازهر الشريف

— ١ —

فى نهاية السكة الجديدة ، من الناحية الشرقية ، على يمين السائر حارة ضيقة توصل إلى مسجد جامع عتيق : هو الأزهر الشريف

لا خلاف بينى وبين أهل مصر ، فى أن هذا هو الأزهر . فقد زاره بعضهم لطلب العلم وزاره آخرون ابتغاء الاستطلاع . ومن لم يره منهم لا يجهل أنه فى هذا الموضع وعلى تلك الحال

ولكنى على يقين من أن الأجانب فى شك منه ، فانهم يسمعون فى بلادهم أن الأزهر أكبر الجامعات الشرقية ، ومن أعظم المساجد

الجامعة الاسلامية،وأنه إن لم يكن أجمل مكان فى الشرق فهو جدير بعناية الأمراء ، ورعاية العظماء ، فلا بد أن يكون قريبا من جامعات برلين ومدارس مونبلييه ، وما إلى ذلك من تلك المعاهد ، التى ورثت عن منشئيه العلم،وتلقت عن مبدعيه البيان

لا يهمنى أصدق الأوربيون أن هذا هو الأزهر إيمانا باغفالنا له وانصرافنا عنه،أم حسبوه مكانا غير هذا المكان ولو فى سماء الخيال ظنا منهم أن المصريين أكرم من أن يهملوا مسجدا جامعا مثل هذا المسجد الجامع وأجل من أن يغفلوا معهدا كهذا المعهد

نعم لا يهمنى ذلك لأنى لاأشك فى أن هذا هو الأزهر الذى نفتخر به ، ونغضب له ، وإن كنا عنه معرضين

تدخل فى هـذا المسجد الجامع فلا يروقك فيه شىء ، أرض منخفضة وسقف غير مرفوع ، وأعمدة قصيرة كاعمدة المقابر ؛ وحيطان قاتمة ، كحيطان الأجداث ، ونوافذ بخيلة بالضوء ضنينة بالهواء ومصابيح ضئيلة ، لا تقتل الظلمة ، ولا تكشف الغمة ، وهو أحوج إلى أكبر منها فى النهار المبصر . فكيف به فى الليل المظلم ! لا فرش له إلا الحصير الممزق والتراب المكدس . والناس فيه ما بين آمل غير واجد ، أو زارع غير حاصد ، لا طمع لهم فى مناصب الحكومة ولا أمل لهم فى إسعاد الأمة ، وقد يئسوا من إنصاف الوزراء وإنجاد الأمـــراء

ثم تراهم لا يصدقون أن لهم شيوخا يعطفون عليهم ، أو رجالا

يرأفون بهم، فهم لايعرفون آباء غير آبائهم، ولاأعماما غير أعمامهم وكذلك ينكرون جميعا قول الشاعر:

أقدم أستاذى على نفس والدى
وإن نالنى من والدى العز والشرف
فذاك مربى الروح والروح جوهر
وهذا مربى الجسم والجسم كالصدف

إنهم لايعرفون هذا الشعر، لأن الشيخ الذى سلف، والشيخ الذى خلف، لم يرفعا عنهم شيئا من الضر، ولم يسوقا إليهم نوعا من الخير، فهم اليوم مثلهم بالأمس، أكثر شقاء وهما، وأكبر عناء وغما، لأنهم يرون الناس فى تقدم ويرون أنفسهم فى تأخر ويرون المدارس يعمها العدل، والأزهر يخصه الظلم، ثم يرون لكل شهادة أثرا فى الحياة وقيمة فى الوجود ويرون شهادتهم ورقة لا كالورق فهى مزينة ولكن بالمواعيد الكاذبة ومزخرفة ولكن بالأيمان الحانثة، حتى كأنها قطعة من معاهدة الصلح لا يضمن لمن أنصفته سلام ولا يرجى لمن نصرته قيام، وكأن مجلس المشيخة هو مجلس الشيوخ، وهم قد شبعوا من المجد الموهوم، والشرف المعدوم فماعادوا يصدقون بأن شهادة الأهلية أو شهادة العالمية حرز من الفقر وأمان من الدهر

ثم هم فكروا طويلا فى انتسابهم إلى الأمة المصرية والسلالة

العربية ، ولولا أن الأجانب يصفو عيشهم على ضفاف النيل ، وفى سفح الأهرام ، لظنوا أنفسهم من الجاليات الأوربية أو الامريكية

وقد بحثوا كذلك فى سبب شقائهم ومصدر بلائهم فلم يهتدوا إلى موجب صحيح أو داع معقول . اللهم إلا حياء ظنه الناس من الجبن ، وحلما حسبوه من الذلة ، وهم لا يستطيعون أن يرجعوا ذلك إلى حبهم للوطن ، وعشقهم للحرية ، وبغضهم للظلم ، فان ذلك مشترك بين عامة الناس وشائع فى كافة الأجناس

فلم يبق إلا أن يكون الأزهر شقيق الهم ، وحليف الغم لا يدخله امرؤ إلا تقوس ظهره ، وتقوض عمره ، ولا يفزع إليه فتى إلا تزعزع كيانه ، وتضعضع بنيانه

وهو بفضل إغفال الحكومة جدير بأن يقتل كل شاب تضمه جدرانه ، ويذهب بكل بصر ينظر فيه صفحة من كتاب ، أو فقرة من خطاب ، وكذلك لن يزال بفضل الشيوخ ، مبعثا لظلم العواطف ، وقتل المشاعر ، يقرأون فيه العلم ، فيتعرفون به الظلم ويتدارسون فيه أخبار الأسلاف ، فيئنون من جور الأخلاف

كانت مدة الدراسة فى الأزهر الذى وصفناه اثنى عشر عاما فرأت المشيخة أنها لا تكفى لتضييع العمر ، وتقويس الظهر ، فزادتها أعواما ثلاثة ، فصارت خمسة عشر

من هذا يشكو إخواننا طلبة الأقسام النظامية ، في المعاهد الدينية ، وقد رأت لجنتنا الجديدة ، أن لا تنام لها عين ، ولا يهدأ لها

قلب حتى ترجع المشيخة عن هذا القرار الظالم ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه

— ٢ —

إن طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة : فهم فى سنى الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة ، والدروس المتعددة ثم إذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل والهم الجزيل دخلوا فى حياة لا حظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر ، فى ميدان كله رماح طوال ، وسيوف صقال ... وهل بعد ذبول الأغصان ، وكلال الأجفان ، وتقوس الظهر ، وتقوض العمر ، غرض يرجى نواله ، أو هم يبتغى زواله !

هؤلاء هم الأزهريون الذين كانوا يملاؤن البلاد علما وحكمة لو أتيح لهم التغلب على مصاعب النظام القديم والحديث . هؤلاء هم الأزهريون الذين كانوا مادة الحياة العلمية فى عصر الظلمات ، وهم أصل النور فى هذا العهد الجديد ، هؤلاء الأزهريون ينادون بملء أفواههم : أن خذوا بيدنا أيها القائمون بالأمر ، فلا يستمع لهم أحد ! ولكن أيغلب اليأس الرجاء ، ويغدو الأمل صريع القنوط ؟ إن هذا لبعيد .

*

— ٣ —

نقول الآن — وسنظل على هذا الرأى حتى حين — إن النبوغ الذى امتاز به بعض الأزهريين فى الزمن القديم أو الحديث ، ليس أثراً من آثار الادارة التى تولاها زعماؤه الأقدمون أو المحدثون ، ولكنه أثر من آثار الذكاء الذى انفرد به بعض الشبان الذين هيأت لهم ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية ، وأن يشاركوا جمهور المبدعين فى العلم والأدب ، وأن يتركوا لأنفسهم أثراً يذكرون به فى العالمين .

فان كنت فى شك من صواب هذا الرأى؛ فاقرأ إن شئت تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده ، وانظر كيف تأثر بالتعاليم الحديثة حتى صار علماً يهتدى به ، أو احضر دروس الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى لترى كيف استعان الفلسفة الحديثة ، لفهم الفلسفة القديمة ، أو خالط النابغين من علماء الأزهر الآن ، فانك لن ترى نبوغهم مصبوغا بصبغة العلوم التى يتلقونها فى ذلك المعهد القديم ، بل تراه مطبوعا بطابع الزمن الذى يعيشون فيه ، والذى كان يجب أن يكون التعليم فى الأزهر مصبوغا به، ومطبوعا عليه ، لو وجد هذا المعهد من يعنى به من زعماء الاصلاح

فى الأزهر الآن جماعة من عشاق النهوض ، تراهم إذا زرته

الجامعة المصرية ،أو مدرسة الأزهر الفرنسوية ، تراهم فلا تشعر بغير الاعجاب بهم والاعظام لهم ، ولكنك تشعر بعد ذلك بكثير من الألم الممزوج بالاشفاق؛إذا قيل لك إن هؤلاء قد يحسبهم زملاؤهم وأشياخهم غير مهتدين !!

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر   لنفسى تقاها أوعليها فجورها

هؤلاء الشواذ — فيما يرى بعض الشيوخ — هم زينة الأزهر فى القديم والحديث ، وهم الذين اضطروا القائمين بالأمر فى المعاهد الدينية إلى ان يتأملوا قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه « علموا أبناءكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وهم الذين تذهب نفسهم حسرات كلما رأوا وقوف الأزهر عند مبدئه العهيد ، وشهدوا الزمن يمشى بأهله إلى ذرى المجد الشامخ - الا إن التقدم حركة ، فويل للواقفين !

كل مافى الأزهر من علم وكل مافيه من أدب ، إنما هو من آثار الذكاء الذى قبره الزمن فى تلك البقعة المحجوبة عن النور والضياء وليس لتلك الادارة المهدمة الجوانب غير ما نراه من عموم الجمود وشمول الخمود ! فمتى يبعث الله لهذا البيت العتيق من يأخذ بيده من تلك الهوة التى تردى فيها بفضل ما لأبنائه من عقوق ؟ ومتى يتحقق الأمل فى عشرين ألفا من الرجال ، قضى عليهم الجد العاثر والنجم الآفل ، أن يكونوا وقوداً للهيب الهمجية ؟

اللهم غفراً !! يزهر العلم فى كل بلد ، ويتقدم أهله فى كل قطر

ويكون حظ الأزهر من بين جامعات العالم كحظ مصر من بين الأمم . ثم يعيش الأزهريون عيشة النائمين : لاهم أحياء فينتفعوا بما فى الكون من مظاهر الحياة ، ولا هم أموات فيحظوا بما بعد الموت من نعيم !

تلك آمالنا قضى عليها الاهمال ، وهذى آلامنا يضاعفها إصرار (المصلحين) على دفننا أحياء في تربة اليأس القاتل ، ولكنا سندفنهم بحول الله فيما ندفن من بقايا الخمول ! فهل أدلكم على سبيل النجاة أيها الرفاق المتألمون ؟

عليكم بالنظر فى كتب المتقدمين من الشرقيين ، والمتأخرين من الغربيين ، ثم اتركوا الحثالة التى جاءت بين هذين العهدين لحضرات الزاهدين فى التجديد ، إنكم إن فعلتم ذلك ظهرتم عليهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

— ٤ —

لقد آن للأمة المصرية أن تنظر فى نظام الأزهر ، وحياة الأزهريين فانه لم يبق شىء من خرافات العصر المنصرم ، يوم كان الناس يظنون أن الأزهر باب الرحمة ، ويوم كانوا يحسبون أن الجلوس فى حلقات العلم ضمان من الفقر وأمان من النار ، ويوم كان العامة ينسبون لشيخ الجامع حركات الأفلاك ونظام الكواكب كل ذلك قد تبدل ، وأصبح الناس أمام أمر واقع ؛ وهو أن الأزهر

معهد علمى يجب أن ينال من الأنظمة النافعة ما يضمن له البقاء والثبات
جالس من شئت من العلماء ، وحادث من أردت من الطلاب فلن تجد غير اليأس القاتل ، والهم الشامل ، ولن ترى لهم من أمل فى غير الحياة الثانية وهم الذين خلقوا ليكونوا زينة الآخرة والأولى

هل تتفضل المشيخة الجليلة فترينا قائمة الأعمال التى أصلحت بها نظام الأزهر فى العهد الأخير ؟ وهل يتفضل القائمون بالأمر فيفصحوا لنا عن نياتهم فى الاصلاح المنشود ؟ وهل هم جماعة منهم بدرس نظام الجامعات حتى يعرفوا ما هم عليه ، وما يحتاجون اليه ؟ وهل راقبوا الله فى النفوس التى قضى عليها أن تكون تحت إدارتهم ؟ وهل فكروا فى نتائج التهاون الذى يرتعون فى أرجائه الفسيحة ؟ ثم هل آن لهم أن يعرفوا أن الأزهر إنما أنشىء ليكون مصدراً للسعادة لا منبعاً للشقاء ؟ !

أيروقكم أن نحسبكم مشغولين بما أسبغ الله عليكم من النعمة كما يتحدث بذلك من يتأمل فى حاضر الأزهر وماضيه ؟ فهل أنتم ناظرون فيما منى به هذا المعهد من التأخر والانحطاط ؟ وهل تبيض وجوهكم أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ بما تعتزمون المضى فيه من إلحاق الأزهر بالجامعات التى سامته فيما سلف حتى سمت عليه ؟ وهل نجد فى المستقبل الباسم ، ما ننسى به هذا الحاضر العابس ؟

لقد طفح الكيل ، وأغرقت الأمانى فى بحور اليأس ، وأصبح

الأزهريون وكأنهم من أمة غير هذه الأمة ، وقطر غير هذا القطر وإلا فلماذا يحرمون وحدهم مما يتمتع به غيرهم من الأمل الضاحك والعيش النافع ؟

هذه كلمات نكتبها ونحن آسفون ، وكنا نود لو أن شيوخنا أغنونا عن التفكير فى غير العلم ، ولكنهم أرادوا ألا نقرأ صحيفة فى كتاب إلا ونحن محزونون ، وأن لا نخط سطراً فى صحيفة إلا ونحن متألمون !

فيارب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول

— ٥ —

رغب المسيو فرناند فور الأستاذ بجامعة باريس ورئيس الجماعة التى استقدمت لامتحان الحقوق الفرنسوية بمصر أن يزور الأزهر الشريف فسألنى حضرة أستاذى المسيو بابانى المحامى ان أرافقه فى هذه الزيارةفقبلتذلك ، واقترحت تأخير الزيارة أسبوعا حتى يعود الطلبة إلى الدروس وكانوا إذ ذاك فى مسامحة المولدالنبوىوحددنا للزيارة يوم ٢٧ نوفمبرسنة ١٩٢٠ فى اليوم الثانىمن عودةالدراسة وكنت أظن أن الدروس إن لم تكن تكاملت فى اليوم الأول فلا بد أن تتكامل فى اليوم الثانى ولكن خاب هذا الأمل وتبين أن الأزهر لا يزال مطلق العنان وأن الطلبة إلى الكسل مخلدون !

دخلنا الأزهر بعد الظهر ، ثم مشينا معا بعدأن تبودلتالتحيات

بين القـادمين والمستقبلين . وكـنت عـزمت أن أتأمـل نـظرات هؤلاء الزائرين لهذا البيت العتيق عساني أعرف ما نحن عليه ، وما نحن فى حاجة إليه ، ولـكنى لم أمش بضع خطوات حتى خيل إلى أن هذا المعهد بقية من بقايا العصور الذواهب ، وأنه يجب على أن أفهم هؤلاء الناس أن الجامع الذى يجوسون خلاله ليس معهدا للعلم ولا مسجدا للصلاة ، ولـكنه طرفة عادية (أنتيكة) يؤمها المتشوفون لآثار الزمان الغابر !

وما ظنك أيها القارىء بمسجد ليس فيه من الحـصير مـا يقى الجالسين عنت الرطوبة التى تـكمن فى مثل هذا المكان الذى ينخفض عن الشارع مترين فى بعض نواحيه ؟ وماذا عسى أن أجيب به هؤلاء الزائرين إذا قال قائلهم : ما بال طلبة العلم عندكم يجلسون على الحجر العارى من الغطاء ؟ وكـيف أصبر على نـظراتهم إلى الـطلبة الذين يتململون من قسوة المكان الذى يجلسون فيه ساعات وهو قاتل ؟

وكم تمنيت وقتئذ لو أن أعضاء المجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية حضروا هذه الزيارة الجميلة ، ليشرحوا لهؤلاء الأجانب السبب فى جعل الأزهر مقبرة لطائفة كبيرة من الطلاب ! ولعل منهم من درس فى الجامعات الأوربية أو الامريـكية ، ورأى فى أبهـة تلك الجامعات ما يصرف الطلبة عن العلم الصحيح ؛ فيبين للزائرين فضل الخشونة على العـلم ، ويـكشف الغطاء عن الصلة بين الظلمة التى تغشى جوانب الأزهر ، وبين نور العلم الذى يهديه للناس !!

هاتوا شبابى أيها الرؤساء ، فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء !
هاتوا أملى فقد ذوت أغصانه فى ذلك البيت العتيق !

كانت هذه الخطرات تمرح فى ثنيات نفسى وأنا أصحب أولئك الزائرين ، وكنت كلما غلب على الخجل لبعض دلائل الاهمال ، أرفع بصرى إليهم وأقول بصوت خافت : « لقد فكر أولو الأمر فى إصلاح الأزهر وسيفرشونه بالأبسطة الفارسية بعد حين ! » غير أن هؤلاء الفرنسويين على جانب عظيم من أدب الخطاب فكانوا يقولون : « إن التجهم الذى يستقبل به الأزهر زائريه قطعة من جماله ، لأنه يمثل عهدا من عهود التاريخ »

مرحى مرحى ! يسركم منظر الأزهر لأنكم ترون فيه مظهرا من مظاهر الحضارة القديمة . وما يضيركم لو أصبح الشرق كله رواية تاريخية تقرؤون حديثها فى كتب الغرب ، وتنظرون أشخاصها في مصر وفى فارس !!

— ٦ —

وإن تعجب فعجب قول بعض الأزهريين : اجتهد فى أن تفهمهم أن الازهر أقدم جامعة علمية . ألا فلتطمئنوا — من هذه الناحية — فقد أفهمتهم أن الحضارة الشرقية أصل للحضارة الغربية ، وأن الأزهر مصدر العلم الذى ينعمون به الآن . . ولكن هل أستطيع أن أقول

لهم إن نظام الأزهر خير من نظام السوربون ، وإن الحصير الممزق الذى يجلس عليه الطلبة هنا خير من الأرائك التى تتكئون عليها هناك ، وأن الأحجار المنثورة حول الأزهر يتعثر فيها الطلبة فى الغدو والرواح ، أجمل من الحدائق المحدقة بالسوربون يشم شذاها الطلبة في الضحى والأصيل ، وإن الكتب المملوءة بالاغلاط والتى ترد البصر وهو حسير ، أنفع من الكتب الممتعة النفيسة التى يقرؤها الفرنسيون ، وهل أستطيع أن أقول : إن جامعة الأزهر فى بؤسها الفتاك ، خير من جامعة باريس فى نعيمها المرموق ! ؟

حقا إن فينا من يقنع من المجد بالطلل الدارس ، والرسم الطامس ، وفينا من يرضى باللفظ وإن باد معناه ، ويقنع بالاسم وإن ضاع مسماه ! فيارحمة الله لهذه الأمة الآفلة النجم العازبة الحلم ! !

— ٧ —

مشينا ننظر ذات اليمين وذات الشمال ، لنتبين فى وجوه الطلاب دلائل الجد والنشاط ، وأنا أعلم أنه ليس للطالب الأزهرى مثيل فى صبره على أعباء الحياة العلمية ، وكذلك راقنا منظر أولئك الجادين فى البحث والتنقيب ، وسرنى أن ليس لهؤلاء الفرنسويين معرفة باللغة العربية ، حتى لا يصح لديهم أن الكتب التى بأيدى الطلاب تماثل ما فى شكل الأزهر من الغلظة والجفاء !

ولقد بدا لنا أن نزور دار الكتب الأزهرية ، وكانت الساعة لم تصل إلى النصف بعد الظهر ، ففوجئنا بأن المكتبة أغلقت ، وأن لا سبيل إلى زيارتها إلا فى ضحى الغد ، فأخذت أفكر فى أمر هذه المكتبة التى لا يتمتع بها أحد من الناس ، والتى تشبه دار الآثار فى أن لا حظ لأحد منها إلا أن ينظر ما اشتملت عليه بدون أن تناله يمناه ، أستغفر الله ! بل تشبه الرسوم الدوارس ، ليس للمرء من حظ إلا أن يعرج عليها فى الغدو والرواح

— ٨ —

عدنا فى اليوم الثانى مبكرين لزيارة المكتبة الأزهرية . فدخل الزائرون وهم يتحرقون شوقا إلى الوقوف على حركة التأليف عند العلماء ، وأخذوا يسألون عن الكتب القديمة والمؤلفات الحديثة . فقلنا لهم : إن هذه المصنفات يغلب عليها القدم إلا بعضاً منها مثل كتاب التوحيد للاستاذ الشيخ حسين والى ، ولكن الأزهريين لا يعرفون شيئاً عنه لأنه فى رأيهم قد خلص المسائل العلمية من المناقشات اللفظية ، وهم لا يزالون مضطرين إلى طرائق البحث القديمة ليجتازوا الامتحان !

وهنا أكل إليك أيها القارىء وصف ما يجده مثلى من الخجل فى مثل هذا الموقف فقد تعرف أن الفرنسويين يعدون الكتاب

قديما إذا مرت عليه ست سنوات ، وهم لا يرضون عن العالم إلا إذا ترك ثروة علمية ، فأما علماء الأزهر فقلما يعنون بالتأليف ، وكذلك كانت المكتبة خالية من كل ما يصل بين الماضى والحاضر !

— ٩ —

كنت رأيت أن لا أتم وصف زيارة أولئك الفرنسويين للازهر الشريف مجاراة لمن يرون فى هذا الوصف خروجا على الأدب ومروقا من الوفاء ، لولا أن لقينى بعض العلماء وشرح لى مافى التغاضى عن النقد من الفساد العاجل، والكساد الآجل ، ورغب فى أن أذكر هذه الزيارة بالتفصيل ، وأنا أذكر هنا ملاحظة واحدة وأعتذر عن البقية ؛ فان النفوس لم تتهيأ بعد لأن تتقبل كل ماينفع وتتجنب كل ما يضر . وخذ من جذع ما أعطاك !

كان هؤلاء الناس يسألون برفق عما لم يهتدوا إلى فهم معناه ، ولقد تعرف أن كل مافى الأزهر يستوقف النظر حتى كأنه كتلة من ألغاز الحياة لايفهمها إلا من كتب عليه أن يكون جزءاً متصلا بهذه الجماعة التى تتكون منها مجموعة الشقاء ، وكذلك كنت أعرف مواقع الألم من نفوس الأزهريين ، ومواضع العجب من أفكار الفرنسويين ، لأن التنافر ظاهر بين معاهد العلم هنا وهناك ، ولأنى أعرف الفرق بين حياتين تتفجر من إحداهما ينابيع الأمل الباسم

والعيش الوادع ، وتثور من أخراهما براكين اليأس والقنوط ! !

ما مررنا بدرس من تلك الدروس إلا وجدنا من بين الطلبة من هجم على رأسه الشيب ، وأنقض ظهره التقوس ، وآذن نجم شبابه بالأفول . ويكاد المسيو فور يتبين بيده مارأت عيناه ثم يقبل على ويقول :

أصحيح ما أرى من أن ثلث الأزهريين فارقوا سواد الشباب ؟ وهل تجدب أرض العلم عندكم حتى يشيب المرء وهو ينتظر الازهار والاثمار ؟ ومتى يخلص هؤلاء من التحصيل ، حتى يفرغوا لتعليم الجهـال ؟

كان يقدم إلى هذه الأسئله وهو يبتسم ، فبدا لى أن أنشده قول ابن الرومى :

شاب رأسى ولات حين مشيب وعجيب الزمان غـــير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبا أن يرى النور فى القضيب الرطيب

فأخذ يحاورنى ويقول : إنى لا أشك فى أن فيهم من جاوز السبعين ، فأقسمت بالله جهد يمينى أنهم شباب ، وأن نظام الأزهر هو الذى عجل لهم المشيب ! ثم هممت أن أذكر له الحديث « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » ولـكنى لم أشأ أن أدله على أن نظام الأزهر مما يرضى عنه الله ورسوله ، وإلا كنت من الخاطئين !

*

اطفال بوهيميون

البوهيمية كلمة أجنبية ألفها الناس منذ سنين ، وهى بالعربية «الصعلكة» والبوهيميون هم الصعاليك ، وحياة «البوهيمية» حياة تطيب لبعض المخلوقات، ويألفها هواتها إلفا شديدا لأنها تريحهم من أثقال الشرف وأعباء التقاليد . وحياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطال

أكتب هذا وقد قرأت من أيام خبرا صغيرا ، ولكنه مزعج ويتلخص فى أن طفلا غاب عن أهله أسابيع ثم عثر عليه البوليس بين الاطفال الذين يجمعون أعقاب السجاير من الطرقات ، ولما سئل أهله أجابوا بأنه كان يعيش عيشة الرغد ، ولكنه هام بالصعلكة حين اتصل بغلمان الشوارع

وهذا أيضا خبر صغير يقرؤه المرء ثم ينساه بعد لحظة ولكن المشغوفين بالدراسات النفسية يقفون عنده وقفة طويلة لينظروا كيف يقبل الطفل أن يهجر حياة الرغد ليحيا حياة التشرد ، وليروا كيف يجب أن يساس الأطفال سياسة حازمة ، وكيف يتحتم حرمانهم من الاتصال بمن ألفوا البطالة والفراغ

إن المدنية الحاضرة مدنية مصنوعة إذا قيست بأصل الفطرة

الحيوانية ، والانسان فى الأصل حيوان متشرد لا يفكر فى المأوى إلا إذا جن الليل ، فحياة النظام طارئة عليه ، ولكنها صارت على الزمن حياة طبيعية يهلك من ينحرف عنها قيد شعرة ، فكل إنسان يجد فى فطرته ميلا غريزيا إلى الحياة الخالية من التكاليف ، وهذا هو السر فى أن الداعرين والفاسقين يرون أنفسهم أسعد الناس ، ومثلهم فى ذلك مثل الطائر المحبوس حين يخرج من القفص ، والفرق بينهم وبين مصير الطائر الطليق أن الطائر يجد جواً حراً كل الحرية أما الفاسق فيتحرر من قيود التقاليد ليقع بعد لحظات فى مخالب القانون . والقانون بدعة إنسانية ، ولكن الخروج عليه صار من المستحيلات ، وأصبح الخلاص من أخطار الوحشية الأولى وقفا على طاعة ما ابتدع الانسان من القوانين

ومن هذا التعليل نفهم كيف يهرب الطفل من حياة الرغد فى بيت منظم ليتصعلك ويتشرد بين «السعداء» من المتشردين والصعاليك غير أن هذا الطفل لا يفهم أنه يتعرض لغضب القوانين الوضعية التى وضعتها الحكومات وأقرها الناس من مختلف الأجناس ، وصار الخروج عليها خروجا على أسباب السعادة الانسانية فى عهود المدنية فهو ينعم أياما بحريته ليظل طول الحياة ذليلا مهينا لا يقام له وزن بين الأحياء

والآباء مسئولون عن هذا المصير المحزن إن تهاونوا وتسامحوا فى رياضة أبنائهم على حياة المدنية ، حياة القيود والتقاليد ، فالانسان

حين اشترى طمأنينته الانسانية قدم فى ثمنها حريته الحيوانية ، والمغبون هو من يثور على التقاليد فى كل وقت بحجة أنها قيود صناعية ما أنزلت بها الطبيعة من سلطان . ومن حق الانسان أن يتفلسف ولكن على شريطة أن لا يعرض نفسه وأهله للشقاء

وهذه الصعلكة التى يهيم بها الأطفال هى أيضاً مما يغرم به الرجال ، وأكاد أعتقد أن الآباء هم الذين يحببون إلى أبنائهم هذه « البوهيمية » الحمقاء ، فمن العسير فى هذه الأيام أن تجد رجلا فى بيته حين يجن الليل . ومن الذى يعمر دور الملاهى والملاعب والمفاسق والمعابث ، إن عرف الرجال أن للبيت حرمات ، وأن له واجبات ، وأن من العقل أن يفكر الرجل فى إيناس أهله قبل أن يفكر فى إيناس أخدان المشارب والقهوات ؟ !

إلق من شئت من أصدقائك وأظهر له شوقك فسيسألك دائما هذا السؤال :

« أين تسهر لنراك »

ومن النادر أن يسأل صديق عن عنوان بيتك لأن أهل هذا الزمان لا يتزاورون فى البيوت ، وتكون النتيجة أن تخلى أطفالك فى البيت وتخرج ، فيتوهموا أنك وحدك السعيد وهم الأشقياء . وحينئذ يزهد الطفل فى ألعابه ، وينصرف التلميذ عن دروسه ، ويهمون جميعا بالخروج ، وإلى أين يخرجون ؟ إلى السنما ؟ إلى المسرح ؟

إلى المرقص ؟ إلى أين ؟ أجبنى ، فليس فى هذه الموارد كلها ما يوجه الطفل والتلميذ واليافع والمراهق إلى حياة الشرف والصيانة والعفاف

أعرفت الآن أن الآباء هم الذين يوحون إلى أبنائهم حب «البوهيمية» ويزهدونهم فى حياة الطهر والصون ؟ أعرفت أن حياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطال؟

ولكن كيف نروض أبناءنا على بغض حياة الصعاليك ؟ السبيل إلى ذلك أن نخلق لهم نماذج من المثل العليا فى الحياة ، وأن نوجههم منذ الصغر إلى التشبه بكرام الرجال ، وأن نجعل لهم من الفضيلة مواطن للشغف واللهو ، ففى الفضيلة مغريات لا تقاس إليها مغريات الرذيلة حين يحسن التوجيه وخلق أسباب التعلق بعزائم الأمور . وهل فى الدنيا لهو ألذ وأمتع من أن يقوم الطفل بمسابقة أقرانه والتفوق عليهم والظهور بمظهر النبل والرجولة والعظمة فى القول والفعل !

يسأل عن ذلك الأم أولا ، والأب ثانيا ، والمدرس ثالثا

والحكومة ؟ أنا لا أسأل الحكومة شيئا. لأن أولى الأمر ناس أمثالنا وقد يسعدون فى الدواوين وهم فى بيوتهم أشقياء ، والحكومات فى كل الأمم آخر من يسأل عن الاصلاح ، لأن الشعوب هى التى تسأل عن أصول الأخلاق ، والحاكم لا يرشدك ولكنه يربيك . فهو يغبطك حين تسعد ، ثم يمد يده إلى السوط حين تنحرف عن

طريق الصواب

وأعود فأقول مرة ثالثة : إن حياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطـال

٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣

ذكريات طالب اشترك فى الثورة

يوم البعث

١ — لا تذكر يوما بعينه من شهر مارس سنة ١٩١٩ فان الناس لا يذكـرون ذلك اليوم إلا تمثلت لهم أطياف وأشباح من أثير الذكريات ، ولا تذكـر شهيدا بعينه من شهداء الحركـة الوطنية فقد درجت الأيام وكـرت السنون ، ونسى الذاكـرون مئات من الشهداء ، واذكـر فقط أن ذلك اليوم كان يوم البعث ، وأنه كان بداية اليقظة العقلية والسياسية والأدبية فى بلاد طال عهدها بعيش الخمود فى ظل الاحتلال

٢ — كـنت من خطباء الثورة المصرية فاكتويت بنارها ، وشهدت آلام التشريد والاعتقال شهورا طوالا ، ومع هذا فما تمثلت تلك الأيام إلا بدت لى بعيدة جدا ، كأنما ألقى بها القدر فى واد من

النسيان سحيق . ويطيب لى أن أذكر أن عهد الثورة سبقته عهود من الضجر والتوثب لمطالعة عهد جديد ، فقد كنا فى أخريات أيام الحرب نتطلع إلى الخلاص من الآصار الثقال التى أرهقتنا بها مظالم السلطة العسكرية ، وكنا نقرأ فى كتب السير والأخبار والتواريخ ونراجع من آثار الماضى والحاضر ما نتمثل به حالنا فى العالمين ، وأذكر أنى كنت طالبا فى الجامعة المصرية ، وكان لنا أستاذ مولع بتشويقنا إلى أعلام المجد هو الأستاذ أحمد صالح الذى كان يدرس لنا تاريخ البابليين والأشوريين ، ومن غرائب ما وقع أنه كان يحدثنا بأن الفراعنة كانت لهم مطامع فى تلك البلاد ، وأن من الخير أن نعرف ماضيها وحاضرها ، ونتعرف إلى مواردها الغنية عسانا نجدد العهد برياضها وغياضها ، فنصل بالسعى والجد ما قطعت صروف الزمان ، وكانت تلك الآراء الطريفة تبدو فى صورة الأحلام ، لأن انجلترا كانت أخمدت أنفاسنا ، وزهدتنا فى المجد الطريف والتليد . فلم يبق لدينا مانحلم به لاقامة أعلام الملك فى أرض العراق ، وفى تلك الأيام صحبنا الأستاذ أحمد صالح لزيارة الاهرام فوقف الرجل يتكلم بحماسة وطنية ، فتقدمت وألقيت خطبة أدعو بها إلى تجديد ما درس من مجد الآباء ، وكان ذلك كله يمر فى أودية من اليأس ، لا تتطلع النفس فيها إلى نبت من الأمل جديد .

٣ — كان المرحوم علوى باشا مراقبا للجامعة المصرية ، وكان منصب المراقب العام يساوى منصب المدير ، ثم توفى رحمه الله فى

أوائل سنة ١٩١٨ (إن لم تخن الذاكرة) فدعانى سكرتير الجامعة
إلى إلقاء كلمة التأبين باسم طلبة الجامعة المصرية ، ولما شيعنا المرحوم
إلى قبره وقمت لالقاء الخطبة رأيت بين كبار القوم رجلا كبير
الهامة ، مديد القامة ، رزين الملامح تنطق معارف وجهه بأن اسمه
سعـــد زغلول ، وما هى إلا أيام حتى اجتمع مجلس إدارة الجامعة
المصرية فاختار سعد باشا زغلول مراقبا عاما ، فى المنصب الذى
خلا بوفاة علوى باشا ، وأخذنا نشاهد ســعد باشا يوميا فى دار
الجامعة واستبشرنا بقدومه ورجونا أن تدخل الجامعة بفضل
نشاطه ومركزه فى دور من أدوار الجد والاقبال ، ثم جاء العام
الدراسى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ فحضر سعد باشا وألقى علينا خطبة
نفيسة قدم بها الدكتور احمد ضيف ، وحدثنا بأنه لاموجب للقلق
على مصير الجامعة ، لأنها أنشئت بارادة الأمة وأموال الأمة ،
والأمة التى أنشأت الجامعة لا تزال قوية الجانب ماضية العزيمة ،
لا يعتورها ضعف ولا يتطرق إليها قنوط .. ولكننا أخذنا نلاحظ
بعد ئذ أن سعد باشا شغل عن عمله بالجامعة وما عدنا نراه يوميا
كما كنا نراه ، وخفنا أن تكون نبوءة (الصاحبين) صحت فيــه ،
والصاحبان هما منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق وكانا يكتبان
بهذا الامضاء فى صحيفة السفور ، واتفق لهما أن كتبا كلمة يوم عين
سعد باشا مراقبا عاما للجامعة فذكراه باليوم الذى كان تولى فيه
إدارة الجامعة ثم تولى وزارة المعارف ، ورجواه أن يبقى للجامعة

هذه المرة فلا يخليها إلى منصب الوزارة . . . أخذنا نتهامس ونتساءل عن الأسباب التى يتغيب من أجلها سعد باشا ، فأخبرنا أحد الاساتذة أن سعد باشا مشغول بتأليف الوفد ، وكانت أول مرة سمعت فيها اسم الوفد ، وعلمت من أخباره بعض التفاصيل ، وبعد أيام ذهبت لزيارة قريبى الأستاذ محمود الجبالى ، و كان يومئذ موظفا بالجمعية التشريعية فرأيت عنده أوراقا كثيرة وصلت إليه بطريقة سرية عن أعمال الوفد وفيها احتجاجات موجهة إلى مؤتمر الصلح بتوقيع «الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية سعد زغلول»

٤ — وفى تلك الأيام ـ أواخر سنة ١٨ ـ كان من البدع المحمودة أن يتهادى الطلبة احتجاجات الوفد المصرى وتقرير الحزب الوطنى ، و كانت أشياء نادرة يتلقاها الناس فى همس ، لأن السلطة العسكرية كانت فى تلك الأيام ذكية القلب ، مرهفة السمع. وأذكر أن المرحوم إسماعيل بك رأفت دعانى إلى مكتبه بالجامعة المصرية وأوصانى أن أحصل له من أحد إخوانى على نسخة من استقالة رشدى باشا وكانت تلك الاستقالة تعد يومئذ شيئا عجيبا ، وكان رشدى باشا يعد جريئا فى استقالته ، وكان الناس يرون فيه إماما من أئمة الشهامة والوطنية ، وفى تلك الأيام نفسها أذاع المرحوم أمين بك الرافعى تقريرا عن مصير الحزب الوطنى ، مهدبه لانضمامه إلى الوفد المصرى ، وكان ذلك التقرير مما يتهاداه الطلبة بين راض وساخط وكانت تلك الأوراق والتقريرات والاستقالات مما يقرأ

بشهية عجيبة ، ويتقبله الجمهور بأحسن القبول ، وكان الطالب الذى لا يعرف شيئا من أمر تلك المنشورات يعد من المتخلفين .

٥ — كان تأليف الوفد المصرى بداية عهد لايقاظ العواطف الوطنية ، ومن دلائل ذلك أن السلطة العسكرية كانت منعت الناس طوال أعوام الحرب من زيارة قبر مصطفى كامل ، فلما كان يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٩ هاج الناس وذهبوا إلى قبر مصطفى كامل وذهبت مع فريق من الطلبة ورأيت المرحوم الشيخ أحمد ندى يقرأ القرآن والناس يستمعون فى صمت ورهبة ، وخطب يومئذ المرحوم على فهمى كامل بك فناقش مبادئ الوفد المصرى ، وكانت تلك المناقشة تقع من أذهان الطلبة موقعا غريبا ، لأن الجمهور كان لا يحب أن يرى فى تلك الآونة أى مظهر من مظاهر الخلاف ، ولما انصرفنا تجمهرنا فى حى المنشية ، وهتفنا بحياة الحرية والاستقلال ، وقبضت السلطة العسكرية فى ذلك المساء على عدد كبير من الطلبة فقضوا فى السجن أياما وأسابيع ، وذلك فيما أذكر أول عهد الطلبة بعد الحرب بالسجن والاعتقال .

٦ — كانت الشهور الأخيرة من سنة ١٨ والشهور الأولى من سنة ١٩ تفيض بدلائل اليقظة الوطنية ، وكان الناس يتحدثون فى المدارس والأندية والمتاجر عن مصير الأمانى المصرية بين أمانى الشعوب ، وظهر ذلك الشعور بقوة فى أنفس الطلبة ؛ وأعرف طالبا قدم كتابا للطبع اسمه « حب ابن أبى ربيعة وشعره »

فوضع فى الصفحة الأولى مانصه :

« إلى مصر »

أداراً بها عيش الحليم يطيب ويكرم فيها المرء وهو غريب
وقيت الردى لاتعرفى اليأس خطة فما كل يوم ذو الرجاء يخيب
فان كنت قبل اليوم لم تبلغى المنى فان غدا للناظرين قريب

ووضع تحت صورته الأبيات الآتية :

لم يغد رسمى ضئيلا كالبدر عند المحاق
إلا لأن الليالى وما لها من خلاق
صيرتنى فى بلادى غضنفرا فى وثاق

٧ — ومن الظواهر البارزة التى شغلت الطلبة فى ذلك العهد إمضاء توكيلات الوفد المصرى فقد كنا نأخذها لامضائها من أهلينا وذوى قرابتنا وأصدقائنا ، وذهبت يوما مع أحد الأصدقاء لنأخذ توكيلات جديدة من سكرتيرية الوفد فأخبرنا الأستاذ محمد بدر بأن النية انصرفت عن ذلك مؤقتا حتى لا تسارع السلطة العسكرية فتبطش بالوفد وتبدد نظامه ، وكانت تقابل حركة الوفد حركة أخرى يقوم بها الحزب الوطنى ولكنى أذكر أن صداها كان ضعيفا فى أنفس الطلبة ولم تظهر هذه المقاومة فى تنظيم المبادىء إلا بعد أن جاء المرحوم عبد اللطيف بك الصوفانى وأقام ناديه فى منزله وأخذ يتصل بطلائع الحركة الوطنية

٨ — ثم نفخ فى الصور يوم اعتقلت السلطة العسكرية سعد باشا

ورفاقه وأرسلتهم إلى مالطة . فهبت أعاصير الثورة بصورة لم نشهد لها مثيلا ،وفى أيام معدودات وقعت فى مصر الأعاجيب : فعطلت المواصلات ، وأضرب الموظفون ،ونظمت الخطابة فى المساجد والكنائس .وكان للاسكندرية ، وطنطا ، والمنيا ، واسيوط مقام فى الثورة كاد يغطى على حركة القاهرة من حيث القوة والعنف

٩ — ومما أذكره ولن أنساه أننا كنا نحدث الناس فى الازهر عن أخبار الأقاليم ، فجاءت الأخبار يوما بأن المنيا ثارت وأعلنت الاستقلال ، وكان لى هناك قريب عزيز هو المرحوم محمد بك حمدى وكيل مديرية المنيا فاعتقلته السلطة العسكرية مع سعادة يونس باشا صالح رئيس نيابة المنيا حينذاك ، ورأت السلطة العسكرية يومئذ أن وكيل المديرية ساعد الثورة وأيد العصيان وإعلان الاستقلال ، وضعفت أعصاب المرحوم حمدى بك فانتحر فى المعتقل وكان انتحاره فى أيام عيد ، فقضينا فى الريف عيداً مراً لاتزال ذكراه تمض القلوب

١٠ — وكان لمدينة أسيوط شهداء ، فقد قامت فيها الحرب بالفعل بين الاهالى وبين الجنود الذين سخرتهم السلطة العسكرية وقضت تلك المدينة أسابيع تحت الأحكام العرفية ، وظلت فيها المحاكمات مدة طويلة ، وكنا نفصل أنباءها فى الأزهر كل مساء

١١ — شهداء الثورة المصرية عديدون ، ولكن أول شهيد شيعت جنازته فى مظاهرة وطنية هو المرحوم ماهر افندى ، وإنى

لأذكر الآن أننا ذهبنا إلى الأزهر لاقامة مظاهرة ، وذهبت كل مدرسة ومعها علمها الخاص ، ووقفنا صفوفا أمام الازهر نخطب ونهتف ، وظلت الطيارات الانجليزية تحوم فوق رءوسنا تحويما وقحا ، وبقينا كذلك حتى انتصف النهار ، وكان فى الطلبة شاب متحمس أراد أن يخترق صفوف الجنود الانجليز فطعنه أحدهم طعنة دامية ، فحملناه إلى صحن الأزهر ودمه يفيض فى رائحة المسك ولا أكاد أذكر كيف حملته عربة الاسعاف ، وكيف اجتمعنا في اليوم التالى لتشييعه إلى قبره الشريف ، وإن كنت أذكر أن القاهرة كلها اشتركت فى توديع ذلك الرفات العزيز

١٢ — ومن مظاهر أيام الثورة أن الخطب كانت تجرى منظمة فى الأزهر كل مساء ، وكان الشيخ عبد ربه مفتاح ينقل أخبارها إلى جريدة الاهرام ، وخاصة إذا وقع فيها حادث يستحق النشر كزيارة البطريرك والحاخام للازهر الثائر . وكانت الجرائد تنشر أخبار الثورة مقتضبة أو محرفة وفقا لأهواء السلطة العسكرية ، فصحت نية أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار ، على وضع كتاب للثورة على نمط مذكرات الجبرتى يسميه « الأيام الحمراء » واتفق معى على أن أكتب الجزء الخاص بخطب الأزهر ثم شغل وشغلت ، ولا أدرى ماذا صنع بذلك المشروع الجليل

١٣ — كان الأزهر يموج كل مساء بالالوف المؤلفة لسماع الخطب الوطنية ، وكانت لجنة الوفد المركزية تمد حركة الأزهر

وترعى من يخطبون فيه ، وكان رئيس الخطابة يومئذ الشيخ محمود أبو العيون ، وكان الانسان لا يصل إلى موقف الخطيب إلا بجهد جهيد ، وكنت أبحث عن فرصة للخطابة فلا أستطيع ، وحدث أن الشيخ أحمد الكنانى نظم قصيدة حماسية ، وأراد أن يوسع له المجال فلم يستطع ، فعاد بعد أيام وقد لبس بذلة أفرنجية وأرسل من يخبر الشيخ أبا العيون بأن سعادة «أحمد بك عبد التواب» يريد أن يلقى قصيدة ، و«أحمد بك عبدالتواب» اسم اخترعه الشيخ الكنانى ليجد السبيل إلى الخطابة ، ورحب الشيخ أبو العيون «بسعادة البك» وأعطاه المنبر بلا عناء! وظللت أنتظر أياما لأخطب وطال الانتظار ، وفى مساء يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية ، وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية ، فطلب الشيخ أبو العيون من ابرهيم افندى عبد الهادى أن يرد تحيتهم فاعتذر ، فسألنى الشيخ أبو العيون فتقدمت بجرأة وحماسة ، وخطبت خطبة فرنسية رنانة شهد الشيخ الزنكلونى بأن لسانى فيها كان أفصح من لسانى بالعربية!! ومنذ تلك اللحظة كنت أصل إلى موقف الخطيب برغبة الجمهور الذى كان ينتظر خطبتى كل مساء. وأشهر خطباء الثورة يومئذ المرحوم أبو شادى بك ، والمرحوم الشيخ مصطفى القاياتى والدكتور محجوب ثابت ، وأشهر شبان الخطباء كان محمد شكرى وهو اليوم محام معروف؛ وكانت خطبه كالصواعق؛ وكانت ميوله مع الحزب الوطنى وكانت المعالم المشهورة فى الثورة منزل القاياتى بحى الدرب الأحمر

ومنزل محمود باشا سليمان بشارع الفلكى ، ومنزل عبد اللطيف بك الصوفانى بالحلمية الجديدة ، ومنزل عبد الرحمن بك فهمى بشارع القصر العينى . وظفر منزل سعد باشا باسم بيت الأمة وكان له فى الثورة مقام مشهود

١٤ — قلت إن شهداء الحركة الوطنية يفوقون الحصر والاحصاء ، فكم من ناس شقوا وتعبوا ثم ذهبت الاختلافات الحزبية بأعمالهم ! ومن المروءة أن نذكر فى هذا المقام القمص سرجيوس فقد كان من أشهر خطباء الثورة ، ثم نسيت أخباره لأسباب حزبية . والمرحوم الشيخ محمد الخضرى كان من أهم الأعضاء فى لجنة توحيد المطالب ثم ذهبت أعماله أيضا لاسباب حزبية . وهناك رجال كثيرون انسحبوا من الميدان بعد أن عرف الانجليز كيف يسلطون بعض المصريين على بعض ، وكيف يمنونهم بالمناصب ويخدعونهم بالألقاب

١٥ — وذهب فتيان أمجاد فى إقامة الخنادق بشوارع القاهرة ، وكان للجنود الانجليز ولع بمطاردتهم ، وكانت الاعتقالات لا تنقطع ، ومن دلائل القوة يومئذ أن السلطة كانت لا تعتقل خطباء الثورة إلا ليلا ، خوفا من هياج الجمهور ، ويضيق المجال إذا ذهبنا نعدد ما لقى الاحرار من الاضطهاد فى هذا السبيل

١٦ — وبعد فهذه أثارة من حوادث الثورة التقطناها من الذاكرة ، فدونا شيئا وأغفلنا أشياء ، ولا نملك الآن إلا الترحم على

شهداء الوطنية الذين ذهبت أرواحهم فـدية خالصة للوطن العزيز ويمكن الحكم بأن تلك الأيام هى خير مامر فى تاريخ مصر الحديث ولم يعرف المحتلون قيمة الشعب المصرى إلا فى تلك الأيام الحمراء وحسب القارىء أن يذكر أن اللورد ملنر حضر للمفاوضة فقاطعه الشعب مقاطعة تامة ، ولم يدخل القاهرة إلا بليل ، وقضى أيامه فيها متنكرا لا يعزيه إلا التريض على سطح الماء . بقيت فى النفس أشياء لاتقال : لأنها لاتجد من يسمع ولا تظفر بمن يجيب ! والله سبحانه هو القادر على أن يهبنا الرشد ، وأن يهدينا إلى سواءالسبيل . وسلام الله على شهداء الوطن والحرية والاستقلال !

وعند الله جزاء من جهل التاريخ أخبارهم فلم يقيد أسماءهم فى سجل الشهداء ! ورعى الله العهد الذى كانت موسيقانا فيه

« مصر للمصريين »

نضر الله وجه ذلك العهد ، وعطر صحائفه بين صحائف التاريخ !

١٣ مارس سنة ١٩٢٣

خطـــرات

باريس فى ٢٢ يناير سنة ١٩٣١

متى نفهم الشعر الجميل ؟

كنت فى حداثتى مولعا بحفظ الشعر ، وحملنى الزهو مرة على أن أحسب أننى أحفظ الناس لروائع الشعر البليغ ، وقد بقى هذا الغرور فى نفسى إلى عهد قريب ، وأذكر أن الأستاذ الدكتور طه حسين كان يلقى محاضرة فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ فبدا له أن يهاجم أساتذة الأدب فى مصر فقال : أنا أزعم أن أساتذة الأدب فى مصر ليس فيهم من قرأ ديوانين من الشعر العربى قراءة صحيحة فقلت له :

« استثننى يادكتور ، الله يهديك ! لأنى أحفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت من الشعر العربى وأستطيع إنشادها بعد مراجعة صغيرة ، فأجاب : العفو ! أنا لا أقصد أساتذة الجامعة .

كنت أحفظ ثلاثين ألف بيت ، ولكن هل كنت أفهمها جميعـــا ؟!

نعم ! كنت أفهمها ، ولكن كيف ؟ على الطريقة المدرسية ! فان سألت ما هى الطريقة المدرسية ؟ فانى أجيبك بأنها هى بعينها

الطريقة القاموسية ، وأرجو أن تقف عند هذا الحد ؛ فان الطريقة القاموسية شرحها يطول !

الشعر لا يفهم عن طريق القاموس،إنك لا تفهم الشعر إلا إن اصطدمت بالأزمات الروحية ،والوجدانية ، والعقلية ؛التى أنطقت الشعراء ،وقد تمر لحظات يكون فيها القارىء أشعر من الشاعر وأعرف منه بأسرار شعره . وهذه فكرة تبدو جريئة وغير معقولة مع أنها من صميم الحق والواقع ، فقد يتفق أن يتغنى البلبل من حيث لا يدرك مرامى التغريد ، ثم يستمع إليه إنسان عميدالقلب مجروح الكبد ، فيفهم من شدوه معانى دقيقة عجيبة ، لا يدركها البلبل ولا تخطر له على بال

وقد يترك الشاعر بعض المعانى بلا تحديد ، فتكون فرصة طيبة لعرض أخيلة القراء ،ومن أمثلة ذلك قول جرير:

يا أخت ناجية السلام عليكمو قبل الرحيل وقبل عذل العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

فقد كثرت التأويلات لكلمة فعلت ما لم أفعل ،وهى مع ذلك باقية على بكارتها تنتظر أخيلة الفحول ، وهيهات أن يدرك معناها فتى لم يشقه الحسن ،ولم تعلمه الليالى كيف تكون مرارة الفراق

وقد انتقد الدكتور طه قول حافظ :

خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

وفى رأيه أن هذا خيال سخيف،لأن الانسان يتقزز حين يفترض

صحة التشبيه لبشاعة الدماء

ذلك رأيه أما أنا فأتمنى مخلصا أن تقدم إلى كأس مترعة روية من عصير الخدود ! رباه ! متى يصح هذا الحلم الجميل ! [١]

إلى هنا عرف القارىء أن الشعر لا يفهم عن طريق القاموس وإنما يفهم عن طريق الوجدان فليسمح لى إذاً بأن أقدم إليه نماذج من شعر كنت أحفظه منذ أزمان ولكنى لم أهتد إلى خطره إلا فى هذه الأيام

وليت شعرى من ذا الذى يفهم كما أفهم هذه الأبيات :

من له عهد بنوم ... يرشد الصب إليه
رحم الله رحيما ... دل عينى عليه
سهرت عينى ونامت ... عين من هنت عليه

ومن ذا الذى يدرك كما أدرك هذين البيتين :

وأنزلنى طول النوى دار غربة ... إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله
احامقه حتى يقال سجية ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وما كان بودى شهد الله أن أدرك أسرار هذا الشعر الذى يمثل قلق المسهد ، أو حيرة الغريب !

---

(١) وهذا أيضا من الخيال البعيد ، لان للدكتور رأيا خاصا فى عفافه عن خدود الملاح . ولعله يتمناه كما يقرره فى « الحلم الجميل » اه مصححه .

***

خدك وردى

صحبت الأستاذ الشيخ سيد المرصفى ستة أعوام ، فتلقيت عليه شرح الحماسة ، وشرح الكامل ، وشرح الأمالى ، وكان فى ذلك العهد أعلم الناس بأسرار اللغة العربية ، وكنت أكتب كل ما ينطق به من جد أو هزل ، وكانت له لحظات يستطيب فيها الفكاهة والمزاح ، ولكنه كان يمزح وحده بدون أن يسمح للطلبة بمشاركته فيما يلقى عليهم من الملح والفكاهات

كان الشيخ المرصفى يذكرنى بقول أبى الحسن الشاذلى : (نحن كالسلحفاة تربى أولادها بالنظر) ذلك بأنه كان لا يشرح أسباب إعجابه بالشعر ، أو نقده إياه ، وإنما كان يكتفى بكلمة صغيرة ، أو إشارة خفيفة ، نفهم منها أن هذا شعر جيد ، وأن ذلك شعر ردىء إلى غير ذلك من التلميحات التى لا ينتفع بها إلا عدد قليل من الطلاب

مثال ذلك ما جاء فى الأمالى :

أزف البين المبين ... وجلا الشك اليقين
لم أكن لا كنت أدرى ... أن ذا البين يكون
علمونى كيف أشتا ... ق إذا خف القطين

وقد أراد الشيخ المرصفى أن يبين ضعف هذا الشعر ، ولكنه

لم يزد على أن قال فى مخاطبة الشاعر: (انفلق !)

وكان إذا شاء أن يشير إلى ضعف بعض أبيات النسيب قال (أيوه ياسيدى خدك وردى !)

وكذلك كانت كلمة (خدك وردى) هى القاضية على أكثر ما كان يمر بنا من الشعر الرقيق

وقد اتفق أن مرت بنا هذه الأبيات :

لم أنس إذ ودعته والتقى ذا البدن الناعم والناحل
كأنما جسمى على جسمه غصنان ذا غض وذا ذابل
يارب ما أطيب ضمى له إلى لولا أنه راحل

فقال الشيخ : «خدك وردى»

وفى تلك المرة استطعت أن آخذ على الشيخ المرصفى إسرافه فى نقد أشعار المولدين ، فهل صحيح أن هذا شعر ضعيف وهل هو حقيقة خدك وردى ؟

أما أنا فأعتقد أنه من أنضر وأرق ما قال الشعراء ، فمن كان فى ريب من ذلك فلينتظر حتى يشهد مواقف التوديع

***

هل تخرج الشهوة من العيون

كان لأستاذنا الدكتور منصور فهمى دروس خاصة يلقيها على

طلبة الفلسفة بالجامعة المصرية وكان حريصا على ألا يشهدها أحد من الجمهور.

وفى تلك الدروس كانت تظهر عبقرية ذلك المفكر العميق الذى يظلمه من يقيس فضله برسائله التى ينشرها فى الصحف ، أو محاضراته التى يلقيها فى الأندية العمومية ، كان يجلس فيحادثنا ونحادثه فى رفق دونه رفق الخلصاء حين يتسامرون ، وكان مغرما بعرض مشاهداته وملاحظاته على ما يقع أمامه فى حياة الناس

أخذ مرة يشرح لنا العواطف المشوبة بنعيم الحواس ، فساقه الحديث إلى أن يذكر أنه سمع رجلا يتحدث عن عشقه لابنة عمه وكيف كان ذلك العشق بريئا لا دنس فيه ، وكيف انطلق المحدث يؤكد لسامعه أنه كثيرا ما كان يقضى الليل مع ابنة عمه فى فراش واحد ، وهما يتناجيان ويتشاكيان دون أن يقع ما يجرح العفاف. وإذ ذاك قاطعه الدكتور منصور فقال :

(إذن والله تخرج الشهوة من عينيك !)

وأنا أشهد أن هذا حق ، وأن الشهوة قد تخرج من العيون، ولكنى لا أدرى أحرام هـذا أم حلال ؟ فما قولكم ، دام فضلكم ، ياحضرات المفتين الذين لا تراسلون الصحف إلا فى شهر رمضان ؟ أجيبوا ، أثابكم الله ، فان هـذه مسألة تشغل بعض اخوانكم فى باريس.

كيف يساس الطلبة

فى المدارس الفرنسية ؟

حقائق تنفع الأساتذة والطلاب

قبل أن أواجه موضوع هذه الرسالة أتوجه بكلمة عتب صغيرة إلى حضرة مصحح البلاغ مع اعترافى بفضله وكفايته وتفرده بالحرص والتدقيق بين مصححى الجرائد بالقاهرة ، وهذا العتب لا يرجع إلى بعض الأغلاط المطبعية القليلة التى تفوته ، ولكنه يرجع إلى الكلمات التى يصححها عامدا فى رسائلى وينقلها من وضع إلى وضع فقد جاء فى رسالتى عن شهداء السين كلمة «أعزاب» جمع عزب بالفتح و التحريك وهو من لازوجة له ، فغيرها إلى « عـــزاب» ليساير اللغة الجارية. والحق فى جانبى لأن «أعزاب» هو الجمع المقبول سماعا وقياسا ، وجاء فى رسالتى عن ليلة المانش عبارة « والمرء يعجز لا المحالة» بالألف واللام فصيرها هو « والمرء يعجز لا محالة » ليساير مادرج عليه الناس . وهذا خطأ لأن المحالة بالألف واللام معناها الحيلة وبذلك يجرى المثل ، فى حين أن التغيير الذى انتقل إليه يحرف المثل عن موضعه ويجلب إلى الكاتب سخرية بعض القراء وفى هذه الرسالة أقول « العزب من لازوجة له» وأرجو أن لا

يغيرها إلى « من لا زوج له » ليساير تعبير الأقدمين فانى أستحب أن أغلب القياس وأفضل أن يقول الناس مثلا « خادم » للمذكـــر و « خادمة » للمؤنث وأن يقولوا « امرأة سافرة » بدلا من « امرأة سافر » التى نص عليها المصباح . ولست بهذا أعفيه من تصحيح رسائلى بنفس العناية التى عهدتها فيه منذ عرفته يوم كان يقوم أغلاطى فى سنة ١٩١٤ ولكنى أرجوه أن يلاحظ أننى قد أضع عـامدا بعض الألفاظ والتعابير لغرض أرمى إليه إحياء لبعض الألفاظ القديمة أو إيثارا لبعض الألفاظ الحديثة ، واللغة لا تتهذب ولا تتطور إلا بأقلام الكتاب

ولأعد إلى موضوع هذه الرسالة فأقول :

إن الذين اشتغلوا بالتدريس كما اشتغلت به ، وذاقوا حلوه ومره فى المدارس الابتدائية والثانوية والعـالية ، وعرفوا مـا يجرى فى المدارس الأميرية والأهلية ، يذكرون أن هناك فسحة من الوقت بين الحصص تتراوح بين خمس أو عشر دقائق ـ وأحيانا تصل إلى خمس عشرة دقيقة ـ وهذه المدة القليلة يقضيها المدرسون فى التشاكى ولكن مماذا ؟ من الطلبة !

وأنا شخصيا أذكر هذه اللحظات بارتياح ؛ فقد كانت همومى أخف من هموم الزملاء ، ولا أذكر أن الطلبة اضطربوا مرة بشكل يزعجنى ، ولكنى أعترف أن مهنة التدريس مهنة شاقة لا يستغرب فيها أن يتشاكى المدرسون وأن ينظموا قصائد الأنين !

غير أنى كما يعرف القارىء حديث العهد نسبيا بهذه المهنة لأنى لم أعالج همومها إلا بعد الحرب ، من أجل ذلك كنت أسأل زملائى عن ماضيهم ؟ فكانوا يجيبون بأن الطلبة لم يتمردوا إلا منـــذ شبت الثورة المصرية ، وأنهم قبل ذلك كانوا فى وداعة الحملان

وكان هذا الجواب يقع من نفسى موقعا سيئا ، لأنه ما كان فى وسع الأمة المصرية أن تؤجل ثورتها على الظلم والهوان ليظـــل الطلبة وادعين ، وليظل الأساتذة فى راحة وسلام !

وكان بعض زملائى يتشاءمون حين يرون طالبا يراسل صحيفة يومية أو أسبوعية ، وكنت بخلاف ذلك أحض الطلبة على مراسلة الصحف وأسوقهم إلى الميدان ، وكنت أقول فى نفسى : إذا لم يكن بد من تضحية ، فلتتقدم الأمة وليتخلف المدرسون !

فهل من الحق أن الطلبة المصريين يمتازون من بين الطلبة فى العالم بحب المشاغبة ، وأن سلوكهم المدرسى لم يسؤ فى هذا الجيل إلا باشتراكهم فى النهضة المصرية ؟

الجواب بالسلب ، وإلى القارىء البيان :

مهنة التدريس فى العصر الحاضر شاقة فى العالم كله ، وثورة الطلبة على النظام المدرسى وخروجهم على أساتذتهم من الأمور التى شاعت فى أواخر القرن التاسع عشر . والطلبه المصريون جاءوا أخيرا بعد أن تمرد سواهم بعشرات السنين ، وإذا كان المدرسون المصريون لم يشكوا من الطلبة قبل سنة ١٩١٩ فذلك يرجع إلى

أنه لم يكن بمصر مدارس ولا تدريس ولا تلامذة ولا أساتذة بالمعنى المعروف اليوم؛ وإنما كان هناك مدارس متواضعة محدودة الفصول وكان هناك تلامذة قلائل يوصيهم آباؤهم فى الصباح والمساء ويغرونهم بالجد والتحصيل ، وكان هناك مدرسون معدودون لو تلفت أحدهم إلى زميل يشاكيه لما وجد ، فكان من الحق أن تظل الحياة المدرسية هادئة لا قلق فيها ولا اضطراب . ولو أننا عدنا إلى إحصاء طلبة المدارس العالية فى أيام الحرب لهالنا ذلك الاجداب فلم تكن هناك مدارس عامرة غير الطب والحقوق ، وكان فى هاتين المدرستين تباشير للقلق الذى عم بعد ذلك فى المدارس المصرية ، ولم يكن فى مدرسة المعلمين العليا غير آحاد فى كل فصل والفصل هنا معناه السنة الدراسية برمتها ، ولم يكن للتعليم الثانوى حظ يذكر فى الأقاليم وكان طلبة الثانوى فى القاهرة والأسكندرية أضعف من أن يقاسوا إلى طلبة اليوم الذين لا يفتؤون يشغلون أولى الأمر فى وزارة المعارف فضلا عن حضرات المدرسين

والحال اليوم فى المدارس المصرية غيرها بالأمس؛ فهناك مدارس وطلبة وأساتذة ، ومن أجل ذلك أخذت مشكلة التعليم لونا جديدا يتناسب مع خطورة الحياة المدرسية ، فعلى الأساتذة أن يستعدوا للكفاح ، وعلى مدراس المعلمين أن تفهم أن إعداد الأساتذة أصبح فى غاية من التعقيد . فمن الواجب أن يختار طلبة المعلمين اختيارا خاصا يراعى فيه تكوينهم الجثمانى والعقلى والأدبى ، فكل تشويه فى الجسم

أو فى الذوق له أثره الخطر فى البيئات المدرسية ، وليست آراء المربين القدماء بكافية فى إعداد المعلمين ، فقد كان أكثر رجال التربية فلاسفة نظريين لم يعانوا مشاكل التعليم ، ولم يقدروا ما سيكون عليه الطلبة فى القرن العشرين ، وعلى وزراة المعارف المصرية أن تفهم أن كل اضطراب مدرسى له أسباب أخرى غير اشتراك الطلبة فى الحياة العمومية ، وأقرب هذه الأسباب هو بعد مابين الأساتذة والطلبة فى فهم الحياة ، وتقدير مشاكل الجيل الجديد ، وبقدر مرونة الأساتذة وبعد نظرهم وفهمهم لروح العصر يكون نجاحهم فى الحياة المدرسية ، وليس بمستطاع فى عصر مشرب بروح الثورة فى جميع الأقطار أن تقهر الطلبة بالشدة العنيفة أو أن تسوسهم بمبادىء من التربية كانت لا تكفى فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد رأيت بنفسى كيف يكون نجاح المدرس المثقف ثقافة حديثة ، وكيف يكون سلطان الأستاذ الذى يخالط الطلبة ، ويدرك ميولهم وأذواقهم ، ويعرف منهم مواطن الضعف ومواضع القوة ، ورأيت كيف يخفق المدرس المتخلف الذى يعيش فى القرن العشرين بروح القرن العاشر ، فان لكل طالب عينين وأذنين ، وهو ثاقب البصر فى اختيار أستاذه ، ومعرفة مايفهم من شؤون العصر الحديث . وليست الدروس كلها بمقصورة على موضوعات المناهج : فهناك لحظات يفرغ الطلبة فيها لأساتذتهم ويختبرونهم وجها لوجه ، ويكاد طلبة اليوم ينتظرون من أساتذتهم

أن يرشدوهم إلى أهم الروايات المسرحية والأشرطة السينمائية ، ويكادون ينتظرون منهم أن يعاونوهم على حل ما يواجههم من المشاكل الأخلاقية والاجتماعية والوجدانية . وليس هذا حال الطلبة فى مصر فقط ؛ بل هذا حالهم فى جميع الأقطار فى هذا الجيل والحياة حركة فويل للجامدين !

ونعود فنذكر أن المدارس الفرنسية كانت إلى سنة ١٨٨٠ تدار إدارة عسكرية ، وكان الطلبة محاطين بطائفة كبيرة من القيود والأغلال ، وكانت المدارس أشبه شئ بالسجون ، وكان الاساتذة والضباط والنظار مسلحين بالشدة والعنف فى كل وقت . والذى يعرف أن أكثر الطلبة كانوا ولا يزالون يقيمون فى المدارس ليلا ونهارا ، يعرف كيف يكون تبرمهم وضجرهم من حياة ضيقة مغلقة الأبواب ، وهذه الحياة الثقيلة لم تكن شرا مطلقا ، ولم تكن خيرا مطلقا ، فقد كان من شرها أن أخمدت روح الجد والنشاط ، وحولت الطلبة الى آلات ناطقة ولكنها لا تفكر ولا تبين ، وكان من خيرها أن أجلت تعرف الطلبة ببعض الخصال الرديئة التى تبثها حياة الحرية فى باريس وحبستهم فى نطاق من التعقل والاعتدال

ولكن القرن التاسع عشر ما كاد ينصرم حتى شبت فى أوربا كلها روح الثورة العقلية والخروج على ما ألفت الجماهير من التروى والتعقل والنظر فى عواقب الأمور ، وكان الطلبة أكثر الناس قبولا لما أوحى القرن العشرون من التوثب والتهالك على فرص الحياة

وما ظنك بفئات لا تعرف ما تكاليف العيش ، ولا تدرى ما عاقبة الطيش ، ولا تفكر فيما يلاقى الآباء والأمهات من أوزار الحياة اليومية فى عصر لا يمهل القاعدين، ولا ينظر الوادعين . والطلبة مهما كانوا أطفال : ينفقون كما ينفق الرجال ، ويفكرون كما يفكر الأطفال ، ومن الصعب أن تروضهم على الاطمئنان إلى أن الحياة ليست كلها لهوا ولا لعبا.فقد كان الانسان حيوانا لا يعقل إلا إن لدغته أفاعى الصروف والخطوب . أضف إلى ذلك ما استقرت عليه الحياة الفرنسية من حب العبث الجامح فى ليالى الآحاد فتلك ليال ماحقة تقتلع ما ثبت ورسخ من أصول الأخلاق وليس من السهل أن تدعوهم إلى التريث والتمهل ، وهم يركضون فى ميدان الشباب ، فانك تدعو من لا يسمع ، وتهيب بمن لا يجيب

وكذلك تغيرت الحياة المدرسية تغيرا يوشك أن يكون تاما وتقطع ما كان بين الطلبة والأساتذة من أواصر البر والاحترام وعاد المدرسون غرباء أو كالغرباء ، وأصبح الطلبة لا يعرفون سلطانا لغير جمعيات الألعاب الرياضية ، وانطلقوا لا يلوون على شيء ، ولا يكترثون للدروس، وصاروا يجهلون أكثر الواجبات المدرسية والقومية بسبب ما اندفعوا فيه من التهاون والثورة على مختلف التقاليد ، وحسبك أن تعرف أن جمهور الطلبة فى فرنسا قد يجهل تمام الجهل من أعضاء الحكومة الحاضرة ، ومن رؤساء الأحزاب ، والبارزون بين النواب والشيوخ ، ولكنه يعرف

أبطال الألعاب الرياضية فى جميع بقاع العالم ، ويستقصى أخبار السابحين والملاكمين ورافعى الأثقال. واختراع الطيارات قد أذكى حماسة الشبان وأغراهم بالبحث عن مجهول الآفاق ، وقدمت لهم السينما غذاء قويا حيا من مناظر المخاطرات البرية والبحرية والجوية، بحيث يمكن أن تقدر أنهم لم يعودوا طلبة ولكنهم صاروا شياطين، ولهذا التمرد أثر جميل فيما أفترض ، فسيكون الجيل المقبل جيل فتح وغزوات واستكشافات ، وسيتحول الانسان إلى قوة خطيرة يتبدل بها شيء كثير من الأوضاع العلمية، والفنية ، والأدبية، والاجتماعية

والأساتذة ماحالهم ؟

إنهم فى غاية من الارتباك والاضطراب ، فلا تزال المناهج الدراسية على حالها ، ولا يزال هناك شبح اللاتينى واليونانى ، وما أشبه ذلك من اللغات الميتة ، ولا يزال هناك الكلاسيك والرومانتيك ولاتزال حوادث القرون الوسطى بما فيها من علوم وفنون وآداب والأساتذة مسئولون عن وضع ذلك كله فى أذهان الطلبة طوعا أو كرها ، فما هو الحل ، وكيف السبيل إلى الخلاص ؟

الواقع أن الأساتذة يعترفون بأن الحل الوحيد هو التساهل فى الامتحانات وهم لذلك يعطون شهادة البكالوريا بسخاء أى سخاء وذلك لا يمر بالطبع من غير ضوضاء ، فهم يحثون الجمهور على مشاهدة جلسات الامتحانات فى السوربون ليحكم بينهم وبين أولئك الطلبة المتمردين

وإذا سألت الأساتذة كيف ساغ لكم هذا التسامح ؛ اجابوا بأن التعليم الثانوى عليل لا يرجى شفاؤه لأنه يمر فى طور الشباب المجنون ، وعلى أساتذة الجامعات وحدهم أن يداووا ذلك الجنون .فان الطلبة لا يصلون إليهم إلا بعد أن تنضجهم السن وتروضهم الأيام بعد الجموح

وهناك علاجات مؤقتة لا تغنى فتيلا : تلك هى نتائج الامتحانات الشهرية حيث ترسل المدارس لآباء الطلبة ، أو أمهاتهم ، أو أولياء أمورهم بيانا بدرجات الطالب فى جميع المواد ، ولكن ما رأيك وأكثر آباء الطلبة لا يدركون شيئا من ذلك ، والطالب يستطيع بكل سهولة أن يؤول النتيجة ، وأن يلبسها اللبوس الذى يريد ، وقد يحدث أن يتفق مع بواب المنزل على تبديد الخطابات المدرسية بحيث يظل القائمون بأمره فى عماية تامة لا يعرفون كيف يبدأ وكيف ينتهى ، ولا يدركون أ ذكىّ هو أم بليد

وقد حرص فريق من الأساتذة على الاتصال بآباء الطلبة ليتم التعاون بين الفريقين على مداواة ذلك المرض العضال ، ولكن ظهر أن الأساتذة لا يتسع وقتهم لتلك الصلات الودية ، كما ظهر أن الآباء لا يستريحون إلى الأساتذة الذين يؤثرون فى أبنائهم لأن الآباء لا يزال عندهم بقية من الاثرة وحب الذات ، وهم يريدون أن يظل أبناؤهم فى حيازتهم وفى بعد عن المؤثرات الخارجية ، والآباء يفهمون جيدا أن الأساتذة مهما تقدمت بهم السن ، أقرب منهم إلى

الحياة والشباب، لأن الأساتذة بطبيعة مهنتهم قريبون من فهم الشبان الحاضرين، وما يعتلج فيهم من أمانى وآمال

ومن رجال التربية من عنى بدرس هذه الأزمة الحاضرة، ومن رأيه أنها ترجع إلى أنه لم يعد فى المدارس الفرنسية أثر لذلك الروح الفكرى الذى كان ينتظم وحدات الطلاب، فقد كانت المدارس الفرنسية لأول عهدها ترمى إلى إيقاظ العواطف الدينية ثم اتجهت بعد ذلك إلى تربية فكرة الجمهورية، ثم انصرف الناس عن ذلك كله إلى فكرة واحدة هى نتائج الامتحانات، وقد نفع ذلك وقتا ما ثم تداعت الروابط واندفع الطلبة يفعلون ما يشاءون بلا وازع من أنفسهم ولا رقيب

ولكن رأيى أنا أن هذا الاضطراب يرجع فى جوهره الى أن الطلبة والأساتذة يمثلون جيلين مختلفين أشد الاختلاف، فقد طفر الجيل الجديد، وأصبح الأساتذة من المتخلفين. ولا علاج لهذا إلا أن يقبل الأساتذة على أنفسهم فيروضوها على فهم الواقع ثم يستعدوا للنضال بأسلحة العلم الحديث، ومن سفه الرأى أن يظل فريق من الأساتذة غارقا فى تأملاته القديمة وأفكاره العتيدة كأنها نصوص مقدسة. وإذا كانت التقاليد الدينية على حرمتها ووقارها لم تعد تستطيع البقاء فى البيئات الفرنسية فان هناك تقاليد مدنية كتب عليها أن تزول. والعاقل هو الذى يفهم ذلك ويعرف أن للتقاليد أعمارا كأعمار الثياب، وليس فى مقدورنا أن نقف

حيارى مترددين ننظر إلى الماضى نظرة العطف ، وإلى الحاضر نظرة الخوف ، ولكن من واجبنا أن نفهم بسرعة كيف تتقدم إلى الميدان وكيف تتخير أسلحة النضال .

وهذه الأزمة لا يقتصر شرها على فرنسا ومصر ، ولكنه موزع على أقطار العالم القديم والعالم الجديد ، والانجليز والامريكيون فهموا ذلك أول الناس ، وانحدروا مع الطلبة يشاطرونهم الجد ، واللعب ، والعمل ، والفراغ ، وقد تلفت الطلبة الانجليز والامريكيون فرأوا أساتذتهم قد عادوا زملاء وادعين يلاعبونهم التنس ، ويماشونهم فى الطرقات ، ويساهرونهم فى المراقص وبذلك انطفأت الثورة وعرف الأساتذة كيف يعيشون فى سلام !

ولكن ما نتيجة ذلك ؟ إنها لنتيجه سيئة ! ولا يمكن أن يقال إنه هكذا يكون العلم ، وهكذا يكون التعليم . وحظ الأساتذة الفرنسيين على شقائهم وبلائهم أحسن وأفضل ، فللأستاذ أن يجاهد طلبته وأن يحارب جنونهم وشططهم ليردهم إلى الجد مااستطاع إلى ذلك سبيلا ، ولأن يجاهد فيخفق خير له من أن يلين فيضيع

فالمشكلة فى جوهرها ترجع إلى تكوين الطلبة ، وذلك التكوين لا يتم ولا يؤتى ثمره إلا إن اهتم الأساتذة بايجاد مثل أعلى يكون غرض الجميع ، وهذا المثل الأعلى كيف نتخيره ؟ ومن أى طبيعة يجب أن يكون ؟

لقد خمدت التيارات الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فما عسى

أن نفعل فى تسيير الجيل الجديد ؟

الرأى عندى أن توجه العزائم إلى تتويج « العـلم » وأن يتخذ منه مثل أعلى تخشع لهيبته القلوب ، ولـكن يجب أن يفهم القراء أن هـذا « العلم » الذى أدعو إلى تتويجه ليس هو العلم الذى عرفوه والذى لم يرتفع بهم عن الأرض ، بالرغم مما أضاعوا فيه من طوال السنين ، ولـكن العلم الذى أدعو إليه هو العلم الذى سما بأصحابه إلى امتلاك ناصية السماء ، وصيرهم سادة فى العالمين

باريس فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠

انتهى الجزء الأول

(ويليه الجزء الثانى)

فهرس

الجزء الأول من كتاب البدائع

(تمت)

*

﴿ الجـــزء الثانى ﴾

من

كتاب البدائع

تأليف

الدكتور زكى مبارك

*

بسم الله الرحمن الرحيم

الاحسان جميل ولكن الى من !

رسالة مترجمة عن الفرنسية

لايمكن الارتياب فى قيمة الاحسان من الوجهة الخلقية ؛ بل نرى من الفلاسفة من يفضله على العدل ، ويرى فى اثره جمالا لا يسمو اليه العدل . ونحن نعرف ما هى حقيقة الاحسان نعرف أنه حب القريب ، والتفضل والعطف على الآخرين ، ونعرف أن الرجل المحسن يتلمس الوسائل لنفع إخوانه والبر بهم ، ونعرف أن الاحسان يسمو بنا إلى تضحية أموالنا وأنفسنا فى سبيل الانسانية فيصيرنا بذلك قادرين على الأعمال الجديرة بالخلود

ومن المفكرين من يعارض فى الاحسان ، ويرى فيه حياة للشر على الارض ، وعلى رأى هؤلاء يكون المرضى والبؤساء غير أهل للبقاء فمن الواجب أن نتركهم ينقرضون بلا شفقة كما يترك الجيش جرحاه ويمضى فى طريقه ، لايفكر فى غير الانتصار . وهذا هو الأساس الذى يمكن أن يبنى عليه جيل قوى سليم

ولكن ما قيمة هذا الاصلاح الحسى ، وهو على أى حال محدود

إذا لم ينل إلا بتضحية الأخلاق ؟ إنه لواضح أن أشرف العواطف هى عواطف القلب الانسانى النبيل ، وأن زوالها يرمى الانسانية بأبشع مظاهر السقوط

قد يعترض بأن فى الاحسان شيئا من السوء ، لأنه يجرح من يتقبله وقد يذله ، ولكن من الحق أن نعترف بأن كيفية الاعطاء أفضل من الاعطاء ، وليس من طبع الاحسان أن يهين من يتوجه إليهم ، فان هناك وسائل لطيفة يمكن بها المحسن أن ينقذ من يعينهم بدون أن يمس كرامتهم أو يعرضهم للهوان

ومع ذلك لا ينبغى أن يقدم الاحسان اتفاقا ومصادفة ، وإلى ذلك أشار لا فونتين فى قصة القروى والثعبان إذ قال ما ترجمته :

من الخير أن تكون محسنا ، ولكن إلى من ؟ تلك هى المسألة .

فلنبين بعد إذ عرفنا أن الاحسان خير كيف يجب أن نختار من نحسن إليهم ، ولنذكر أولا خلاصة قصة القروى والثعبان ، وهى تتلخص فى أن فلاحا أنقذ ثعبانا من البرد فلما أحس الثعبان الدفء هم بلدغ الفلاح ، ففكرة لافونتين ظاهرة ؛ وهى أنه يجب قبل أن نحسن أن نتخير مواطن الاحسان ، وأن نتجنب إسداء المعروف إلى الأشرار وجاحدى الجميل ، ولكنها مع ذلك قابلة للنقد ، فان علمنا بطبيعة من نعاملهم من الأشرار والجاحدين لا يصلح سببا لترك الاحسان ، فان من الجميل أن نحسن ولو كان جزاؤنا على الخير شرا ، وعلى البر عقوقا ، ولا يصح أن يكون غرضنا أن نظفر

بشكر من نسدى إليهم المعروف ، وإنما يجب أن تكون غايتنا أن نمثل دورنا كرجال ، وأن نظهر أبرارا خيرين مهما تكن الحال ومهما يكن الجزاء

على أننا مع هذا لا ننكر أن لفكرة لافونتين قيمتها من الوجهة العلمية ، ففى أغلب الأحيان يكون الاحسان نوعا من الصدقة ، وإذ ذاك لا يمر بلا سوء ، فهناك سائلون اتخذوا الاستجداء مهنة مختارة إذ كانت قليلة المتاعب كثيرة الأرباح ، وفى المدن الكبيرة توجد عصابات منظمة تعمل ليل نهار لاستغلال عواطف المحسنين ، يوجد آباء وأوصياء يهربون من العمل الشريف ، ثم يتركون أبناءهم ومن يقومون على تربيتهم من القاصرين يستجدون الناس فى المنازل،وفى الطرقات والميادين ، ليعيشوا من فيض هذه المهنة المخجلة التى تندى الجبين ، وهؤلاء يستطيعون الاعتماد على سواعدهم فى كسب القوت من طريق محمود ، ولكنهم يتركون العمل خسةونذالة ليعيشوا عالة على الأسخياء ، والاحسان فى مثل هذه الأحوال تشجيع للبطالة والكسل ، والعربدة ، والكذب ، والنفاق ، وقتل للطباع السليمة وإحياء للغرائز الذميمة التى شقيت بها الانسانية وشقى فى حربها رجال الأخلاق ، وهؤلاء السائلون لصوص يسلبون أموال الناس والاحسان إليهم اشتراك معهم فى الجريمة وتأصيل لما يتعودون من سيء الخلال ، وكثيرا ما أغمض الانسان عينه عن البؤس الفاتك الذى يغتال البائسين ، لأن هؤلاء السائلين عودوه الاقتناع بأن

كل سائل لص ، وبأن كل متسول محتال ، حتى غفت الضمائر وقست القلوب

وفي الحق أننا تبينا غير مرة أننا كنا مخدوعين وأن أموالنا لم تمض إلى جيوب أولئك الأفاقين إلا عن غفلة وغرة : فا عتزمنا أن نقيد ما يثور فى قلوبنا من نبيل العواطف وأن نقف جامدين إزاء من يطلبون المعروف ، وكذلك جنى البؤس المزور على البؤس الحق وجنى علينا أيضا إذ قسى قلوبنا وزهدنا فى صنع الجميل .

فلنبحث إذاً عن مواطن الضراء ، لنبحث عن البؤس الذى يتوارى خجلا من أن يراه الناس ،وذلك يضطر الكرام إلى التغلغل فى طيات المنازل المغمورة التى أضنى أربابها الفقر ، ومنع الحياء أهلها من إعلان الفاقة والتعرض لبر الأبرار وفضل المفضلين ، وهنا يحسن ألا يكون البر مالا يمنح أو خبزا يعطى ، وإنما يجب أن يكون البر نوعا من التشجيع المنتج الذى يساعد المعوزين على أن يعملوا بأنفسهم وأن يملؤوا بيوتهم من ثمرات مايعملون

والاحسان حين يقع على هذا النحو ، لا يساعد على رذيلة ،ولا يعود أحدا الاستجداء ، ولكنه يوقظ القوى فى الغافين ويقوى الملكات التى أضعفها الفراغ وشلها السكون . وهو كذلك احسان نبيل :فلن يجد من نحسن اليهم غضاضة ،ولا مرارة فى تقبل ماتهدينا اليه الفطرة الشريفة فى نقلهم من وهاد الضياع والخمول الى منازل النباهة وسمو النفس ، والتطلع الى الغنى عن طريق الكدح الدائم

والعمل الموصول

أيها المحسنون!

ليس من البر أن تبثوا فى المعوزين حب الاتكال على ما تقدمون اليهم من المأوى والطعام واللباس، ولكن البر أن تفتحوا لهم سبل الكسب وأن تذللوا ما يعترضهم فيها من صعاب وعقاب ليعودوا وهم أغنياء الجيوب، وأغنياء العواطف والمشاعر والنفوس

فقيد القلم والبيان

محمد السباعى

منذ عشرة قرون كان إمام الكتاب فى عصره بديع الزمان الهمذانى يقول:

« والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها، وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها »

فليعذرنى القارىء إذا انصرفت عن وصف الموت وجنايته على عظماء النفوس والقلوب، فذلك فن من القول تناهبه الناس ولم يدعوا فيه مجالا لكاتب ولا شاعر ولا فنان

وأريد فى هذه الكلمة أن أصف فجيعتى فى السباعى وفجيعة الأدب فيه ، والقراء مرجوون أن يتقبلوها كلمة خالية من الزخرف والتنميق ، ومن الترتيب والتبويب ، فهى دمعة مرسلة فى سبيل ذلك الكاتب البليغ ، أو هى على الأصح كلمة إنصاف يوحى بها الوفاء

***

منذ عشرين سنة كان أشهر الكتاب فى مصر خمسة : محمد المويلحى ، وعبدالعزيز شاويش ، وعلى يوسف ، ومصطفى المنفلوطى ومحمد السباعى

وكنت فى ذلك الحين طالبا مبتدئا ، وكنت كثير الشغف بمطالعة مايكتب الأدباء المعاصرون ، وكان أحبهم إلى قلبى رجلان : مصطفى المنفلوطى ، ومحمد السباعى ، أما المنفلوطى فكان يجذبنى اليه طبيعته السمحة ، وقلمه الطيع ، وقلبه الزاخر بالعطف والحنان . وأما السباعى فكان يحملنى على احترامه بصره باللغة العربية وذكاؤه الحاد الذى يتمثل فى احياء الألفاظ والتعابير ، ولا أكاد أومن بأنه كان فى مصر كاتب آخر وعت حافظته مفردات اللغة العربية وأساليبها بمقدار ما تم ذلك للسباعى ، طيب الله ثراه

ثم تعاقبت السنون وجد ناس غير الناس ، وكتاب غير الكتاب ونقاد غير النقاد ، وتحولت أيضا مع الأيام الى قارىء ناقد بعد أن مثلت دور القارىء المستفيد ، ثم كانت تصرفنى الشواغل عن مطالعة

ما يكتب المعاصرون وفيهم كتاب جديرون بالاجلال وكان السباعي مما انصرفت عنهم في العهد الأخير .

وفي العام الماضي وأنا في باريس فكرت في العودة الى قراءة ما يكتب السباعي ، وكان قصر أدبه على الصحف التي يصدرها صاحب البلاغ ، فراعني أن أقرأ أدبا حيا جدا لا يقل عمقا وطرافة عما ينتجه مشاهير الأدباء في أوربا ، ولكني لاحظت أن الرجل يدور حول نفسه ، ويبدئ ويعيد في شؤون نفسية دقيقة قد يعسر فهمها على جمهور القراء ، وهناك قررت أن أناوشه من باريس عله يغضب فيتنوع بذلك ما يقدمه الى قرائه من غذاء

غير أن الرجل لم يخف عليه أني شريف القصد فيما كتبت فكان من ذلك أن بعث الي بالرسالة الآتية :

«قرأت كلمتك التي دبجتها عني يراعتك الرشيقة ، فطرحت عن كاهلي عبئا من الهم ما كان لشيء خلافها أن يزحزحني من فادحه وأطفأت عن كبدي شواظا من الكمد ما كان لغيرها أن يجيرني من قادحه ، ولا عجب فكثيرا ما كنت أشعر أثناء قراءتي بدائع ملحك ونفائسك بائتلاف بين طبعك وطبعي ، وامتزاج بين روحي وروحك ، ولقد طالما وددت لو التقيت بك فتحادثنا وتسامرنا ولكن قضى الله أن لا يحصل التعارف بيننا الا ونحن على طرفي الكرة الأرضية ، وبيننا المهامه البيد والآكام ، والتنائف الفيح والآجام ، وسهول ووديان ، وبحار وخلجان ، وأن لا يصلك

صوتى أو يصلنى صوتك إلا بعد أن يجوب شطرى قارتين ، ويقطع دقتى عالمين ، ويمر بالجم العديد من أجناس الناس ، وصنوف البشر وشتى المدنيات واللغات»

وأخذنا نتراسل حتى قويت بيننا الصداقة ، وإن لم تصافحه يدى ولم تره عيناى ، ولما عدت من أوربا كنت حريصا على مقابلته ولكنى شغلت عن ذلك بلا عذر مقبول ، وقد ظل يبحث عنى ويسأل المعارف والأصدقاء ، ولكن لم يكن لنا من التلاقى نصيب. ومن هذا يقدر القارىء كيف تكون لوعة من يفجع بمثل هذا الصديق الذى لم تره عيناه

***

كان السباعى من أهل المرح والطيش ، لا يرى العيش إلا فى منازلة الصهباء ، ومغازلة الظباء ، فكان بذلك أعرف الأدباء بنعماء الحياة ، ولكنه فى أخريات أيامه استسلم إلى الحزن والابتئاس واطمأن إلى أن جذله حلم يذهب ، ودنيا تزول ، وقد تلقيت منه الكلمة الآتية وهى تفصح أتم الافصاح عن تبرمه بالحياة وضجره من الأحياء :

«لقد مضى على شهور وأيام ، بل دهور وأعوام ، وأنا أبكى مصاب الانسانية فى مصابى وأندب مابها من كوارث المحن وما بى ، وأضج لوعة وأنينا ، وأنتحب حرقة وحنينا ، وتارة أرغى وأزبد

وأبرق وأرعد ، حتى يخيل إلى أن أعين النجوم ترنو إلي شفقة وعطفا ، وتدمع على بقطرات النور أسفا ولهفا ، وأن الريح تعول معى أسى ووجدانا ، والموج يصطفق حسرة لى وتحنانا ، كل ذلك ولا أسمع من بنى آدم ولا من بنات حواء كلمة عزاء ، أو صوتا يلبى الدعاء ، ولا أجد معونة آس ، ولا إسعافة مـــواس ، كلا ، ولا متعجب لى ولا متألم ، ولا متبرم ولا متسخط ولا مستنكر ، ولا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط ولا «قبض» كأنى أهتف بكلماتى بين رسوم بالية وأطلال ، أو أعكف على أصنام وأوثان ، وكأنى أضرب فى حديد بارد ، وأصيح فى واد وأنفخ فى رماد ، وكأنى مع هذا الجيل الأصم الوسنان كما قال القائل:

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للذم

كانا إذ سألناه وقفنا سائلى رسم

وكذلك تعودت فى هذا الشعب الحى «الحساس» أن أتقرب وأقابل بالصد والاعراض ، وأتزلف وألقى بالجفوة والانقباض وأستدنى وأستعطف وأصادم بالنفرة والابتعاد ، وأسهر فى صناعة القلم وأسهد وأكافأ ممن أسهر على مصلحتهم بالوسن والرقاد ، وأزلف للناس المنة تلو المنة واليد إثر اليد وأجازى بالكفر والالحاد ، حتى ألفت من القوم هذه المخزيات المخجلات ، ووطنت نفسى على اليأس من كل خير ، وتوقع كل شر

وأصبحت حرفـة القلم عندى بعد ما كان لها فى سالف الزمن

من اللذة والسرور كاسفة حزينة ، جافة جدبة ، ناضبة مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوة ، وأصبح القلم فى يدى أشد بؤسا ومسكنة من المزمار فى يد الشحاذ المتسول ، ترى نغمه أقرب إلى أنة الثكلى منه الى رنة المسرور ، وأشبه بصوت النعى منه بصوت البشير ، وكذلك صرير القلم فى يدى أشبه بصرير أعواد النعش . ولا عجب فانما قلمى نعش لنفائسه يحملها من المهد الى اللحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد»

وهذا الخطاب يصور آلامه فى أيامه الأخيرة أتم تصوير : فقد كان رحمه الله يشعر أبلغ الشعور بأنه مغبون ، ومثل السباعى كان جديرا بأن يرى نفسه سيد الكتاب أجمعين ، لأن ثقافته كانت وافية فى العربية والانجليزية ، وكان يقبل على الانشاء إقبال المثال على كرائم المرمر يخرج منها أروع التماثيل ، فكان من الطبيعى أن يحنق ويهتاج حين يرى غيره أقرب إلى قلوب الجماهير . . يضاف إلى ذلك مرارة الخيبة التى عاناها أخيرا فى حياته الغرامية ، فقد كان مفتونا بالجمال أشنع الفتون ، وكانت له انتصارات فى عنفوان الشباب فلما أسن واكتهل تحولت عنه الظباء ، واضطره عقوق الملاح الى القناعة بالأوهام ، ولننظر كيف يقول :

أيتها المحاولة ستر جمالك ! حرمتنا سورة الحسن منظومة فى صحيفة محياك ، فقرأناها فى صحيفة الطبيعة منثورة ، فأنت لم تحتجبى ما دمنا نراك فى الصباح المنير ، والجدول النمير ، فهلا منعت النجم لمعانه

والبرق سريانه ، والنهر جريانه ، والطير ألحانه ؟»

ولكن هذه العلالات لم تغنه فتيلا ، فأخذ يصرخ ويتململ فى جزع دونه جزع الملدوغ ، حتى قرأنا له هذه الكلمات الموجعات :

«الحمد لله على تقطع أسباب الأمل ! هذا الغدر والغش والخيانة هو قصارى حظ الانسان من المرأة التى يهوى ، هذه عكارة الكأس بعد رشفك رحيقها ، هذا هو الشمع الذى تنتهى إليه بعد أخذك العسل من قرص الخلية ، هذه جيفة الحب القذرة !! »

وله فى هذا الباب فصول طوال يندب بها ما كان له من النعيم فى أيامه السوالف ولياليه الخوالى ، وقد عرف الجمال فى حاليه : عرفه فى نبله ولؤمه ، فلأهل الجمال لحظات كرم ونبل ، وأيام لؤم وإسفاف .

وقد كتب إلى يقول :

« فتحت علينا باب الغانيات ، وهذا باب لا يسد ، والخروج منه أسلم ألف مرة من الدخول فيه ، إنى ياسيدى لا أعرف سحرة ولا مشعوذين أشد مهارة وحذقا باختتالنا ، واحتبالنا ، واختبالنا لدى كل فرصة سانحة ، وبسبب وبدون سبب ، ولمجرد اللهو بنا والعبث بعواطفنا ، ولمجرد الضحك علينا من النساء ، وتراهن يلعبن بنا ألاعيبهن بمنتهى البساطة ، وبمنتهى الجرأة والوقاحة ، وبمنتهى الحذق والبراعة وهذا ياسيدى طبعهن ودأبهن يأتينه من مطلع الشمس إلى

غروبها ومن غروبها إلى مطلعها ، وأعجب العجب أنهن فى ذلك جميعه سواسية لافرق ولا خلاف بين الصالحات والفاسدات ، والطيبات والخبيثات ، والجريئات والخفرات ، والرقيقات والقاسيات »

***

أنشأ السباعى كثيرا وترجم كثيرا ، ولكنه كان يترجم حين ينشىء ، وكان ينشىء حين يترجم ، وبيان ذلك أنه كان يعتمد فى الانشاء على مااختزنه فى ذاكرته من المعانى الغربية ،وكان يضيف الى الترجمة ماوعته حافظته من الأخيلة العربية ، فأنت حين تقرأ إنشاءه تلمح أشباحا انجليزية تغدو وتروح بين السطور وحين تقرأ ترجمته لأدب بيرون ، وكارليل ترى ابن الرومى والمتنبى،والبحترى وذا الرمة ، ومن إليهم من شعراء العرب يواجهونك بين ثنيات الصفحات ، ومن أجل هذا لم يكن بالمنشىء المبدع ، ولا المترجم الأمين ، وإلا فلو كان السباعى هو صاحب الأفكار التى أودعها رسائله الكثيرة لفاخرنا به كتاب الأرض قاطبة ، لأن رسائله حوت الكثير الطيب من الآراء الفلسفية والأدبية فى نضج وقوة ، فمزيته ككاتب متفوق ترجع إلى قدرته على « هضم » تلك الثروة الأدبية الضخمة التى جمعها من أزاهير الآداب العربية والأوربية وتصرفه فيها تصرف المالك الأصيل

أسلوب السباعى فن كله ، فهو ينحت الكلام نحتا ، ومن أجل هذا يغلب عليه الغموض ، ولكنه مع غموض أسلوبه يقهرك على الاعجاب به لأن ذكاءه يتمثل فى جميع ما كتب وما ترجم ، وقد قال فيه المنفلوطى منذ تسعة عشر عاما مانصه :

«السباعى هو أحد كتاب العصر الممتازين بالبراعة فى الترجمة من الانجليزية الى العربية ، المعروفين بالتمكن فى كلتا اللغتين على قلة المتمكنين فيهما معا ، الا أنه فى ترجمته أميل الى التندر بالغريب وتدوين التراكيب الجزلة منه الى السلاسة والرقة ، ولعا باللغة العربية وشغفا باحيائها ، فمن لا ينظر الى الكتابة بالعين التى ينظر بها اليها يرى فى كتابته أحيانا من التعقيد والمشادة غير مايراه »

ومن أشهر آثار السباعى ترجمته لكتاب الأبطال تأليف كارليل وكتاب التربية تأليف سبنسر ، ورواية المدينتين لديكنز ، ورباعيات الخيام ، وقد وضع كتابا نفيسا عن بيرون ، ونقل من الانجليزية الى العربيـــة فصولا كثيرة جدا لم يوفق الى نقل مثلها أحد من المعاصرين ، فهو من أقطاب الجيل الحاضر بلا جدال

والى القارىء نموذجا من ترجمته لكتاب الأبطال نقتطفه من الفصل الذى كتبه كارليل عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام :

«كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طبائعهم

وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء، وقيعان ذات أمواه وأكلاء، وكان الأعرابى صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلى جمرة النهار يومه ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت

فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر، خفاف الحركة، ثاقبي النظر، وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب لاشك طليانه ، والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة، لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ»

وهذه الفقرة تمثل طريقته فى الترجمة فهو يضيف إلى الأصل معاني جديدة، ولسنا بحاجة إلى مراجعة الأصل لنعرف مازاده السباعى فى هذه الفقرة على كلام كارليل، فمن المؤكد على الأقل أن البيت الذى انتزعه من رائية عمر بن أبى ربيعة وأضافه إلى معاني كارليل بعيد كل البعد عن نص كتاب الأبطال!

*
* *

وبعد فقد كان السباعى من أهل التضحية فى سبيل الأدب ، ضحى بمستقبله وطمأنينته فى بلد لا ضمان فيه لحملة الأقلام ، لقد ابتدأ عمله بالتدريس ، ثم رأى مهنته لاتصلح لغير المتزمتين المتوقرين الذين يرون الدنيا بعيون النائمين ، ورآها كذلك مهنة تفرض على أصحابها النفاق وتروضهم على العزلة والانزواء ، وكذلك آثر حياة الكتابة على حياة التدريس ليطلق لعقله وحسه العنان ، ويعيش عيش الأديب الفيلسوف .

ولكن فى أى عهد كانت هذه المخاطرة ؟ كانت فى عهد مظلم يحيا فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة العوام وحلفائهم من أشباه الخواص !

فان ذكرتم أيها الناس أن السباعى قضى أكثر من عشرين عاما وهو موصول الجد والكدح فى إمداد الجرائد والمطابع والمكاتب بأروع آيات الترجمة والانشاء فاذكروا بجانب ذلك أنه كان يحيا حياة العامل المسخر ، أو الأجير المغبون ، وقد كانت تمر عليه أيام مضجرة لا يعرف أين يكتب ، ومع من يعمل ، وإلى من يتوجه ، وذلك حظ أكثر الكتاب المصريين الذين لاعم لهم فى الحكومة ولا خـــال !

فيا أيها الصديق الذى لم تصافحه يدى ولم تره عيناى ، سلام عليك من إنسان لم يوفق إلى السؤال عنك ، وقد سألت عنه فى صدق وإخلاص ، كأنك كنت تقدر أن أجلك قصير وأن من الخير أن تبادر إلى توديع المعجبين بك من عشاق الأدب والبيان ! والله يعلم مبلغ ندمى على التفريط فى لقائك ، وهو المسئول أن يجزيك على أدبك أحسن الجزاء

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣١

كلمة تستحق الخلود

قرأت ما كتب البلاغ عن حضرة السيد أحمد الهوارى أحد قضاة المحكمة الأهلية فى رباط ، فرأيت لهذا السيد كلمة حكيمة يسرنى أن أوجه إليها القراء مرة ثانية وأن أوصيهم بحفظها بين الكلمات الباقية ، وذلك قوله :

« لقد تملكنى الطرب عند ما لحت رئيس المحكمة يناقش المتهم بعطف ، ويتكلم مع الشاهد بحذر »

تأملوا هذه الكلمة أيها القــراء واحتكموا إليها فى حياتكم الاجتماعية ، فأنتم أيضا قضاة تحكمون بين الناس فترفعون وتخفضون وفقا للعواطف أو الوشايات ، وكم من رجل ضاعت حقوقه بفضل

الظلم الماحق الذى يقع من قضاة المحاكم الاجتماعية ، التى لم يصدر بانشائها مرسوم ولا قانون ؟ إن المغتاب والنمام من شهود الزور ولكن الناس لا يعلمون ، ومن تقع عليهم الوشايات والنمائم هم أيضا متهمون ولكنهم لا يملكون الدفاع ، لأنهم يحاكمون أمام محاكم جائرة لا تسأل المتهم ولا تناقش الشهود

إن المحاكم الأهلية والشرعية فى مصر جديرة بالاجلال لأنها عرفت بانصاف المظلومين

أما المحاكم الاجتماعية فى مصر فتحول الفضاء الواسع إلى سجون وتقضى على الأبرياء بالحرمان من أنفس ما يملكون وهو حسن السمعة وطيب الأحدوثة ، بفضل الحرية القذرة حرية القيل والقال

المواساة الروحية للمؤلفين

كتب الأستاذ محمد عبد القادر حمزة كلمة كريمة بمناسبة تكريم مؤلف النثر الفنى جاء فيها هذا التوجيه النبيل :

« جميل أن يكرم الأدباء فى كل مناسبة ، لأن هذا يدل على أن للأدب فى مصر أنصارا أصبحوا يقدرون جهود العاملين على خدمته تقديرا يشجع الأدباء على مواصلة عملهم الشاق متناسين ما يلاقونه فى سبيل الفن الذى يعشقونه من عقبات ، ولكن هل

يكفي التشجيع الأدبي وحده لدفع الأدباء وحثهم على مواصلة الجهود التي ينفقونها راضين مسرورين في سبيل الأدب المصري؟ هل يكفي أن تقام للأديب أو الشاعر حفلة تكريم تمتدح فيها أعماله الأدبية الشاقة ومؤلفاته الكثيرة التي أنفق فيها زهرة عمره؟ »

ثم مضى حضرة الكاتب المفضال فوازن بين أدباء الشرق وأدباء الغرب، وقال إن أدباء الغرب يجدون من أنصارهم الكثيرين تشجيعاً ماديا يجلب لهم الثروات الطائلة التي تغنيهم وتوفر لهم العيش الرغد والحياة الراضية مدة حياتهم ثم تبقى لورثتهم بعد ذلك أما أدباؤنا فلا يحلمون بشيء مما ينعم به زملاؤهم الغربيون لأنهم لا يجدون من الجمهور ومن أنصار الأدب الرواج الذي يرجونه لمؤلفاتهم

وأجيب الكاتب المفضال بأن ما يحتاج إليه كتاب مصر وشعراؤها ومؤلفوها هو المواساة الروحية، أما الثروة الطائلة التي تنفعنا في الحياة وتعود على أهلينا بعد الممات فتلك علالة لم أشغل بها نفسي يوما من الأيام، وأكاد أومن بأن الغنى فتنة سخيفة تقضي على عزائم الرجال. على أن الغنى ميسور لمن يطلبه من الكتاب والمؤلفين، والغنى هنا هو «الستر» المعروف في لغة التخاطب، فليس لمؤلف إلى «الثروة الطائلة» من سبيل، وكل ما نرجوه في دنيانا أن يتركنا أهل زماننا في أمان من الدسائس والوشايات والأراجيف كل ما نرجوه أن يشعرنا من نصاحبهم ونعايشهم ونزاملهم

بأننا فى بيئة كريمة ترعى العهد وتحفظ الجميـل ، كل ما نرجوه أن لا يشغلنا أحد عن واجبنا فى الدرس والتأليف ، وأن نعيش أحرارا لا يحد من حريتنا شىء غير سلطان الواجب الذى نرى العبودية له كرامـة وعزة ، كل مانرجوه أيها الصديق أن يحملنا إنصاف من نعاصرهم على التأدب بآداب الـكرام من الناس ، وليس الغنى بعد ذلك إلا مشغلة للنفس والقلب والروح

وما رأيك فى أن مؤلف النثر الفنى خرج من حفلات التـكريم بدرس بليغ هو أنفع وأجدى من الثروات الطائلات ؟ لقد كنت يائسا كل اليأس ، وكنت أخشى أن يضيع كتاب النثر الفنى ، وكنت أتوهم أحيانا أنى أورط الناشر وأبدد أمواله بلا رحمة ولا إشفاق ، وكانت نيتى ـ إن ضاع كتابى ـ أن أهجر العلم والمدينة وأعود كما بدأت بين الفأس والمحراث وفى صحبة البقرة والجمل ، أتلهى بأنين الساقيـة ، وعصف الريح بين النخيل والأعناب

كانت تلك نيتى ، وكنت أقترب من النهاية يوما بعد يوم ولـكن المعاصرين من أهل الأدب كانوا أكرم مما كنت أظن فما كاد يظهر كـتاب النثر الفنى حتى أقبلوا عليه وانتشلوا المؤلف من وهدة اليأس والقنوط

إن الذين أقاموا حفلة القاهرة كانوا من الأصـدقاء ، فلا غرابة فى ان يظفر منهم المؤلف بكلمة ثناء

أما الذين أقاموا حفلة الاسكـندرية فلم أكن أعرف منهم غير

الصديق على البحراوى ، وتقدم لمواساتي وتشجيعى رجال لم أعرفهم من قبل ، وذلك بيت القصيد ، فليس بالقليل أن يهتم بك ناس لا تعرفهم فيغمرونك بالعطف والوداد ، على نحو ما صنع الأساتذة عثمان حلمى ، وعبد المعطى حجازى ، وعلى حافظ ، ومحمد فضل إسماعيل ومحمد حلمى

إن الحقائق المعنوية أنفع من الحقائق المادية فى مداواة القلوب والعزائم والنفوس ، وأنا رجل تقشفت واخشوشنت زمنا طويلا ولكنى لم أشك الجوع مرة واحدة، ولن أخشاه فيما بقى من حياتى وكل ما كنت أصبو إليه أن أجد بينى وبين قرائى صلة روحية أنسى بها لؤم الزمان

لقد كنت أنظر فى رعب وفزع إلى الصداقات التى تهدمت من حولى فى الأعوام الأخيرة،وهى صداقات أنفقت فى بنائها ما كنت أملك من كرم الوفاء فى عنفوان شبابى ، ولكن شاء ربك أن تقوم على أنقاضها صداقات جديدة ستكون أقوى وأمتن ، لأنها صادفت النفس فى حالة يأس فردت إليها المسلوب من بقايا الأمل وصبابات الرجاء

لقد عرفت أن الدنيا ليست شرا محضا كما يتوهم المتشائمون ، فان غدر بك صديق فلا تجزع ، ففى الناس خير مدفون ستظهره الأيام ، وإن ضاع منك مأرب فلا تحزن ففى الدنيا مجالات واسعة لمن يعرف كيف يجالد بعزائم الرجال ، وثق بأن حيويتك هى فى

دمك وأعصابك ، وأن من المستحيل أن يهدمك غيرك حين تكون متين البنيان

تلك كلمات أسوقها للكاتب المفضال الذى دعا الناس إلى مواساة المؤلفين بالوسائل المادية ، واني لأشكر له هذه الاشارة ، وأرجوه أن يتذكر أن المواساة الروحية أشرف وأنفع ، وهى من جانب المنصفين عمل جليل نرجو الله أن يجزيهم عليه خير الجزاء

١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤

خطرات

باريس فى ١٩ اغسطس سنة ١٩٣٣

النباتيون فى باريس

للنباتيين مطعم فى الحى اللاتينى لا يعرفه إلا الأقلون ، وكنت منذ ثلاث سنين اختلفت إليه نحو أسبوعين لأكتب عنه مقالا مفصلا لجريدة البلاغ ، ثم انصرفت عنه ولم أعد إليه

وفى هذه الأيام بدا لى أن أرجع إلى النباتيين ، ولم يرجعنى إليهم الا المعدة الضعيفة والجيب السقيم ، وسقم الجيب أسوأ أثرا من ضعف الأمعاء

وقد دهشت حين رأيت رواد المطعم أقل مما كنت أعهد ، وفكرت فى السبب فرأيته يرجع الى أن ادارة المطعم غيرت نظامه فقد كان الطاعمون يخدمون أنفسهم بأيديهم ، وكانوا يأخذون ما يشاءون من الألوان ، ويكررون ما يستطيبون بلا حساب ، أما الآن فقد أمسى الطاعمون يخدمون على الموائد ، ويدور عليهم غلمان مقترون لا يخرجون قيد شعرة عن جريدة المائدة ، وزاد ثمن الأكلة خمسين سنتيما ، وهذا وذاك كان السبب فى انصراف أكثر زبائن المطعم ، وكانوا من قبل يمدحونه ، ويرون فيه المثل الأعلى للفكرة النباتية التى تبالغ فى التحفظ فتحرم السمك والبيض

ولهذه الملاحظة نتيجة لا تخفى على القراء ، فأكثر الناس يتفلسفون وليسوا فلاسفة ، ومنهم من يخفى أطماعه وأغراضه بستار من المذاهب الأدبية ، والأخلاقية ، ومنهم من يدافع عن رأى لا يؤمن به ، ولكنه يرى فى الدفاع عنه بعض النفع

اللحميون والنباتيون

يرى النباتيون أن الانسان نباتى فى أصل الخلقة ، وحجتهم أن أنيابه أضعف من أن تنهش اللحم ، بدليل أنه لا يستطيع أكله إلا مطبوخا أو مشويا ، فاذا قدم له اللحم نيئا عجز عن مضغه ، وهو إذا استطاع مضغه بعد تليينه ببعض التوابل كان معرضا للحمى الفاتكة ، كما يقع ذلك لأكلة اللحم النيء فى بعض الأقطار الافريقية

وعندى أن الانسان لحمى أيضا بالفطرة ، ولا عبرة باحتياجه

إلى شى اللحم وطبخه ، فانه وصل إلى هذا بذكائه والذكاء للانسان كالناب للأسد، ألا ترون كيف تحمد الشجاعة فيمن يصاول أسدا مع أنه لا يستطيع ذلك إلا بقوة السلاح ؛ والسلاح من عـــدة الانسان الطبيعية ، فهو الذى اخترعه وهو عنده كالأنياب والمخالب عند السباع

وقد جربت بنفسى أثر العيشة النباتية فرأيتها خطرة العواقب : لأنها تخمد جذوة الافتراس فى الانسان، واللحم هو أصل الافتراس أما النبات فيفطر آكليه على الوداعة واللين ، ولو شاء القط على نحافته لروع الجمل على ضخامته ، لأن القط آكل لحم ، والجمل آكل عشب . وفى الأيام التى أقتصر فيها على المواد النباتية أرانى هادئا مسالما لا أفكر فى مهاجمة أحد من خلق الله ، ولعل هذا هو السر فى أن الأستاذ فريد وجدى صار من ألين الكتاب قلما ، فهو لا يجادل إلا بالتى هى أحسن ، ولا ترى فى كتابته جملة واحدة تحمل معنى من معانى العنف .

وقد جادلته مرات على صفحات البلاغ فكان لطيفا رفيقا ، أما أنا فكنت أتلطف وأترفق ، والفرق بعيد بين من يرق ويلطف بالطبع ومن يتكلف الرفق واللطف

اللحم والشهوات

ومن مزايا الحياة النباتية أنها تخمد الشهوات ، وفى هذا شىء من الخير ، ولكنى أخشى أن يكون فيه كذلك شىء من الشر ، فان

الشهوات هى أساس العظمة المدنية ، ولو خمدت شهوات الناس لفقد العالم ثلاثة أرباع ما فيه من المصانع والمتاجر والمكاتب . ولكل عظيم من عظماء العلم والأدب والسياسة شهوة حفزته إلى ميادين المجد، والشهوات مصدرها أكل اللحم ، فلو قاطعناه وتابعنا النباتيين لعدنا فكرة مسالمة فى هذا الوجود ، والمسالمون هم أقل الناس حظا فى الحياة لأن الحياة عراك ونضال وقتال

ولو استقصينا مذاهب المصلحين فى العالم لرأينا اللحميين كانوا أنفذ أثراً من النباتيين . وفى الموازنة بين الاسلام والمسيحية تفسير لذلك ، فقد ظلت المسيحية معطلة حينا من الزمان إلى أن قام بأعبائها رجال أشداء ، أما الاسلام فنهض على أكتاف أبنائه منذ اللحظة الأولى ، لأن القرآن نهى من امتنعوا عن أكل اللحم بقوله (ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) فهو يروضهم على القوة ، ولكنه ينهاهم عن الاعتداء ولا ينهى عن الاعتداء إلا الأقوياء ، أما الضعفاء فيوصون بالصبر والاحتمال

وحال الانسان كحال الطير والحيوان : ففى عالم الطير لايكون الجوارح إلا من أكلة اللحم ، والحمامة يضرب بها المثل فى الوداعة لأنها من أكلة الحبوب ، وفى عالم الحيوان لايكون الافتراس إلا من أكلة اللحم ، أما أكلة الاعشاب فضعاف ، وهم وحدهم المسخرون للانسان من دون سائر الحيوان

المسلمون والأقباط

وهنا فكاهة لابد من إيرادها ترويحا للنفس ، فقد سألنى أحد رواد المطعم عن وطنى ، فأخبرته أننى مصرى . فسأل : أكنت تأكل اللحم فى بلدك ؟ فقلت : إى والله ! فقال : أنت إذن قبطى . فقلت : لا ، أنا مسلم ، فقال : وكيف تأكل اللحم وتخالف مواطنيك من المسلمين ؟

وأردت أن أعرف سر هذا الجهل الطريف فقدم لى نشرة نباتية فرأيت فيها ما ترجمته :

«ومما يدل على أن اللحم مضر وأنه يسير بآكليه إلى الانقراض أن أقباط مصر صاروا على الزمن أقلية صغيرة جدا ، فقد آثروا سكنى الحواضر واستمروا يأكلون اللحم ، بخلاف المسلمين فى مصر فانهم يسكنون الأرياف ولا يأكلون غير البقول ، ولذلك صحت أجسامهم ، وطالت أعمارهم ، وكثرت ذريتهم حتى شارفوا فى العدد أكثر من خمسة وتسعين فى المائة من مجموع السكان وذلك بفضل الحياة النباتية التى درج عليها المسلمون هناك »

ومن الواضح أن هذا جهل ، فان أقباط مصر قد يكونون نباتيين أكثر من المسلمين بسبب الصوم الذى يمتنعون فيه أشهرا عن لحم الحيوان وما يستخرج من الحيوان

ضجيج المعروف

تطل الغرفة التى أسكنها على شارع هادئ يصل شارع المدارس بشارع مونج ، وفى الشوارع الهادئة يتجول المغنون فى الطرقات . وبالأمس قبيل العشاء (بفتح العين) وقف مغن رخيم الصوت وبصحبته زمار لبق ، وأخذ هذا يزمر وذاك يغنى ، وأقبل السا كنون من الجانبين يتطلعون من النوافذ ، واجتمع الأطفال حول الزامر والمغنى ، وبعد لحظات شرع السا كنون يرمون أوراقا ملفوفة فيها نقود ، ولاحظت أن بعض الأوراق يسقط فلا يسمع له ضجيج ، وبعضها يرن رنينا قويا صخابا ، وتأملت فعرفت أن الأوراق التى لا يسمع لها ضجيج هى الأوراق التى تحمل نقودا قيمة من فئة الفرنكات ، أما الأوراق الصخابة فتحمل فلوسا سخيفة من نوع الخردة ، وقد اتفق أن لففت جملة من هذا النوع تساوى أربعة ملليمات وألقيت بها إلى المغنى ، فضج بها الشارع ضجيجا مفزعا وكانت مع الأسف ملفوفة فى ورقة تحمل حروفا عربية ، فأسرعت وداريت وجهى حتى لا يقول المغنى : من أين جاء هذا الاعرابى البخيل !

أيكون المعروف كذلك فى جميع الأحوال : يصمت فلا يتكلم حين يكون نفيسا ، ويصخب ويثرثر حين يكون سخيفا ؟ إن الرجل الذى يصنع المعروف للمعروف يكون فى الأغلب من الصامتين ،

ويكون كذلك من الأسخياء الذين يخجلون من إعطاء القليل ، أما الذى يصنع المعروف حبا فى الثناء فهو ثرثار صخاب ، وهو فى الأغلب يجود جود الأشحاء ، وقد يكون ممن عناهم المتنبى حين قال:

جود الرجال من الأيدى وجودهمو
من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وجود اللسان هو أكثر مانرى فى هذه الأيام ، فكم رجل تلقاه فيحدثك بأنه معجب بك وأنه لا يذكرك إلا بالخير فى غيبتك ، فاذا جد الجد وعلم أن كلمة الخير تؤدى إليك بعض المنافع أسرع فطواها عنك فى المحضر والمغيب ، ثم اندفع فقال فيك ما يقول السفهاء

فيارب إن الناس لا ينصفوننى وكيف ولو أنصفتهم ظلمونى

الأمم والحكومات

تعود الشرقيون منذ أجيال طوال أن ينتظروا من حكوماتهم كل شيء ، مع أن الحكومات لم تقم فى الاصل على خدمة الشعوب إنشاء وتعميراً ، ولكنها قامت على أساس الفصل بين الناس حين يختصمون ، ودفع عدوان القوى على الضعيف . ونظرية الحكومة تفترض ذلك ، لأنها فيما توهم الفلاسفة نشأت عن نزول كل فرد

عن جزء من حريته ليتكون من تلك الحريات مجتمعة سلطة تقوم بها هيئة تنفيذية تتولى حفظ التوازن فى حياة الشعوب

ولكن الأمر انعكس فى الأمم الشرقية ، ولعل السر فى ذلك أن الحكومات فى الشرق تتكون فى الأغلب من رجال هم الصفوة الممتازة من حيث الثقافة والمال ، فتعود الناس أن يروا صورة الأمة فى وجه الحكومة ، ونتج من ذلك أن خمد النشاط الشعبى خمودا مخجلا . وانطلق الأفراد يتكلون على حكوماتهم فى كل صغيرة وكبيرة ، حتى ضخمت السلطات الحكومية ضخامة هائلة ، وصارت الأمم تعرض للخوف والجوع إذا تولت الأمر حكومة جائرة أو ضعيفة ، وذلك مصير كل أمة لاتعتمد على نفسها ولا ينصب لها فى دفع الشدائد ميزان

فان شاء القارىء مثالا لهذا الرأى فانا نقدم له الحكومة المصرية وهى الحكومة التى تنفق أكثر من ثلث إيرادها على الموظفين ، فهى حين تكسب دينارين بيد الموظف تعطيه نحو النصف وتأخذ النصف والنصف الذى تأخذه لن يدخر ، ولكنه يعود رأس مال يعمل به موظف جديد ، وهكذا دواليك !

وقد يقال إن هذا لاخطر فيه فان الحكومة حين تحتكر الأعمال الانشائية إنما تؤدى عملا هو فى روحه من الأعمال الشعبية ، وهذا فى ظاهره حق ، ولكنه فى صميمه ضلال ، فان الموظف الحكومى لايعمل إلا معشار مايعمل الرجل الحر ، ولوشئت لضربت المثل بمطبوعات دار الكتب المصرية فان كتاب الاغاني يقوم بتصحيحه

ثلاثة من الموظفين الأدباء ، وقد أخرجوا خمسة أجزاء فى ثمانية أعوام، فتكلفت هذه الاجزاء الخمسة ألوفا من الجنيهات ، ولو قام بتصحيح الأغانى أديب غير موظف لأخرجه كاملا فى عامين ، وربحت الأمة ذلك الفرق الهائل المسبب عن شلل الآلات الحكومية[1]

ومثل ذلك يقال فى أكثر الأعمال التى تقوم بها الحكومة والتى أذاعت المثل المعروف « يوم الحكومة بألف » ولو تلفتنا إلى الأمم الأجنبية لرأينا الأعمال العظيمة لا يقوم بها غير الهيئات الشعبية ، وهى هيئات تتنافس وتختصم فى سبيل الكسب الشريف ، فالمواصلات الأساسية وطرائق التعمير والانشاء تقوم على كواهل الافراد أو الجماعات الحرة ، ووظيفة الحكومة أن تراقب وتعاون إذا اقتضى الحال ، ولذلك أثر فعال فى إذكاء الحماسة الفردية ، فالشاب المتوثب إلى العمل الحر يجد أسبابه حيث اتجه ، ويثق ثقة مطلقة بأن حظه فى يده ، وأن النشاط والاستقامة خليقان باحلاله المحل الذى يليق بمواهبه الخلقية والعلمية ، وبذلك لا يتخلف إلا العجزة الضعفاء

والذين يحيون هذه الحياة يجدون وقودا لمواهبهم فى كل وقت لانهم يستمدون الغوث من قلوبهم وعزائمهم ، ولا يرجعون إلى حكوماتهم إلا عند الفصل فى الخصومات

ولك أن ترجع إلى ملفات المحاكم الأوربية والمحاكم المصرية فترى القضايا الشخصية عند أهل أوربا فى المحل الثانى ، أما قضايا

(١) وليت هذه الأعوام الثمانية وآلاف الجنيهات أنتجت من عمل الأدباء الثلاثة ثمرة ناضجة اهـ مصححه

الشركات والجمعيات فلها المكان الأول ، لأن الناس هناك يختصمون في سبيل الدنيا ، أى فى سبيل المادة التى تخفض وترفع ، والمادة هى أساس المدنية فى هذا العصر ، واشتباك المنافع المادية هو أساس العظمة عند شعوب هذا الزمان . أما محاكم مصر والشرق فللمنازعات الشخصية فى ملفاتها مكان بارز كل البروز ، وإذا اختصم الشرقيون خصومة مالية فثق كل الثقة أن أغلبها يدور حول المال الموروث ، أما النزاع على المكاسب الجديدة العصامية فنزاع لا نعرفه إلا قليلا وفيم نختصم وأقوانا ساعدا هو من يحتفظ بتراث أمه وأبيه ؟!

وهذا يرجع كما قلت إلى الاتكال على الحكومة التى تحتكر عظائم الأعمال ، فصار أغنياء العصر هم الوارثين والموظفين ، أما الوارث فلأنه استند إلى ماترك الأموات ، وأما الموظف فلأنه اعتمد على منافع ثابتة هى مرتبه الذى يناله بأيسر جهد

وقد نبتت فى هذا العصر ناشئة جديدة تريد الاقدام على الأعمال الحرة ، ولكنها حين تتصل بالصحف تكتب أول ماتكتب فى الشكاية من المحسوبية ، فهم إذن يتصنعون شمائل الأحرار ، فيسير الشاب منهم ولسانه ومظهره يغريان بالحياة الحرة ، ولكن قلبه قلب الشاب القديم الذى درج على حب التمرغ فى وحل الميرى وترابه، والعياذ بالله !

إن مصر لاتشكو ظمأ ولا جوعا ، لأنها بلد خصب لايموت فيه أحد من الجوع ، ولكنها تشكو فقد العزائم والنفوس ، ففيها وحدها يعز الموظف وهو ذليل ، وفيها تقاس أقدار الناس بما يقبضون، والموظف

الذى يزيد مرتبه خمسة ملليمات عن مرتب زميله يشعر بالتفوق عليه لأن الخمسة الملليمات لم تزد عبثا ، وإنما كانت دلالة على أنه عبقرى موهوب !

والعظمة النفسية قلما تكسب صاحبها مجدا فى هذه البلاد ، لأنها تبعده عن مواطن الكسب فى أرض لا يتولاها إلا الحكوميون، ولهذا يمشى الرجل الكريم منكس الرأس ، لأنه يعرف أن أهل بلده يرون فى وجهه صورة الرجل المغبون

وإلام يستمر هذا الحال البغيض ؟ لقد طفح الكيل ، ولم يبق إلا أن يفكر الناس تفكيرا جديا فى صيانة العظمة النفسية من عدوان المطامع والاغراض

ألا ترون أن الشركات الأهلية أعزت أصحابها ، ألا ترون أن طلعت حرب على كرسيه في بنك مصر أعز من أكبر وزير تعصف به أهواء السياسة صباح مساء ؟

فلم لا يقبل المصريون على أمثال هذه المنشآت فيصيرونها عشرات ومئات ليقوا الشباب عادية التملق والتزلف إلى الوزراء والوكلاء ؟

إن مرض التوكل على الغير مرض وبيل ، وهو السبب في قتل المواهب فى مصر والشرق، وحرب هذا المرض فرض على الكتاب والشعراء والخطباء ، فليذكر كل مفكر أن من واجبه أن ينقذ العظمة النفسية من هذا الداء ، وليتذكر أن كل شاب يوجه وجهة صالحة إنما

هو حجر سليم فى بناء هذا الجيل الجديد . ألا قد بلغت ، اللهم اشهد !؟

٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٣

اشجان

أنا أكايد زمانى !

جرت بينى وبين صديق عزيز المحاورة الآتية :

الكاتب ـ أتذكر الشاعر الذى قال :

أبكانى الدهـــر ويا ربمـــا أضحـــكنى الدهر بما يرضى

وغالنى الدهر بوفر الغنى فليس لى مال سوى عرضى

لولا بنيات كزغب القطـــا رددن من بعـــض إلى بعض

لكان لى مضطرب واســـع

فى الأرض ذات الطول والعرض

وإنما أولادنا بيننـــا أكبادنا تمشى على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض

الصديق ـــ نعم ، أذكره

الكاتب ـــ وتذكر أنك تحدثت عنه فى جريدة البلاغ ؟

الصديق ـــ نعم

الكاتب — وتذكر أنك جعلته من مفاخر مصر الشاعرة

الصديق — ولا زلت أقول بذلك

الكاتب — فاتك أن تلاحظ أنه شهادة على مصر !

الصديق — وكيف ؟

الكاتب — إن هذا الشعر يدل على أن مصر كانت فى أيامها الخوالى، كماهى اليوم ، تغل بنيها من الكتاب والشعراء ، وتسومهم سوء العذاب !

الصديق — ليقل هذا غيرك ، ياسيد زكى ، فان الدنيا تنتظرك ألست على أهبة الرحيل إلى باريس ؟ أو ليس معنى ذلك أنك فى حياتك حر طليق ؟

الكاتب — لا ، ياصديق ! لا شىء مما ظننت ، فليس فى حياتى طلاقة ولا حرية ، ولكنى أكايد زمانى !

الصديق — تكايد زمانك ؟ نعم ماتفعل ، وليتك تدوسه بقدميك !

فيا أصدقائى فى مصر . كايدوا زمانكم ، كما كايدت زمانى

وأنت يادنيا . إنك لأرخص من أن يحزن فى سبيلك رجل نبيل

الوطن الغالى

رحلت عن مصر خمس مرات ، وكنت فى كل مرة أغمض عينى عند صفير الباخرة حتى لا أودع شواطىء الاسكندرية ولا أفتن

النفس بفراق ذلك الثغر الجميل ، وكان سر ذلك أنى كنت أشعر دائما بأنى أعيش فى وطنى عيش المغبون ، وكانت تمر بى لحظات ضجر وملال أكاد أمزق فيها مذكراتى عن اللغة والأدب ، وهى مذكرات نفيسة تعد بالألوف ، وكنت أقول : لمن أصنع هذا الصنيع وأين التلامذة النجباء الذين أصفيهم هذا الكنز الثمين

وكان يحزننى أن أوقن أن أحجار مصر لاتنطق ، ولو نطقت لأثنت على أبنائها الأوفياء .

وكانت الآمال التى بددتها الليالى تتمثل لخاطرى كلما حان الرحيل فأتجلد وأتكلف الصبر على فراق الوطن الغالى ، وأسرع إلى مخدعى فى قرار الباخرة لأتناسى لحظة الوداع

وفى هذه المرة صنعت مثل الذى كنت أصنع ، ولكن لم تمض دقائق على فراق الشاطىء حتى سمعت باخرة تصفر صفير التحية ، فتطلعت فرأيتها باخرة عائدة إلى الارض المصرية ، وعندئذ خفق قلبى خفقانا شديدا ، وقلت فى تحرق وتلهف :

« ما أسعد العائدين ! »

قهوة سوفليه

هل يعلم أستاذنا الدكتور منصور فهمى أن قهوة سوفليه أغلقت وحل محلها الخراب ؟

لقد كانت هذه القهوة منتدى الطلبة المصريين منذ عشرين عاما وكان للدكتور منصور فيها ذكريات ، وفى إحدى غرفاتها اجتمع

به الطلبة الشرقيون من مختلف الأقطار وألفوا جمعية كانت تسمى « الاخاء الاسلامى » وفى أبهائها رنت أصوات الخطباء باللغة العربية دفاعا عن الاسلام

كانت تلك القهوة فى أجمل بقعة من بولفارسان ميشيل ، وكان الجالس هناك يستقبل ببصره الشره من ترميهم الأهواء من البولفار أو شارع المدارس أو شارع مدرسة الطب أو شارع راسين ، وكانت بطبيعة موقعها مألف ظباء ، وكان الصيد فيهـــا مباحا إلى أخريات الليل ، وكانت فى أيامها الأخيرة ناديا للكسالى الفضلاء من الطلبة المصريين . وأحسب أنه لم يسقط طالب مصرى سقطة علمية أو خلقية إلا ولقهوة سوفليه نصيب من الفضل فى ذلك السقوط . ولهذا شهد الطلبة إغلاقها بقلوب حزينة ، وعيون دامية ، ولم يمنعهم من الموت جزعا عليها إلا التمسك بأهداب الصبر الجميل !

لقد تفرق رواد قهوة سوفليه ـ وا أسفاه ! ـ فذهب فريق إلى قهوة السورس ، وفريق إلى قهوة الكابولاد ، وأصبح سوفليه وكأن لم يغن بالأمس ولم يبق فى أذهان عشاقه إلا مغالطات الجرسون حين يدور الرأس ويعزم اللب على الرحيل !

الدنيا فانية ، حتى دنيا باريس !

باريس فى ٢٨ يوليه ١٩٣٣

*

المكتبة المصرية

المكاتب من أهم المقاييس فى تقدير الحضارة والمدنية ، فهل عندنا مكاتب تمثل يقظتنا العقلية والأدبية ؟! لننظر أولا فى القاهرة ، هل يوجد فيها مكتبة واحدة تمثل نهضة الأدب الحديث ، هل توجد مكتبة كل ذخيرتها مما أبدع المعاصرون فى العلوم والفنون والآداب لا تذكروا مكاتب الفجالة ، فهى على كثرتها مكاتب مدرسيـــــة ، والكتب المدرسية لو وضعت عند باعة الخبز والفول لذهب الطلبة فاشتروها من هناك ، ولا تذكروا المكاتب الأزهرية ، فليس فيها كتاب من الأدب الحديث ، وهى مع ذلك لا تمثل شوق المصريين إلى الدرس لأنها فى الأغلب تباع فى غير مصر ، ويقرؤها طلاب العلوم الدينية واللغوية فى بقية الأقطار الاسلامية . فماذا يبقى فى القاهرة من المكاتب ؟ كان عندنا ناشر مصرى هو صاحب المكتبة التجارية وكان يهتم بالادب الحديث ! ولكن الأيام علمته كيف يقبل على الكتب القديمة فيبعثها من مراقدها ليتصل بالمسلمين فى جاوى والهند ،وتلك رجعة خطرة ستكون من مقاتل الأدب الحديث

والاسكندرية ؟! من كان يظن أن تلك المدينة العظيمة ليس فيها مكتبة واحدة مصرية ، مع أن فيها مكاتب كثيرة لنشر المطبوعات

الفرنسية والانجليزية والايطالية . قد يكون فيها مكتبة أو مكتبتان من النوع الهزيل الذى يفضحنا إذا قيس بما هنالك من المكاتب الاجنبية . هذا والاسكندرية هى العاصمة الثانية وفيها من المدارس والمعاهد مايغرى بالتفنن فى إنشاء المكاتب ، لو كان عندنا قراء يقبلون على الأدب الحديث . وبور سعيد ؟ إن القارىء يجب أن يعلم أن بور سعيد تزدان بطائفة من المكاتب الأجنبية ، وليس فيها مع ذلك مكتبة مصرية واحدة ، فكيف كتب الكسل والتغافل والخمود على أهل هذه البلاد ؟

وأسيوط ؟ أسيوط المدينة الرشيقة التى تعد عاصمة الصعيد ، هل فيها مكاتب مصرية ، وهل يستطيع المتشوف أن يصل إلى كتاب حديث وهو فى تلك المدينة الحافلة بالأندية والمدارس والمعاهد ،

وأسوان ؟ أسوان المدينة التى يؤمها ألوف الأغنياء والمثقفين فى كل شتاء ، هل استطاع المستنيرون فيها أن يبيضوا وجه مصر بمكتبة واحدة تذكر بأمثالها فى المدن التى يزورها كبار الناس ؟

إن فقر « المكتبة المصرية » عار على مصر ، وهذا العار يحمل أوزاره المتعلمون الكسالى الذين يقل تطلعهم وتشوفهم إلى مايجد فى سوق العلوم والفنون والآداب . وبعض هذا العار يرجع إلى الأساتذة الذين يندر أن يحدثوا تلاميذهم عن كتاب جديد ، وكيف وأكثر المدرسين يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش وهم على غفلتهم يتعالمون ويتفاصحون ، لأن الزمن الغادر مكن الكسالى

من دور التعليم والتثقيف ؟ !

في مثل مدينة القاهرة من المدن الأوربية والأمريكية توجد مكاتب خاصة بالطب ، ومكاتب خاصة بالقانون ، ومكاتب خاصة بالفلسفة ، ومكاتب خاصة بالأدب ، ومكاتب خاصة بالطيران ، ولكن عاصمتنا لا توجد فيها مكتبة واحدة تجمع ما أبدع المعاصرون في تلك الفنون ، فياضيعة العلم والأدب فى هذه البلاد !!

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٣

بعض الحقائق

يحلو لبعض الناس أن ينشر شذرات فى الصحف تحت عنوان «هل تعلم» ؟ كأن يقول : هل تعلم أن الانسان يمشى على ثنتين وأن الجمل يمشى على أربع ؟ وهل تعلم أن النيل اسم نهر ، وأنه يجرى فى بلاد تسمى مصر ؟ وهل تعلم أن الارض هى الأرض وأن السماء هى السماء ؟ !

وقد رأيت أن أسلك هذا المسلك فى هذه الكلمة القصيرة فأنشر هذا السؤال :

هل تعلم أن لغة الدواوين فى مصر هى اللغة الانجليزية فى كل قلم يرأسه رجل انجليزى ؟

تأمل هذا السؤال وافهم جيداً أنه حق ، ففي كل وزارة وفي كل مصلحة ، يوجد عدد من الموظفين الانجليز أصحاب النفوذ ، وهؤلاء يفرضون الانجليزية على مساعديهم من المصريين ، فلا يكتب خطاب إلا بالانجليزية، ولا يدون حساب الا بالانجليزية، ولا تحرر ملفات الأعمال إلا بالانجليزية ، ولا تلقى تحية الصباح الا بالانجليزية !

ولك أن تسأل عن مصير الموظفين الذين يراضون هذه الرياضة السكسونية ، والجواب سهل فهم الجيش المنظم الذى يتململ صباح مساء من فقر اللغة العربية ، ويتكلم فى القهوة وفى الطريق وفى الديوان عن محاسن اللغة الانجليزية . ولهم العذر فى ذلك ، فانهم لا يرون السلطان لغير الانجليزية ، والألفة باب الى الحب ، أما اللغة العربية فمهجورة لديهم ، والهجر باب الى البغض .

أفتونا أيها الناس

إن أولئك الانجليز موظفون فى الحكومة المصرية ، وكان مفهوماً أنهم يؤدون امتحانا فى اللغة العربية ، فكيف ساغ أن يتجاهلوا أول شرط من شروط الخدمة ، وكيف لان المصريون فرضوا أن تكون السيادة فى الدواوين للغة غير لغة البلاد ؟!

إن التهاون فى هذه المسألة سهم يصوب الى صدر القومية المصرية فان الموظف الناشىء الذى يكتب فى الديوان بلغة غير لغته تروضه الحوادث يوما فيوما على الاطمئنان الى أنه فى وطنه ذيل لا رأس وفى هذا تبديد للقوة المعنوية فى نفوس الموظفين

إن الحكومة المصرية تبالغ فى مجاملة بعض الناس ، وتنسى فى سبيلهم مايوجب العدل والذوق ، فهل آن لنا أن نعرف أن المجاملة قد تكون أحيانا شارة الضعف ، وأن الضعيف المجامل لايقابل فى الأغلب بغير الجحود ؟؟

١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣

حيرة مؤمن

بين الورق والذهب

كنت أحرر جريدة الأفكار فى سنة ١٩٢١ وكان البريد يحمل إلينا رسائل كثيرة يشكو فيها الأسكندريون من ضريبة الملاهى التى تفرضها البلدية ، وكنت بعد قراءة كل رسالة أتململ وأقول : « ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ أتخدمهم البلدية بالمجان ؟ !

وفى صيف ذلك العام ذهبت إلى الأسكندرية أصطاف ، وفى أحد الأمسية توجهت إلى ملهى على الشاطىء ، ودفعت خمسة قروش ثمن تذكرة ، فلما هممت بالدخول دفعنى الحاجب وقال « هات قرش البلدية ! »

فغضبت وقلت . « الآن عرفت أن شكوى الأسكندريين

حق ، وأن عمل البلدية باطل ! »

ولما عدت إلى القاهرة أخذت أنشر رسائل الأسكندريين ضد البلدية ، وأضيف اليها بعض الفقرات !

وفى شتاء هذا العام هاج قدماء الموظفين من الأجانب يطلبون قبض معاشاتهم ذهبا لا ورقا ، فكنت أتململ وأقول :

« ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ أيسعون لتنفيض خزانة الحكومة المصرية ؟ »

والآن ، وأنا أتأهب لحج بيت الله الحلال فى باريس ، أفكر فى مرتبى الذى أتناوله من البلاغ ، وأنظر كم يكون بالعملة الفرنسية فأراه لا يسقينى ماء فى بلاد لا تشرب الماء ، ثم أفكر فأرى أن الذين طلبوا معاشاتهم ذهبا لم يكونوا على ضلال !

فيا أيتها الحكومة الكريمة ، ادفعى ذهبا !

ويا أيها البلاغ الكريم ، ادفع ذهبا !

٢٩ يونيه سنة ١٩٣٣

*

بعض المدارس الاهلية

لا أذكر أنى كتبت شيئا فى مهاجمة المدارس الأهليـة . لأنى أعتقد أنهـا أدت خدمات كثيرة كانت تعجز عنها وزارة المعارف العمومية ، والاعانات التى تمنحها الحكومة لتلك المدارس هى الشاهد على صدق ما أدت من الخدمات ، فان وزارة المعارف لاتعين المدارس الأهليـة على سبيل الصدقة والاحسان ، ولكنها تعينها على أساس أنهـا تؤدى خدمات علمية كان من واجب الوزارة أن تؤديها لو ساعفتها الظروف

وقد أكثر الناقدون من اتهام أصحاب المدارس الأهليـة بحب المـال ، ولم أشأ أن أشاركهم فى ذلك ، لأن التعليم من أبواب الرزق ومن حق المعلمين ونظار المدارس أن يطمعوا فى الرزق الحلال

ولكن خبرا صغيرا تافها طرق أذنى عن بعض أصحاب المدارس الأهليـة فاقشعر له بدنى وتمثلت فيه أشباح الخطر المخيف . والخبر صغـير تافه كما قلت ، ولكنى أراه ينذر بسيء العواقب ، وهو يتلخص فى أن بعض نظار المدارس الأهليـة لايرى مانعا من أن

يدخل التلميذ إلى مكتبه وفى يده سجارة

إنه لخبر صغير حقا ، ولكن مارأى القارىء فى أنه ينذر بداهية شعواء . إن عادة التدخين عادة سيئة حين يعرفها الرجال ، فكيف يكون قبحها حين يتعودها الأطفال

إن عادة التدخين عند الشبان هى السبب الأول فيما ينحدرون إليه من سفالة الأخلاق ، والقارىء قد يعجب من ذلك ، لأن السجارة قليلة الخطر ، ولكن عجبه يذهب حين يعلم أن التدخين يفتح للتلميذ نفقات إضافية لاتقل عن خمسة قروش فى كل يوم ، ومن أين يجد المسكين هذه القروش حين تضطره المحرجات إلى كتمان مرض التدخين عن أهله وذويه ، لاتعجبوا إن قلنا لكم إن الأمراض الأخلاقية التى تهدد شبان اليوم مصدرها التدخين ، فالشاب حين يقترض ثمن السجائر من جار أو رفيق قد ينتهى إلى حقارة نفسية يضيع بها عليه الشرف أغلب الأحيان

والناظر الذى يستقبل التلميذ فى مكتبه ويراه يدخن ولا ينهاه ما قيمة ذلك الناظر بين رجال التربية والتعليم !؟ إن قبول هذه الصغائر أو السكوت عنها لايليق برجل يتصدر لتهذيب الناشئين وجبن الناظر عن طرد تلميذ يبث عادة التدخين بين إخوانه هو جبن أمام القناعة وضبط النفس عن حب المال ، فان التلميذ فى بعض المدارس الأهلية لاقيمة له إلا ما يقدم من المصروفات المدرسية ، وتلك المصروفات تعود أحيانا من الحرام البحت الذى يتورع عنه

كرام الناس

إن حرم المدرسة يجب أن يصان من كل دنس ومن كل زيغ ومن كل انحراف ، ويجب أن يعلم النظار والمدرسون أنهم لا يستطيعون رياضة الطلبة إلا إن عرفوا بالحزم ومتانة الأخلاق

والناظر المتهاون الذى يرى بعينه انزلاق الطلبة إلى مهاوى الترف السخيف ثم لا يطردهم أو لا ينهاهم هو رجل يخاطر بمدرسته مخاطرة حمقاء ، فان التلميذ الفاسد يشعر فى أعماق نفسه باحترام الناظر الذى يفهم واجبه ، فلا يظن بعض النظار أنهم يتوددون الى التلامذة ويقربونهم اليهم بالتسامح فى الصغائر التى تجر الناشئين الى مهاوى الضلال

ورجال التربية مسئولون عن اصلاح الفاسدين ، وهم خليقون بالنقمة إن تسبب تهاونهم فى إفساد الصالحين ، ومهمة المربى أن يكون جيشا للفضيلة فى معهده بحيث ينساق التلميذ الفاسد الى التخلق بأخلاق الفضلاء — وعندئذ تقوى الوحدة الروحية والخلقية فى المعهد ويرغم ضعيف الخلق على الاقتناع بأنه فى غربة موحشة لا ينجيه من أهوالها الا الاقلاع عما درج عليه من سيء الخلال

إن بعض النظار والمدرسين يتظاهرون بالانطباع على شمائل الأغنياء ، والأغنياء كانوا ولا يزالون من أهل التسامح مع أبنائهم وهو تسامح له ذكر عاطر فى المحاكم ومعاقل البوليس!

فليلزم رجال التربية حدود الخشونة ، وليذكروا أن من الشرف

ان يفهم الناس أنهم عمال يحملون الأحجار فى بناء النهضة العلمية والخلقية ، وليفهموا جيداً أن الأمة لاتريدهم سماسرة ترف ولين في الحانات والمراقص غنى عن ذلك ، وإنما تريدهم الأمة جنوداً مخلصين يحمون العرض والعقل من عادات النزق والطيش

هى سجارة فقط ، نعم ولكن بعدها الكأس ، وإذا عرف التلميذ الكأس فقد انتهى إلى مصاير السفهاء ، ومن ذلك ترون أنه لاغرابة أن تتقزز النفس ويقشعر البدن حين نسمع أن من نظار المدارس الأهلية من يستقبل تلميذا فى مكتبه وفى يده سجارة ، فقديما قيل « ومعظم النار من مستصغر الشرر »

إن التسابق إلى الحزم والرجولة أولى بحميتكم وحماستكم يانظار المدارس الأهلية ، فان لم تفعلوا ــ وستفعلون ــ فانكم تهدمون مدارسكم من حيث لاتشعرون

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٣

*

التعليم فى فرنسا

باريس فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٣٠

تعد فرنسا من الأمم التى تعنى عناية شديدة بنشر التعليم . ومعروف أن التعليم الابتدائى إجبارى للبنين والبنات ، ولكن ليس معنى هذا أن الأمية انقطعت وذهبت آثارها من هذه البلاد كما يتوهم من يظنون أن أوربا تفوقت فى كل شىء ولا ينقصها شىء ، فان الواقع أن عشر الفرنسيين أميون على وجه التقريب ، والقوم يعرفون ذلك ويأسفون على أن لم تمكنهم الظروف من نشر التعليم الابتدائي بطريقة حازمة تقطع دابر الأمية ، وتصون سمعة فرنسا بين العالمين .

لكن ماهى الأسباب التى تحول دون نشر التعليم فى أمة تفرض على أبنائها أن يتعلموا ، وتعاقب المتخلفين منهم ، وتفتح لهم المدارس بالمجان ؟

أكبر السبب يرجع إلى صعوبة الانفاق على الأطفال فى المدارس الأولية والابتدائية ، وصعوبة الانفاق هذه لا ترجع إلى أن الآباء يدفعون مصروفات مدرسية ثقيلة الأداء ، كلا ، ولكنها ترجع إلى أن المدارس مجانية فى الظاهر ، ولكنها فى الواقع تتطلب كثيرا

من النفقات ، وإلى القارىء البيان : —

ليس فى المدارس الأولية تدفئة فى الشتاء ، ولا يمكن الأطفال بالطبع أن يتحملوا برودة الجو وهم يتعلمون ، فمن الواجب عليهم لأنفسهم أن يقوموا باحضار مواد التدفئة ، وكذلك يحضر كل طفل فى الصباح ومعه كتلة من الخشب لاتقل عن أقة ومن مجموع مايحضر الأطفال من الخشب يتكون الوقود الكافى لتدفئة الفصول ، وهذه الكتلة من الخشب ليست بلا ثمن ، فقد تبدو غالية جدا عند الفقراء من الريفيين والحضريين الذين يعجزون عن تدفئة منازلهم فى أقسى أيام الشتاء ، وللقارىء أن يتصور كيف يكون خجل الطفل حين يدخل المدرسة وليس معه (معلوم) الخشب فان خجله لايقل عن خجل الطفل الريفى فى مصر حين يصل إلى الكتاب وليس معه (المعلوم)، والمعلوم هذا شىء ثقيل يذكرنا كيف كنا نقاسى أهواله يوم كنا نتبارى فى ترضية (سيدنا) فقد كانت ترضية عسيرة ، وكان لا يرضى إلا عن الأطفال الذين يحضرون البيض والفطير ، فقد كان الطفل الذى يحضر ومعه بيضة أو فطيرة خليقا بأن يحييه (سيدنا) بعبارة ياصباح البيض ! أما الطفل الذى كان يدخل الكُتاب وليس معه غير (البتاو) فقد كان يظل مغضوبا عليه ولا يأتى دوره فى التسميع إلا بعد العصر ، وربما كان أقرب الأطفال إلى ضرب الجريدة والزخمة والفلقة ، على أيامهن السلام !

والأطفال الذين لايستطيعون إحضار الخشب المطلوب فى

المدارس الفرنسية جديرون بالتخلف فراراً من أوزار هذه الضريبة الثقيلة التى لم يفرضها القانون ، وإن كان العرف أقرها وأدخلها فى عداد الواجبات.

وهناك عبء أثقل : وهو ملابس الأطفال ، فان المدارس الفرنسية من بين مدارس العالم تفرض العناية بالهندام وجمال الثياب وللمعلم أن يطرد من شاء من الأطفال الذين يرى ملابسهم خلقة أو قذرة ، وهذا فى ذاته جميل ، ولكن كيف يسهل على الرجل الفقير الذى رزق طفلين أو ثلاثة أن يعد لأبنائه الملابس الكافية التى تنجيهم من عقوبة الطرد ، وتحفظ سمعتهم طيبة بين زملائهم الأطفال.

والفقر فى فرنسا خطر ثقيل قد لا يعرفه فقراء الشرق الذين يتسامحون فيما بينهم ، ولا يكثرون التأمل فى الفروق بين الأغنياء والفقراء ، ومن هنا يكثر فى الأسر الفرنسية من يخلقون الأعذار خلقا لتخلف أبنائهم عن المدرسة . والعذر الحقيقى هو الفقر الذى يحول بينهم وبين إعداد ما يحتاج اليه أطفالهم من مختلف الأثواب ليمروا بسلام تحت أعين المراقبين والمعلمين و. . . البواب !

وهناك مانع آخر هو حاجة الفقراء من الأهالى إلى الاستعانة بأبنائهم فان الطفل حين يشب يستطيع أن يقوم ببعض الأعمال التحضيرية لحياة البيت ، فقد ترسل الام طفلها أو طفلتها إلى الخباز أو الجزار أو الخضرى ، وقد تكلفه برد الأمتعة إلى الزبائن إن كانت تشتغل

بغسل الملابس وكيها مثلا ؛ وهذه الأعمال الصغيرة التى يقوم بها الطفل أو الطفلة ذات أثر شديد في إصلاح الحياة المنزلية ، ونحن فى مصر نفهم ذلك حق الفهم ،فأكثر الآباء ينتفعون بجهود الاطفال وخصوصا الباعة والفلاحين ، والأطفال أنفسهم يستطيعون العمل فى المنازل والحقول ، ويفضلونه على الحياة المدرسية ، لأن الانسان فى أصله حيوان خشن جواب لايروقه المقام بين الجدران طول النهار ، فحاجة الآباء إلى أبنائهم من ناحية ، وشوق الأبناء إلى الحياة الطلقة من ناحية أخرى ، يساعدان على إهمال المدرسة واختلاق الأعذار للنجاة من العقوبات التى تفرضها الحكومة على من يتخلف أبناؤهم عن المدرسة بغير عذر مقبول

وهناك أسباب جوية لايستهان بها عند البحث عن أسباب نقص التعليم ، ففى فرنسا أيضا عزب وكفور وأكواخ بعيدة عن البلدان التى تقام فيها المدارس الأولية ، فعلى الطفل فى تلك الأماكن النائية أن يمشى فى صباح كل يوم نحو ساعة ليصل إلى القرية التى تقام فيها مدرسة ، ومشى ساعة ليس بالشىء الهين على الطفل ، خصوصا فى الأيام التى يكثر فيها المطر والجليد ، والأهالى الذين يقيمون في مثل تلك القرى الصغيرة لايعدمون تقديم الأعذار التى تقبلها الدولة وهى مكرهة حيث لاتستطيع المكابرة فى الأمر الواقع

هذه البيانات التى أقدمها للقارىء مستقاة من مصادر وثيقة ، ولم يلفتنى اليها إلا ماشهدته بنفسى حين كنت أجلس فى حديقة النباتات

فيتقدم إلي بعض الشبان ومعهم رسائل من أهليهم لايدرون مافيها ويطلبون أن أقرأها عليهم ، وقد حدث مرة أن قدم إلي شاب رسالة كتبها اليه رئيسه — وقد كان ذلك الشاب صبيا فى مخازن السماريتين فقرأتها عليه فكانت بعض العبارات تستغلق على فهمه لأنه بعيد بعض البعد عن لغة المراسلات إذ كان لايحسن غير (البتوا) التى يتكلمونها فى الريف .

والفرنسيون حين تحدثهم مثل هذا الحديث يجيبون بأن الحالة كذلك فى الأقطار الامريكية ، ويسكتون عن ذكر الالمان والانجليز وقد امتعض بعضهم مرة وقال : ولكن آلام الجيران لاينبغى أن تعزينا من آلامنا !

على أنه ينبغى ان نشير إلى أن فى طبيعة الشعب الفرنسى شيئا من الاستهانة بتعميم التعليم ، إذ يرون ذلك (بدعة عالمية) لاتوجبها ظروف الحياة فى أكثر الأقاليم ، وهم فى صميم أنفسهم لايفهمون لماذا يجب على الفلاحين وجوبا مطلقا أن يقضوا بعض سنوات فى المدارس الاولية والابتدائية مع أنهم سيقضون أعمارهم بين الثيران والفؤوس والمحاريث فى أرجاء الحقول !

وهذا الجانب من الأمية له أثره فى حياة الشعب الفرنسى ، فهو شعب يقل فيه التلاؤم والتناسب والتقارب بين الحضريين والريفيين بحيث يصعب أن يتفاهم أهل الشمال مع أهل الجنوب ، لاختلاف اللهجات وضعف اللغة الفصيحة عن أن تسود سيادة مطلقة بين

الأقطار الفرنسية المختلفة حيث تحيا فى كل قطر تقاليده وعاداته وطرائق تعبيره . والخدمة العسكرية لها أثر قوى فى تعريف هذه الأقطار بعضها ببعض وربطها بأواصر الوطنية والاخاء

والتعليم فى فرنسا تتنازعه طائفة من القوى المدنية ، فقد كان رجال الدين قديما يملكون كل شىء تقريبا فى التربية والتعليم ، فلما كان عهد الجمهورية أراد رجال الحكومة أن يكون التعليم مدنيا صرفا لا أثر فيه للمؤثرات الدينية التى يذيعها البروتستان والكاثوليك ، وقد تم لرجال الحكومة مايريدون ، ولكن رجال الدين لم يعدموا وسيلة إلى نشر نفوذهم بين الأطفال والشبان وذلك أن المدارس الفرنسية تعطل يومين فى كل أسبوع هما الأحد والخميس . والآباء كما يعرف القراء يخافون على أبنائهم من الأضرار الصحية والأخلاقية تعرض لهم فى عطلة يومين كاملين حيث لا يعرف الاطفال والشبان كيف يقضون أوقات الفراغ فى أمن وسلام ، وهنا تدخل رجال الدين وأنشئوا ماسموه (باتروناج) وعرضوا على الأهالى أن يسلموا إليهم أبناءهم فى يوم الاحد والخميس حيث يقضون أوقات الفراغ فى الرياضة واللهو المباح ، وتعهد رجال الدين أن لا يعطوا الأطفال دروسا دينية ، وأن يتركوهم لسجاياهم يمرحون ويلعبون ، وقد كان ذلك اليوم فرصة عظيمة لرجال الدين حيث يتسلمون الأطفال فيصوغونهم صياغة دينية بليغة الأثر فى أنفسهم ، ورجال الدين أقدر على التأثير من المعلمين لأن المعلمين يسوسون الأطفال سياسة جافة

في سبيل الوفاء للمناهج والمقررات . ولذلك يبغضهم التلاميذ وينفرون منهم . في حين أن الرهبان يشاركون الاطفال في ألعابهم ويروضونهم برفق وعطف وحذق على اعتناق ماتدعو إليه الاناجيل . وقد تنبه رجال الدولة بعد ذلك إلى خطر هذا (البترو ناج) وتطوع المعلمون إلى النهوض برعاية الاطفال في يومي الاحد والخميس ، وأعدوا لذينك اليومين أنواعا مختلفة من الالعاب والسياحات ، وبهذه التضحية التي قام بها المعلمون استطاعت الجمهورية أن تأمن خطر رجال الدين . على أن هذا لايمنع أن للرهبان مدارس يعلمون فيها مذاهبهم الدينية ولكنها قليلة الأثر بجانب المدارس الحكومية التي تصوغ الاطفال صياغة مدنية صرفة تناسب واجبات الحضارة في القرن العشرين

فاذا انتقلنا إلى التعليم الثانوي وجدناه محصورا في دائرة ضيقة حيث لا يتقدم اليه إلا الموسرون ، فليست المدارس الثانوية مجانية كما يتوهم بعض من يتصورون اوربا تسبح في بحار الرقي والنهوض والتعليم الثانوي في فرنسا يذكر كثيرا بالتعليم الثانوي في مصر فكلاهما ثقيل النفقات، معقد الأصول والفروع، وهذا التعقد في التعليم الثانوي الفرنسي له سبب معروف ذلك أن الفرنسيين يحبون أن يمتازوا من بين أمم العالم بالتفوق المطلق في العلوم والآداب والفنون ، والسبيل إلى ذلك في وهمهم هو إثقال مناهج التعليم الثانوي بأكثر مايمكن من المواد المختلفة التي تتم بها الثقافة العامة، وكذلك نرى قوى الطلبة نهباً مقسما بين أطماح الأساتذة المختلفين الذين يريد كل منهم أن يفرغ

في رؤوس تلامذته كل ما وصل إليه فى العلم الذى يخصص فيه . وهذه الرغبة فى التهام مواد الثقافة العامة محمودة فى ذاتها . ولكنها من وجهة التربية خطأ جسيم ، فان أذهان الطلبة محدودة القوى وليس فى وسع الطالب أن يؤدى فى حماسة وإخلاص مايفرضه أساتذة الطبيعة والكيمياء والرياضيات والآداب واللغات الحية والفلسفة والتاريخ . وقد يحدث أن يتحمس الأساتذه لعلومهم ، ولكن تلك الحماسة تنتهى بتهاون الطالب وتغافله وتبلده وانصرافه عن متابعة الأساتذة الذين يطالبونه بمالا يطيق

ويسرنى أن تجد هذه الكلمة آذانا واعية من رجال التعليم فى مصر ،فأغلب الظن أن تعقيد المناهج فى التعليم الثانوى المصرى كان أثراً لمحاكاة مناهج التعليم الثانوى الفرنسى . وقد اعترف الفرنسيون بخطئهم وهموا فعلا بالاقلاع عنه فمن الواجب أن نقلع نحن فى مصر عن خطأ كنا فيه مقلدين !

لقد رأى الفرنسيون فداحة الخطب فى إثقال مناهج التعليم . ورأوا كيف يفرض على الطلبة كل شيء ، ولا يظفرون بشيء . ولأضرب المثل باللغات القديمة ،فقد كان الفرنسيون يتشبثون بتعليم اليونانى واللاتينى . ثم انتهى بهم الأمر إلى التخيير بين اللغات الميتة واللغات الحية ، فكانت النتيجة أن انصرف الطلبة عن اللغات القديمة إلا أقلية ضئيلة لايحسب لها حساب

والمتبعون لحركة التعليم فى مصر يذكرون تقرير المسترمان

الذى صرح فيـــه بان تعليم اللاتينى لاقيمة له فى الثقافة المصرية.
ويذكرون كذلك أن هذا الرأى لم يغير شيئا من مناهج التعليم
بكلية الآداب بالجامعة المصرية . أفأستطيع أن أذكر لقرائى أن تعليم
اللاتينى فى فرنسا نفسها وهى أعرق الامم اللاتينية أصبح ضئيل
الأثر فى نفوس الطلاب ، وأن أحد الاساتذة المتفوقين فى تعليم
اللاتينى أقسم أنه قضى شهرا كاملا مع طلبة البكالوريا فى دراسة
« ثلاثين سطرا » فقط ، وأنه سأل أحد الطلبة يوما عن «الالياذة»
ما هى فما استطاع أن يجيب ؟!

إن العصر الذى نعيش فيه عصر رقى وحضارة ، مافى ذلك
ريب ، ولكنه فى الوقت نفسه مغمور بأسباب المحاكاة والتقليد
فأكثر الشعوب يضعون لتعليمهم مناهج ليست من طبائعهم ولا
سجاياهم ، ويتورطون فى واجبات هم عنها اغنياء ، إن فرنسا نفسها
تعنى بطائفة من النقاليد التعليمية لتحاكى من ؟ أتعرف أيها القارى؟
لتحاكى فرنسا القديمة فى القرن السادس عشر والسابع عشر

ومع أن الشعب هو هو لم يتغير فقد أصبحت محاكاة فرنسا
الحاضرة لفرنسا الماضية نوعا من خطل الرأى ، فكيف نريد لمصر
مثلا أن تتورط فى محاكاة فرنسا أو ألمانيا أو انجلترا محاكاة مطلقة
لا أثر فيها لتقدير البيئة والاقليم وما يوجبانه من تخير ألوان التثقيف.

الواقع أن مسألة التعليم فى غاية الصعوبة وقد وقع فى حبائلها
الفرنسيون ، فللمصريين بعض العذر إن ضلوا السبيل ، ولكن

كيف يمكن الصبر على من جعلوا من المدارس حقول تجربة ، فى حين أن صرعى هذا التردد هم شبان الأمة المرجوون الذين سيصبح الأمر كله إليهم بعد عشر سنين ؟ إن الاقدام والحزم لواجبان فى اللحظة الحاضرة ليسلم لمصر جيلها الجديد ، وذرة من الاخلاص كافية لاقناع أولى الشأن فى وزارة المعارف بأن الأمر أخطر من أن يداوى بقرارات تصدر ، ومنشورات تذاع

حديث كله شجون

سابكيك ما فاضت دموعى فان تغض
فحسبك منى ما تجن الجوانح
فما أنا من رزء وإن جل جازع
ولا بسرور بعد موتك فارح

أبى

أتذكر كيف كنت أطوى عنك همومى وأحزانى ؟ أتذكر كيف كنت تسمينى الرجل الشجاع ؟

ألا فلتعلم أن موتك أثار دمعى ، وكنت رجلا لا تفجعه الحوادث ولا تهزه الخطوب . . . وما أحب أن أزكى نفسى بالبهتان

فأنا إنسان أحزن كما يحزن الناس ، وأفرح كما يفرح الناس ، ولكنى كنت أطوى عنك أشجاني رفقا بك ، وإشفاقا عليك ، أما الآن ، وأنت فى عالم البقاء فلم يبق مايوجب الرفق بك ، ولا الاشفاق عليك ، فانظر من عليين إلى ذلك الطفل الذى هزمته الفجيعة بك وأمضه الرزء فيك !!

أبى

لقد أردت أن أنهض بأحزانى كما ينهض الجمل بالحمل الثقيل ، وكذلك أخفيت موتك عن أصدقائى وإخوانى ، فلم أتلق التعزية إلا من الأهل والأقرباء ، فانظر كيف يفضحنى الحزن فأتحدث بمصابى فيك إلى من يعرف ومن لا يعرف ، واعجب كيف مادت الأرض بالرجل الشجاع ، وكيف انطلق يبكى وينتحب لا يستره تجمل ولا يوارى حزنه عزاء

أبى

أرأيت كيف يكون لك الفضل فى الآخرة والأولى ؟ لقد عرفت بموتك حقيقة نفسى ، وكنت أتشهى أن أكون أمة وحدى فى عالم الوفاء ، فطب نفسا إن كان يعوزك ذلك ، فما أثار موتك فى صدرى إلا ذكريين غاليتين : ذكرى أمى التى فقدتها فى سنة ١٩١٧ وذكرى أخى سيد الذى فقدته فى سنة ١٩١٨ . أما أطفالى الذين دفنتهم من قبل ومن بعد فقد نسيتهم كل النسيان ، لأن حزنى عليهم نوع من الأثرة ، أما حزنى عليكم فباب من البر والوفاء

أبى

عزيز على والله أن تقهرنى الأقدار على رثائك ، وكنت أود أن يطول عمرك حتى تبلل قبرى بدموعك ، ولكن وقاك الله شر الثكل ، وأعد لى فيك فواجع الأحزان ، فكانت رحمته بك من بعض نعمه عليك .

أبى

كيف أذكرك ؟ وكيف أتحدث عنك ؟ إن أقطاب المنوفية يذكرون جيداً كيف كان عبد السلام مبارك ، وأقسم ما رأيت أصبح منك وجها ، ولا أصح دينا ، ولا أصدق قولا ، ولا أفصح لسانا ، ولا أثبت جنانا ، فامض إلى دار البقاء مرضيا عنك من الله والناس ، وادع الله أن يسدد خطوات ابنك الحزين

وهل أرانى فى حاجه إلى الثناء عليك ؟ لقد قضيت فى حداثتك أعواما قليلة فى المدرسة ، ثم بقيت طول عمرك فى عقل لم يظفر به من الناس إلا القليل ، وما قيمة الدرس بجانب العقل الموهوب ؟ لقد كنت حجة على من يتوهمون أن العقل من نصيب من يطيلون صحبة الفلاسفة والحكماء ، وكان أسلوبك فى حياتك نموذجا للعقل الراجح والذوق الدقيق ، فاذا افتخر أهل الدنيا بآبائهم فأنت المأثرة الباقية التى يفتخر بها ابنك الحزين ، إن كانت الدنيا تستحق أن يتباهى فيها الرجال بكرم الأنساب

أبى

الآن أشعر بأنى فقدت كنزا من الكنوز الغالية . فقد كان يروق لى أحيانا أن أدعو بعض الكبراء لزيارة سنتريس . وكنت فى ذلك أمثل الأثرة والأنانية ، كنت احب أن أقول : هذا أبى ملء العيون والقلوب ، فأصبحت محروما من تلك المتعة النفيسة ، وعدت وليس لى من الحسب والنسب الا ذكراك فى قلوب من عرفوك

أبى

أفى الحق أنى لن أراك وأنى صرت من الأيتام الكهول ؟

لو تركتنى وأنا طفل لشغلنى عنك الجهل بقدرك . أما الآن وقد عرفت فضلك ، وخبرت مواهبك ، وعرفت سرك وجهرك ، وفطنت إلى فجيعتى فيك ، فكيف الصبر عنك ، وكيف السبيل إلى نسيان أياديك ؟

ياحليف الكرم والجود ، ويانصير الضعفاء ، ويا سناد المظلومين انظر من عالم البقاء لترى كيف خلا مكانك ، ولتعرف كيف تكون غيبة البدر فى الليلة الظلماء

أبي

أتذكر أيامك الأخيرة ، من كان يظن أنى سأفارقك إلى غير لقاء

وهل رأى الناس قبلك إنسانا يتهيأ للموت شهوراً فلا يتأوه ولا يتوجع ؟

ولكن لا موجب للعجب ، فقد كان المصحف سميرك ، وكان لقاء الله أحب اليك من لقاء الأهل والأحباب ، وعند من تطلب

الشجاعة إن لم يفض بها طبعك ، وكنت الرجل البسام في السراء والضراء ؟

أبي

كنت أقول : أوصاني أبي ، ونهاني أبي ، فالآن ماذا أقول ؟

إن اسمك وحده يملأ البيت أحزانا وأشجانا ، فكيف الرجوع إلى مانصحت وأوصيت؟

ذكراك ، أيها الفقيد الغالي ، تنغص عيشي ، وتؤرق نومي ، وترميني بالويل والخبال ، فكيف تراني أعود إلى عهودك فأحييها بالبر والحنان ؟

يازينة الدنيا ، كيف خلفتني ومضيت !

الدنيا ، ياأبتاه ، أحقر من أن تستطيل بفتنة ، أو تعتز بسلطان ، بعد أن كفنتك وسويت قبرك بيمناي

أبي

لقد أخرجني موتك عن وقاري ، ورماني بطوائف من التحرق والالتياع ، فأخذت أتأمل كيف يأفل القمر ثم يعود ، وكيف تتعاقب النجوم فلا يعوقها أفول ، ثم نظرت فرأيتك تذهب إلى غير معاد وفكرت في العلالة الانسانية التي وعد بها الأنبياء ، وتمنيت أن تكون الحق كل الحق . وأقسم ماكفرت مذ آمنت ، ولكن موتك قلقل يقيني ، ورمى بقلبي في أتون من الحزع لايرحمني من بلائه إلا الخبير بتصرف الخواطر وتقلب القلوب

كيف يموت مثلك وكنت من عناوين الرحمة فى هذا الوجود ؟ ولأية غاية نحيا ونموت ، نحن المساكين الذين يخلقون قهراً ، ويموتون جبراً ، وما هى الأسرار الخفية التى تقضى بأن ننبت ، ثم نزهر ، ثم نذبل ، ثم نبيد ؟

أنحن جهلة نتطاول إلى فهم ما لا نملك ؟ وكيف بالله كتب علينا الحرمان من فهم أسرار الوجود ؟ كيف كتب علينا أن نجهل سر الحياة والموت وقد كدنا نعرف كل شىء ؟

ما هذا الذى أقول ، أترانى أشك فى مصير الصالحين من المؤمنين ؟

أنا لا أشك ، ولكنى أضعف ، والانسان منذ خلق عرضة للفزع والضعف ، وهل رأى الناس رجلا يكفن حبيبه وهو يبتسم ثقة بأنه ينقل من يحب إلى فراديس الجنان ؟

إن المعانى العلوية فوق ما نملك ، نحن نتصورها تصوراً ، ولا نطمئن اليها إلا أملا فى تخفيف ما نقاسى من عنت البأساء ، وقد آن أن نعترف بأننامهما استطلنا لانزيدعن ذرات صغيرة تغدو وتروح فى أجواز الفضاء .

رباه ، إن الشك يأكل قلبى ، وأكاد أنظر مايضطرب فى صدرى من شياطين الارتياب ، سبحانك قضيت ماقضيت : فهذاشقى وهذاسعيد فامنحنى من الصبر ما أستربه همومى وأحزانى ، واجعل لى مخرجا من هذا البلاء الذى صبه على قلبى فراق ذلك الفقيد الغالى

أبى

لقد حدثونا أن الأرواح لا يغيب عنها شيء ، فهل رأيت ما أعانى من كروب الأسى بعد إذ كفنتك ، وهل رأيت كيف تفردت بألوان من اليتم لم يعرفها أحد سواى ؟

إن من القليل أن أحزن وألتاع ، ومن ذا الذى رأى وجهك مرة واحدة فاستطاع أن يحبس دمعه حين بلغه نعيك ؟

لقد كنت من أعظم الشواهد على رفق الله الذى خلقك وسواك فعدت شاهداً على أن الأمر كله لله ، وأن الانسان مهما سما وشرف لا يقيم فى الدنيا إلا إلى حين

أبي

هل تعلم أني ما تلفت إلا رأيتنى مغموراً بأياديك ، فهذا دمك يجرى فى عروقى ، وأنت الرجل الشهم الذى اجتاز مفاوز الدنيا بقلب أقسى من الصخر ، وعزيمة أمضى من السيف ، وتلك رزانتك أتمثلها فأزداد سخرية بالحوادث والخطوب ، وذلك ثغرك الذى لم يعرف غير الابتسام فى جميع الأحوال أتمثله فأعرف أن الدنيا أهون من أن يقطب لها جبين الرجل الشجاع ، وذاك إيمانك أتذكره فأعرف أن اليقين كنز ثمين

وآخر درس تلقيته عنك هو بسماتك أيام المرض ، ويالها من أيام ! لقد كنت تعانى أهوالا تندك لها الجبال ، ومع ذلك لم تحزن ولم تبتئس ، ولم تفارق الابتسامة شفتيك

ولكن هل أفادنى ذلك الدرس ياأبتاه ؛ لقد جزعت لفقدك جزعا لم يصب بمثله قلب قبل قلبى : ألم تركيف عجزت عن دخول البيت الذى خرجت منه محمولا على الأعناق ؟

أى بلاء هذا الذى صبه موتك على فؤادى ، أكنت أنت أول من مات وكنت أنا أول من وقف يتلقى فى أبيه العزاء

ولكن أى أب ، لقد كانت شمائلك تفيض بالعطف والحنان وكان النظر إلى وجهك ربيعا للقلب والروح ، وكان اتجاه الفكر اليك يغمرنى بالرفق والروحانية ؟ فكيف العزاء وقد حرمنى موتك جميع أسباب العزاء ؟

أما أنا فماذا تحفظ عنى ياأبي ؟ أتذكر أنك شهدت منى لمحة واحدة من ملامح العقوق ؟ إن كان لمثلى بعد موتك عزاء ، فسيكون من أسباب عزائى أنى لم أخرج فى سرى ولا جهرى عن واجبات البنوة ولم أتحدث اليك إلا بقلب خاشع وطرف غضيض

ولكن كيف أمن عليك بالتأدب فى حقك ، وأنا ابنك ، على حين لم يطمع فى مخاشنتك مخلوق ، وكنت بكرمك وهيبتك أعز من أن تمتحن بعداوة الناس

أيها الكنز الغالى ، كيف فقدتك ؟

إن الوجود بعد فراقك يبدو لعينى فى لون قاتم سخيف ، وما قيمة الدنيا وقد ودعتك فيها الى غير لقاء . لقد كنت آمل أن يظل عودك يقاوم الشيخوخة زمنا طويلا ، وكنت أتعزى كلما تذكرت

أن أمامى فرصا كثيرة لمشاهدة وجهك ، والتمتع بحديثك ، فما بال الأقدار تعجل هذا الشقاء الذى كنت أرجو أن لا أرزأ به إلا بعد أعوام طوال ؟

أبى

إنى لأعجب كيف يصح لمثلى أن يجزع ، بعد إذ رأى سخف الدنيا وهزالها منذ رآك بين الأموات ، إن الدنيا التى لا يخلد فيها وجه مثل وجهك لا تصلح ميدانا للأفراح والأحزان ، فما الذى يغرينى بعدك بالحديث عن البؤس والنعيم ، وقد رأيت بعينى كيف يضن الوجود على مثلك بالخلود ، وما أشقانى بعد اليوم إن غرني ما فى الدنيا من زخرف وبريق !

أبى

أيسرك أن تعلم أن موتك أورثنى بعض النفع ؟ لقد كانت خطوب الزمان لا تؤذينى إلا لأنها تؤذيك، واليوم وقد تنزه قلبك عن الحزن فلتفعل الأيام ما تشاء : فسألقى صروف الدهر بقلب أقسى من الموت وأعنف من كيد الزمان

٨ مايو سنة ١٩٣٥

*

الى الدكتور زكى مبارك

بقلم الاستاذ ابراهيم الدباغ

إلى الصديق الحنين والأخ الحزين الدكتور زكى مبارك
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فى معترك الحياة مرامى تأساء للحزين ، وفى ميادينها مباءة سلو لأهل اليقين . والحليم الحليم من تلقى سهامها بصدره ، والشجاع الشجاع من عرف أبواب الصبر الجميل عند وقع المصاب .

أزعجنى بلاغ يوم الجمعة الماضى ففيه قرأت وفاة والدكم المبرور والتقطت من حبات دموعك ولآلىء نثيرك ما أحاول تنسيقه أو جمع طاقة منه فأستطيع القيام لك بواجب المواساة والتعزية التى هى حق لك غير مجحود على كل متأدب فى هذا البلد الأمين

ولقد عجبت ثم عجبت من إخفائك عن إخوانك خبر المصاب يوم وقوع سهمه، فلعل لهم شأنا أو هوية فى مشاطرتك الأسى على فقدك أعز عزيز لديك .

صنيعك هذا يذكرنى برزانة رجال أهل حكمة سبقوك فتلقوا المصائب فطووها فى الحقائب ، وشربوا من الأمرين فى أكواب

الأيام والليالى كؤوسا أدارتها يد الزمان ، وتلك صفات استأثر بها الصفوة من أهل النبوة ، والنخب من حكماء العرب ، وأقربهم بنا عهدا أستاذنا الامام محمد عبده وقد مات والده ولم تقم (له المآتم) ولا علقت شارات الاتراح والأحزان على الأبواب والجدران وقد سافر الكثيرون من المعزين إلى منزل الشيخ محمد عبده فى عين شمس فلم يجدوا على الباب غير مصباح المنزل ، ومن هذا العهد أخذ الناس يفكرون فى حل هذه العقدة الاجتماعية الأدبية فى مصر التى يذيع عنها فى الشرق كل ماتصنع من خير وشر ، وكما ذهب الشيخ أحمد عبد الله والد الشيخ محمد عبده ذهب عبد السلام والد الدكتور زكى مبارك ، فلا مناحة ولا لطم خدود ، ولا صبغ وجوه بالسواد ولا صياح ولا تصدية أو مكاء ، إلا ما كان أسفا أو بكاء . إنى أعرفك ولقد رأيتك ولم أر الفقيد العزيز ولكنى بك عرفته فرأيتك فيه ، ورأيته فيك ، والوليد سر الوالد

قال حكيم العرب (ولدك ريحانتك سبعا ، وحاجبك سبعا ، ثم هو بعد السبعة الثالثة عدو أو صديق) وهذا أنت للمرحوم أبيك نعم الصديق الحميم ، فصلوات وتسليم ، أما صبرك ورباطة جأشك التى شهدتها فى سطور مقالك فحدث عنها صدور أهل الحلم والرجال البارزين فى تحمل المكاره من المتقدمين ، جاء رجل إلى الأحنف بن قيس سيد بنى تميم يشكو له وجع الضرس فقال الأحنف : فقدت عينى منذ ثلاثين عاما ولم أشك أمرها لأحد من الناس ولم أخبر

بشأنها جليسا ، وها أنت تراها كأنها سليمة . وإنى لأعجب لصبرك عجبى لصبر الأحنف وإن جاء صبرك بعده بقرون وأحايين! وقد حدثتناكتب الأدب أن أحدهم تزوج ثم أصيبت زوجته بالعمى فتعامى معها عشرين عاما ثم ماتت ورآه الناس وهو يغدو ويروح مبصرا فقالوا ألم تكن أعمى ؟! وكيف رجع إليك بصرك!؟ قال لم أكن فى عمى وإنما تعاميت جبرا لكسر تلك الزوجة المسكينة

هاؤم اقرأوا أيها الكتاب والأدباء والشعراء هذا السطر الذهبى من سطور المروءة والنخوة فى السابقين السالفين .

لايريد الدكتور زكى مبارك حمل إخوانه مشاطرته فى حمل أحزانه . إنى سأشاطرك الحزن على أبيك أنا وبعض محبيك أرضاك ذلك أولم يرضك يادكتور

إن نوعا من النخوة والمروءة سيظهر له أثر اجتماعى قوى بين الناس إذ شاهدوا فيك من الثبات مالم يشهدوا فى سواك . لعل للمرحوم والدك وصية أستاذنا الشيخ محمد أبو راشد فقدجمع أولاده وأفراد أسرته فى ساعة متأخرة من الليل وأخذ يسألهم واحدا واحدا عن شأنه إذا أصبح الأستاذ فى عداد الأموات ففزعوا جميعا فمازال بهم يروضهم بالعظة والحكمة حتى ألزمهم الصمت والصبر ، ثم قال : إذا أنا مت بعد صلاة الصبح فلا تأت الساعة العاشرة إلا وأنا فى قبرى قبل أن تخبروا أحدا من أصدقائى

وهكذا كان . فانى ذهبت لزيارة الشيخ كعادتي فوجدته فى العالم

الثانى .وتبارك الباقى ، ومسكين هذا الانسان الفانى .

لم أبلغ مافى نفسى مما أريده فى تعزيتك ولعل نفحة قدسية أو روحا سماوية تمر بى وتبعث فى قوة أستطيع بها القيام بما يجب على الحر للحر ، ويفترض على الأديب للأديب ، والسلام عليك

لغة العرب قبل الاسلام

جيلان يختصمان :جيل النقل وجيل العقل

إعتاب الشيخ عبد المطلب ـ صراع بين مدرستين ـ أصل الخلاف ـ رأى المتقدمين ـ أهمية النقوش الحميرية ـ وحدة اللغة الفرنسية ـ كيف يتكلم العرب اليوم فى مختلف أرجاء الجزيرة ـ اللغة العربية فى أفريقيا الشمالية ـ روح اللغة ـ كلمة تساوي خمسة جنيهات وكلمة تساوى (شلن) ـ نصوص القرآن لاتكفى فى الدلالة على وحدة اللغة ـ حديث خنافر الحميرى ـ نصوص حميرية ـ قيمة كلام ياقوت عن اللغة اليمنية

١ ـــ قرأت ذلك البحث المطول الذى كتبه الأستاذ محمد عبد المطلب عن وحدة اللغة العربية فى جزيرة العرب « كلها » وقرأت بعد ذلك كلمته الرقيقة التى يعتب فيها ويستعتب . وأنا أعتبه أجمل الاعتاب ثقة منى بصدقه وإخلاصه، وإعزازاً لتلك النفس التى تحب فى الله وتبغض فى الله . وأصارحه بعد ذلك أنى وإياه نمثل جيلين

مختلفين أشد الاختلاف فى درس تاريخ الآداب العربية

وأحسب أن الفرصة سانحة لمناقشة الأستاذ عبد المطلب . ولهذه المناقشة فائدة ونفع : فالأستاذ كان ولا يزال من مدرسى الأدب وله تلاميذ في مدرسة القضاء الشرعى والأزهر ودار العلوم . وهؤلاء التلاميـــذ قد أصبح فريق منهم أساتذة فى المدارس الثانوية ، فهم ينشرون ما تلقوه عنه بين شباب العصر الحاضر ، وللاستاذ مع ذلك زملاء ينهجون منهجـــه ويذيعون نفس الآراء التى يذيعها هو بين مختلف الأوساط، وبهذا نرى أن المدرسة الأدبية التى يمثلها الأستاذ ويمثلها معه زملاؤه ومشايعوه مدرسة ذات خطر فى تـكوين النشء الجديد من طلاب الآداب

أما أنا فأمثل مدرسة ثانية هى المدرسة التى تحكم العقل فى كل شيء ، وتفرض على الباحث أن ينقد أولا المصادر التى يعتمد عليها وتروضه على إدراك الفروق بين الأذواق والأحاسيس في مختلف العصور الأدبية ، ولهذه المدرسة الجديدة أشياع عديدون ، ولـكنى أمتاز من بينهم بميزة ظاهرة إننى لاأعرف ماهو الحقد وما هو الضغن ولا أفهم مطلقا كيف تنقلب الخصومات العقليـة إلى خصومات شخصية يقال فيها : هذا لله وهذا للشيطان

وفى يقينى أننى سأحول النقد الأدبي فى مصر تحويلا جديا وسأعلم القراء كيف يبحثون عن الحجج والبراهين قبل أن يغرموا بتلمس النزوات الصغيرة التى يلقى بها الـكتاب هنا وهناك وهم يتجادلون ويتحاورون

وخلاصة القول أني لا أتفق مع الأستاذ على الأساس الذي يبنى عليه ماينشيء من النظريات والفروض ، وأرى أن المدرسة التي يمثلها لا تتناسب مع الجيل الجديد ، وأرى من واجبي أن أقدم للقراء كلما سنحت الفرص شواهد جديدة على أن المدرسة التي أمثلها انا هي المدرسة التي توفق بين المعقول والمنقول وتفرض على أنصارها أن يروضوا أذهانهم على فهم الواقع وترك مادرج عليه بعض المحافظين من التعلق بالأوهام

وليكن الميدان اليوم مناقشة الأستاذ فيما قال به من وحدة اللغة العربية في جزيرة العرب «كلها» قبل الاسلام ، ولتلاميذ الأستاذ وأنصاره أن يختاروا أي الصفين بعد ذلك ، وإن كنت أوصي الأستاذ منذ الآن أن يذهب إلى إحدى شركات التأمين ليؤمن على ذلك الجيش الذي يناصره فاني واثق أنه سينضم إلى صفي بعد قليل وأكاد أرى طلائعه تتحول من ميدان إلى ميدان

٢ — الخلاف بيني وبين الأستاذ عبد المطلب ينحصر هذه المرة في وحدة اللغة : فانا أرى أن اللغة العربية التي نزل بها القرآن هي لغة قريش أو لغة العدنانيين ، وأرى أن هذه اللغة تختلف اختلافا جوهريا عن لغة القحطانيين من أهل الجنوب ، والأستاذ يرى أن لغة العرب كانت واحدة في جميع أقطار الجزيرة العربية . فكيف يفض هذا الخلاف

أنا أعتمد على الأدلة الآتية

أولا — كان القدماء من مؤرخي اللغة العربية يفهمون حق

الفهم أن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية فى كثير من الألفاظ والتعابير ، وشواهد ذلك كثيرة جدا سأقدمها إذا طلبها القراء ، ومن القدماء من صرح بأن لغة أهل اليمن غير لغة أهل الحجاز ، ومن هؤلاء عمرو بن العلاء

ثانيا — النقوش التى اكتشفت فى اليمن ودرسها المستشرقون تبين فى وضوح تام أن اللغة الحميرية لغة مستقلة لاتتشابه مع اللغة العدنانية إلا فى طائفة من الألفاظ ، أما أصولها من حيث النحو والتصريف وصياغة الجمل وطرائق التعبير فتختلف عن اللغة العدنانية أشد الاختلاف . ومن أشهر من كتب فى هذا الموضوع السنيور جويدى الكبير الذى استقدمته الجامعة المصرية القديمة لدراسة فقه اللغة العربية ، وأبحاثه فى هذا الموضوع نشر جزء منها فى مجلة الجامعة المصرية واستغل الدكتور طه جزءاً منها فى كتابه عن الأدب الجاهلى

وتلك النقوش أوثق من الروايات الشفوية التى يعتمد عليها بعض الناس . واستهانة الأستاذ عبد المطلب بهذه النقوش تعد جرأة عجيبة ، لأن الأثر المنقوش أوثق من الأثر المكتوب فى عرف أهل التاريخ . وما يلجأ اليه الأستاذ عبد المطلب من التشكيك فى قيمة النقوش لا يغنيه فتيلا ، لأن تلك النقوش اليها المرجع حتما فى درس أصول اللغات

ثالثا — طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغة واحدة فى جميع

أرجاء الجزيرة قبل الاسلام ، لأن الأسباب التى يفترضها أمثال الأستاذ عبد المطلب لاتكفى لتوحيد تلك اللغة

وأنا أقدم شاهدا بديعا لما أراه من أن طبيعة الحياة تأبى أن تتوحد اللغة فى أمة مترامية الأطراف ، ذلك الشاهد هو الأمة الفرنسية ، وأنا أكتفى بالأمة الفرنسية لأنى أعرف آدابها وأعرف كيف تطورت لغتها ، فهذه الأمة التى توحدت سياسيا واجتماعيا وأدبيا منذ زمن طويل لا تزال فيها عدة لهجات تتباعد تباعدا شديدا بحيث لايستطيع بعض أهل الجنوب أن يتفاهم مع بعض أهل الشمال وهذا يقع مع انتشار الجرائد والمجلات والمطبوعات وفرض تعليم اللغة الفصيحة على البنين والبنات . والحكومة الفرنسية تعرف ذلك ولها فى مداواته طرق عديدة منها المزج بين الجنود فى أيام الخدمة العسكرية ، ومع هذا توجد أقاليم تصرعلى إحياء لغتها الاقليمية مثل مقاطعة البروفنس ولشاعرها ميسترال مؤلفات كبار هجر فيها اللغة الفصيحة وآثر لغة الاقليم . ولا تزال هناك إلى اليوم صحف إقليمية تكتب بمايسمونه « البتوا » فكيف يمكن إذن أن تتوحدلغة العرب قبل الاسلام فى جميع أطراف الجزيرة ولم يكن هناك ما يوجب توحيد اللغة بين اهل الشمال واهل الجنوب؟

٣ — جاء الاسلام فأذاع لغة قريش وفرضها على جميع المسلمين حين صيرها لغة الصلوات والعبادات ، أفتحسب انه مع هذا أمكن أن تصبح لغة قريش لغة جميع سكان الجزيرة العربية ؟

إذهب ايها الأستاذ فعش عاما أو عامين متنقلا فى أرجاء الجزيرة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ثم اعمل ماكان يعمله أبو عبيدة والأصمعى فقيد الفروق المختلفة بين الألفاظ والتعابير فسترى أنه لاتزال هناك لغات متعددة يعز التفاهم بين أهليها ويعسر عليهم فهم القرآن والحديث والشعر الفصيح

أنا أوصيك بهذا وأرجوك ألاتنسى أن سكان الجزيرة راضهم القرآن على اصطفاء لغة قريش ، وهم مع ذلك لايزالون مختلفين فى تسمية الأشياء وفى طرائق التعبير، وإن كان هذا لايمنع أن جماهيرهم تتذوق لغة قريش بعض التذوق لأنهم يقرءون بها الأدعية والأوراد والصلوات.

وما رأيك فى سكان أفريقيا الشمالية ؟

أنت لاتنكر أن الاسلام أذاع اللغة الفصيحة فى طرابلس والجزائر ومراكش ، ومع هذا أؤكد لك أن أولئك الجيران لا يستطيعون التفاهم فى أكثر الأحيان ، لأن العامة فى جميع الأمم لاتهتم باللغة الفصيحة وإنما تلقى بنفسها فى تيار اللغات المحلية، وتلك لغات تتقارب وتتباعد من بلد إلى بلد ، ومن صقع إلى صقع : حتى ليعسر التفاهم بين فريق من أهل مصر وفريق من أهل السودان مع أنهم يسكنون واديا واحدا ويلتفون حول راية واحدة هى راية القرآن

وكل ما يمكن الاطمئنان إليه هو أن اللغة الحميرية أمدت اللغة العدنانية بكثير من الألفاظ والأخيلة والتعابير والصور ، وانتقل

ذلك المدد على أيدى الشعراء والخطباء الذين انحدروا إلى الشمال وحاولوا التفاهم مع العدنانيين المثقفين . والهجرة من الجنوب إلى الشمال كان لها أثر في التقريب بين اللغتين ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تحولها إلى لغة واحدة لأن ذلك من العسر بمكان

ولأضرب لك مثلا اللغة العامية التى يتكلمها المصريون : فهذه لغة معظم مفرداتها عربية ، ولكنها فى تكوينها اللغوى من حيث صياغة الجمل واستعمال حروف الجر وأدوات التنفيس تقرب من اللغة المصرية القديمة ، وذلك أن المصريين حين اتخذوا اللغة العربية أداة للتفاهم ظلوا يجرون على روحهم الأول فى كيفية التعبير ، ونظير ذلك ما يقع لأحدنا حين ينشىء بحثا بلغة أجنبية فانه فى الغالب يصوغ مفردات تلك اللغة فى قوالب تذكر بلغته الأصلية ، فهو إلى الترجمة أقرب منه إلى الانشاء

وهذه مسألة دقيقة جدا وهى تذكر بما يسميها الفرنسيون « تورنور » وعليها يتوقف فهم روح اللغة ، ولا أزال أذكر أن أديبا مصريا كان يأخذ على مجلة الفكاهة أن أكثر كتابها سوريون وكان يقول « يستحيل على الشامى أن يضحك المصرى » ومرجع هذا أن الأمم التى تتكلم لغة واحدة قد تتفاوت تفاوتا بعيدا فى طرائق الافصاح مع اتفاقها فى المفردات ، وهذا فى أوربا ظاهر فى الأمم التى تتكلم اللغة الفرنسية ، فالبلجيكيون والسويسريون لا يفصحون عن أغراضهم بنفس الأنماط التى يفصح بها الفرنسيون ، ولو انتقل فلاح بلجيكى

إلى مقاطعة فرنسية لعسر عليه التفاهم ، لأن وحدة اللغة الأدبية عند الأمم المتجاورة لا تقضى بوحدة الروح إلا بعد أن تتخذ الوسائل لذلك فى أزمان طوال

وقد نقل إلى أنك كنت تشرح مرة لتلاميذك قول الشاعر

وأطلالك اللائى بمنعرج اللوى   بلين بلى لم تبلهن ربوع

فقلت لهم : كلمة (بمنعرج اللوى) تساوى خمسة جنيهات !

وهذا مرجعه أنك تتذوق هذا التعبير ، ومن المحتمل أن نجد من يقومه بأكثر من ذلك فيرى أنه يساوى عشرة جنيهات ! وقد لا يفهمه بعض الناس فيرفض أن يدفع فيه خمسة مليمات !

ومن هذا ما وقع مرة للأستاذ على الجارم وكان يفتش فى إحدى مدارس البنات فقرأت له تلميذة موضوع الانشاء فجاءت فيه كلمة « سابلة » فقال الأستاذ : هذه كلمة تساوى شلن !

وأنا هنا لا أمزح وإنما أتخذ من هذه النوادر شواهد لابحاثي فى فقه اللغة : فللألفاظ حيوات مختلفة فى أذهان الناس ، وبعض الألفاظ أحيا من بعض فى التعبير الواحد ، وهو هو لم يتغير ، وإنما تتغير الأذواق

وما تعتمد أنت عليه من قوله تعالى (إنا أنزلناه قرآنا عربيا) لا يدل على وحدة اللغة العربية فى جميع أطراف الجزيرة ، لأن القرآن كان يخاطب حينذاك خصومه من قريش ، ولم يكن اليمنيون اشتركوا فى معارضة الدين الجديد حين نزلت الآيات التى تمن على

العرب أن القرآن جاء بلسان عربى مبين

٤ ــ ونعود بعد ذلك إلى الحديث الذى أثار هذه المشكلة وهو حديث الكاهن خنافر ابن التوأم الحميرى وقد رواه ابن الكلبى عن أبيه ، وهذا الراوية معروف بعدم الثقة ، وللاستاذ عبدالمطلب أن يجهد نفسه قليلا فيقدم لنا بحثا عن الرواة الذين اهتموا بنقل آثار العرب القحطانيين ، ولو فعل لا نكشف له الغطاء عن أشياء كثيرة كانت تحسب حقائق وهى أوهام . فان لم يفعل فسندله نحن على قيمة الآثار الحميرية التى دونت بلغة قريش . وأنا على هذا سأشقيه وأشقى زملاءه معه فقد انقضى زمن الفروض وأصبحنا فى أشد الحاجة إلى أن نعرف كيف تكون الرهبنة فى طلب العلم وكيف يجب أن نشغل بدرس آدابنا دراسة عميقة تقفنا من أصولها موقف المستيقن الواثق مما يكتب وما يقول

وإلى القراء نموذجا من حديث خنافر الذى اطمأن فريق من القدماء والمحدثين إلى أنه يمثل اللغة الحميرية قبيل الاسلام فقد روى عن ذلك الكاهن أنه قال :

« كان رئيى فى الجاهلية لايكاد يتغيب عنى ، فلما شاع الاسلام فقدته مدة طويلة وساءنى ذلك ، فبينا أنا ليلة بذلك الوادى نائما إذهوى هوى العقاب فقال : خنافر! فقلت : شصار ! فقال : اسمع أقل . قلت: قل أسمع . فقال : عه تغنم . لكل مدة نهاية ، وكل ذى آمد إلى غاية قلت : أجل ! فقال كل دولة إلى أجل ، ثم يتاح لها حول ، انتسخت

النحل ، ورجعت إلى حقائقها الملل،إنك سجير موصول ، والنصح لك مبذول ، وإنى آنست بأرض الشام ، نفرا من آل العذام، حكاما على الحـكام ، يزبرون ذارونق من الـكلام ، ليس بالشعر المؤلف ولا السجع المتكلف ، فأصغيت فزجرت ،فعاودت فظلفت. فقلت : بم تهيمون ، وإلام تعتزون ؟ قالوا : خطاب كبار، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع ياشصار ، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار تنج من أوار النار . فقلت : وما هذا الـكلام ؟ فقالوا فرقان ، بين الـكفر والايمان ، رسول من مضر ، من أهل المدر ، انبعث فظهر فجاء بقول قد بهر، وأوضح نهجا قد دثر ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذ لمن ازدجر ، ألف بالآى الـكبر . قلت : ومن هذا المبعوث من مضر ؟ قالوا : أحمد خير البشر . فان آمنت أعطيت الشبر ، وإن خالفت أصليت سقر، فآمنت ياخنافر، وأقبلت إليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، وإلا فهو الفراق ، لاعن تلاق » الخ . الخ

وهو حديث طويل اكتفينا منه بهذه الفقرات ، ويهمنا أن نثبت أن الذى اخترعه دس فيه بعض الألفاظ اليمنية لتصح له المحاكاة ، من ذلك الزخيخ والهوب بمعنى النار ، والجحمة بمعنى العين والواهر بمعنى الساكن . الخ

وأين هذه اللغة السهلة المقبولة من النصوص التى نقلها السنيور جويدى عن النقوش الحميريه كقولهم :

« وهيم وأخهو بنو كلبت هقينو إل مقة ذهرن ذن مزندن حجن وقهمو بمسألهو لو فيهمو وسعدهمو نعمتم »

وقولهم:

« أخت أمهو وشفنرم بعلتى خمتن بخلف هجرت مريب شمتى وثنن لال مقة بعل أوم حجن وقهمو بمسألهمو لو فيهمو »

ويجب أن لا يدهش القارىء من غرابة هذه النصوص فهى عند الشرح تبدو قريبة من اللغة العدنانية قربا يتناسب مع ما كان بين القحطانيين والعدنانيين من مختلف الصلات ، والتفاوت بين هاتين اللغتين يشبه التفاوت بين اللغة العربية واللغة العبرية ، فهما مختلفتان ولكنهما فى الوقت نفسه تتقاربان فى كثير من الخصائص والمميزات

وقد اتفق لى مرة أن اطلعت على جريدة تونسية فيها مقال بلغة أهل تونس العامية فحسبته لأول وهلة كتب باللغة التركية ، ثم تبينت بعد التأمل قربه من العربى الفصيح

وهذا هو الحال فيما كان بين اللغة الحميرية واللغة العدنانية فهما أختان لأحداهما خصائص أهل الجنوب ولأخراهما خصائص أهل الشمال

وأنا موقن بأن أهل اليمن لم يفهموا القرآن حق فهمه حين وصل إليهم لأول مرة ، وإنما راضهم زعماء الاسلام الفاتحون على فهم اللغة العدنانية ليفهموا بلاغة القرآن

وهذا الذى أقوله يطابق العقل والمنطق والاستقراء ، وللاستاذ عبد المطلب أن يتغاضى لحظة عن نصوص ياقوت وأحكامه فى اللغة والتاريخ ، ثم يقيم بنفسه تجارب لغوية ليقتنع بصدق ما أقول

وكان فى مقدورى أن أنكر قيمة ما يراه ياقوت لأنه كتب ما كتب فى القرن السابع للهجرة وعن مصادر تنقصها الدقة وفى حياة مضطربة لا تسمح بروية ولا تحقيق، ولكنى مكتف بالاشارة إلى أن أحكام ياقوت وأمثاله على اللغة الحميرية لا تفيد غير الظن ، أما النقوش التى يدرسها الباحثون اليوم فهى باب إلى اليقين

٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ .

العيد فى سنتريس[1]

« صورة وصفية »

١ — القرى المصرية تتشابه فى كثير من الشمائل والتقاليد ، وأوضح آيات هذا التشابه هندسة البناء ، وهى تدل على وحدة الذوق فحيثما توجهت فى قرى المنوفية والشرقية والغربية والجيزة وأسيوط تروعك الصورة الموحدة أو المتماثلة التى تمتاز بها القرى المصرية ، ومن أسباب هذا التشابه وحدة منافع العيش التى تفرض على أهل

(١) وهى بلدة الأستاذ الدكتور وقد أنجبت كثيرا من أهل العلم والأدب والفضل . مصححه

الشمال أن ينقلوا بعض محصولاتهم إلى الجهات الجنوبية ، وشجرة الجميزة المقدسة يراها الناظر فى كل قرية حيث تغرس فى المنازل الكبيرة فى الشمال والجنوب لتدل الناظر على أنها نبتت فى بيت واسع الأرجاء ، ولتشعر من يراها بأن من غرسوها يعيشون فى بلد يستحب فيه الظل الظليل

وشمائل الفلاحين واحدة ، أو كالواحدة ، فى نظام البيت واستقبال الضيف ، والتعابير التى يتداولونها واحدة مع اختلاف قليل فى الأداء وجرس النبرات ، وأحلامهم ومخاوفهم واحدة ، فهم جميعا يعيشون فوق أرض متشابهة فيما استعدت لاخراجه من الشجر والنبات ، ويروون من نهر واحد هو النيل ؛ وهم فوق هذا وذاك يخضعون لثقافة واحدة ، هى ما يصل اليهم من تعاليم الدين

فان رأيتنى أتحدث عن العيد فى سنتريس فتذكر أني أعنى العيد فى الريف ، وأنا مع هذا لا أنكر أن هناك تقاليد خاصة يفترق بها بعض البلاد عن بعض ، ولكنها لا تلاشى الطبع الأصيل الذى يصطبغ به مجموع البلاد

٢ — فى سنتريس صورتان مختلفتان لطعام العيد ، الأولى لعيد الفطر والثانية لعيد الأضحى ، ففى عيد الفطر يغلب الكعك — وهم فى بلدنا ينطقونه بالحاء المهملة ومنه جاءت كلمة الكيك فى اللغات الأجنبية وهو فى الأصل فارسى معرب

ويكثر كذلك « المنين » وهو أقراص صغيرة تحلى بالسكر

أو بالعجوة ، وربة البيت تصنع من عجينة الكعك قوسا لكل صبى وعروسة لكل صبية ، والقوس كعكة كبيرة تنقش نقوشا مختلفة يفرح بها الصبيان ، والعروسة بنية صغيرة من العجين المأدوم بالزبد والمحلى بالسكر والزبيب

وفى عيد الأضحى يكون الطعام من اللحم ، ولا يصنع الكعك إلا قليلا

والهدايا تساير هذا الاصطلاح ، فالخاطب يهدى لخطيبته كعكا فى عيد الفطر ، ومعه البندق وعين الجمل واللوز وهذه الأشياء تسمى « الفطرة » لذلك ، وفى عيد الأضحى يهدى إليها فخذة الخروف ، والعروس بعد أن تزف إلى زوجها ويجىء العيد يهدى إليها أهلها كعكا فيه قوس « للعريس الجديد » وفيه عروسة للعروسة !

٣ — وللكعك فى نفس أهل سنتريس صورة الفرح والانشراح وهم لذلك يحرمونه على أنفسهم فى العيد إذا كان فى البيت حزن ، والأهل والجيران يراعون خواطر من مات لهم ميت لم يمض عليه العيد فيمتنعون عن خبيز الكعك ، ومع أن المحزونين يحرمون على أنفسهم الكعك فانهم يصنعونه أحيانا للصدقة على روح الأموات ، كأنهم يتأدبون بأدب الآية الكريمة

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)

ومن غرائب التقاليد فى سنتريس أن الكعك والفطير لا يحسن

صنعه إلا كرائم النساء، وفى كل حى سيدة أو اثنتان لهما شهرة بذلك : والفتاة التى تحسن « تبطيط » الفطيرة وتجيد « تفتيل » الكعك ، وتعرف كيف تقعد أمام الفرن لانضاج الكعك والفطير ، مثل هذه الفتاة يأتى الجارات لتهنئة أمها ويدعون لها « بعريس الغفلة ، والباب بلا قفلة » وسر ذلك أن الفطير آسيل الخد تؤذيه النار ولا تحسن إنضاجه إلا سيدة لبقة أو فتاة ناضجة الذكاء ، وكذلك الكعك يحتاج فى إنضاجه إلى حزم ورفق

والبنت التى لاتحسن انضاج الكعك والفطير يبكتها أهل البيت بهذه الكلمة

« اختوا للخايبة النقرة ، عيشتها عار وموتها سترة »

ويتبع دلالة الكعك على الفرح والانشراح أنهم لا يصنعونه فى غير العيد إلا عند عملية الختان وعند الزواج ، وهو يقدم بسخاء لمن يدفعون النقوط

وفيما عدا ذلك يضربون هذا المثل :

« بعد العيد لا ينفتل كعك »

٤ — وألفاظ التعبير تختلف باختلاف المخاطبين فحين تلقى رجلا كهلا تخاطبه فى عيدالأضحى بهذه العبارة «العيد المقبل تكون على منى » وعندما تلقى شابا تقول له : « العيد المقبل تكون فى حضنك العروسة » والسيدات يتخاطبن فيما بينهن بأمثال هذه العبارات :

« السنة المقبلة يا أختى ، يـــكون على كتفك ولد !.. السنة المقبلة تكون الشاطرة بنتك لها أخ !... السنة المقبلة تكون بنتك فى بيت العدل » بفتح العين والدال

وكذلك تمضى عبارات التعييـــد فى حدود المعاني الأدبية والمعاشية ، وكلمة « العروسة » تجرى يوم العيد فى كل بيت وفى كل شارع وفى كل مجتمع ، وبهذا تأخذ « العروسة » مكانا فى خيال الطفل منذ نعومة أظفاره ، فلا يرى نفسه رجلا إلا حين يتزوج ، ولهذه النزعة أثر كبير فى منع أزمة الزواج فى الأرياف ، وأهل بلدنا لا يعرفون هذه الأزمة الاجتماعية على الاطلاق ، وبذلك يغلب عليهم التصون والعفاف ، أكرمك الله ياسنتريس !

٥ — ولصلاة العيد اسم طنان فى سنتريس ، وأشهر مساجدها جامع أبي فراج وجامع سيدى سالم ، وهم يزعمون أن « أبا فراج » من العراق ، وأن « سيدى سالم » هو سالم بن عبدالله أحد كرام التابعين وما رأيته فى شرح البخارى ينقض ذلك ، ولعل هذا جاء من أن أهل مصر لا يعز لديهم فى الغالب غير الغريب ولذلك حرص أهل سنتريس على أن يكون (سيدى سالم) من الحجاز وأن يكون (أبو فراج) من العراق ، والغريب يستطيع بسهولة أن يصطنع لنفسه منزلة علمية أو أدبية أو دينية ، أما ابن البلد فيشقى كما شقيت ولا يعترف له أحد بجميل !

وأعود فأقول إن أهل سنتريس يذهبون إلى المساجد قبل

الفجر بساعة أو ساعتين فيقرأ المتهجـــدون ورد السحر ويرتلون الدعوات والتسبيحات ، أما الشبان فيأخذون معهم فى عيد الفطر كميات من البندق وعين الجمل واللوز ويملأون المسجد بالفرقعة والضجيج ، وفى هذه الاثناء يكون الأطفال قد أحاطوا بالمسجد وشرعوا فى ضرب الأسواط والصواريخ !

٦ — يتأهب الفقراء للعيد بشراء ثوب العيد ، وهو فى الأغلب من البفتة البيضاء ويلبسونه بلا غسل فيكون له قعقعة وحفيف ! والخيــاطة غالبا من صنعة النساء الفقيرات ، ولا يذهب إلى الخياطين إلا المتأنقون ، وفى يوم الوقفة تجد الناس يغدون ويروحون للبحث عن ثيابهم ، وقد يتجمهرون على باب الخياط فى ليلة العيد ، وهى عند الخياطين ليلة ساهرة يصلونها بالصباح

ولهم فى عيد الأضحى خرافة طريفة ، فهم يعتقدون أنه لا تجوز الخياطة ولا حمل الابرة فى وقفة عيد الأضحى ، ويزعمون أن الحجاج يدعون عليهم فى عرفات فيقولون

(الله عليك يا ما سكة الابرة ، الله عليك ياحالة شعرك !!)

٧ — وزيارة الأموات فى ليلة العيد من التقاليد المعروفة فى سنتريس ، ولكن لايبيت أحدمنهم كما يقع فى القاهرة ، ولايذهب رجل أو فتى إلى المقبرة إلا وفى يده فانوس ، والطبقات الفقيرة تقتنى الفانوس ولاتوقده إلا فى ليلة العيد لهذا الغرض ، وتكون الفوانيس غالبا ملونة الجوانب بالأحمر والأخضر والأصفر ، كأنها عرائس

هذا الزمان!

٨ — وفى يوم العيد تجلس كل عائلة فى الدوار لاستقبال المعيدين وتتخير كل عائلة (وفدا) للطواف حول البلد فترى الشوارع تموج بجماهير تلك الوفود ، ومن واجبك أن تصافح يوم العيد كل من تلقاه وإن لم يكن لك به معرفة ، وأن تدعو له بحج بيت الله الحرام إن كان متزوجا ، وحضن العروسة إن كان عزبا ، وبالذرية الصالحة إن كانت امرأته عقيما

وتلك الوفود تتناول القهوة فى كل دوار ، ولا ضرر فى ذلك فانها فناجين صغيرة لا يبلغ مجموعها كأسا من الشاى ، ولكنهم يمتنعون عن القهوة فى منازل الاحزان ، ولنقيد أن المحزونين لا يقدمون للمعزين غير القهوة المرة ، ولنقيد أيضا أن الميت يقام مأتمه فى العيد الأول والثانى بعد وفاته وإن مضت أشهر ، ويسمع الصراخ والعويل فى بيت أهله كأنه لم يدفن إلا أمس ، وهذه العادة تضيع كثيراً من بهجة العيد فى سنتريس

٩ — ومع أنه لا يجوز صنع الكعك فى المنازل الحزينة فانه يجب على أهل الميت أن يلبسوا فى العيد جديد الثياب مع الاحتشام ، والحشمة توجب أن يتجنبوا اللون الأبيض والأحمر ، وأن يتخيروا اللون البنى أو الأسود . ومن غرائب المفارقات أن أهل الأندلس كانوا يختارون اللون الأبيض فى ثياب الحداد وفى هذا المعنى قيل هذان البيتان :

يقولون البياض لباس حزن ... بأندلس وذاك من الصواب
ألم ترنى لبست بياض شعرى ... لأنى قد حزنت على شبابى

ويعتقد أهل سنتريس أن الميت يشتهى فى قبره أن يظهر أهله بمظهر الغنى والجاه ، ولذلك يستحب أن يتقمش المحزونون

١٠ — وفى اليوم الذى يسبق وقفة العيد يطوف الجزارون بالبلد فى موكب من الأطفال اللاعبين ، ومعهم ما أعدوا للذبح من الغنم والبقر والجمال ، ويكون ذلك قبيل الغروب ، وهى اللحظة التى يعود فيها الناس من الغيطان ، وينادى المنادى :

غربي البلد بكره ، عند محمود الرفاعى !
شرقى البلد بكره ، عند أبو شعلان !
العسل الشهد عند أبو شبل !
انفرج وشوف ياابن الحلال !

وفى فجر الوقفة تنحر الذبائح ويتسابق الناس إلى تموين بيوتهم من اللحم الغضيب

١١ — وفى سنتريس أسرة قبطية تشارك المسلمين فى العيد ، ولكنهم لا يأكلون لحم الجمل ، وفى الصباح يتكون وفد من الأقباط للطواف بدوار المسلمين فيقابلون بالترحيب

١٢ — وكانت ملاهى العيد فى سنتريس قليلة ، ليس فيها إلا أراجيح الأطفال ، ولكن جدت فى هذه الأيام قهوتان إحداهما على النيل بجوار طريق الاسكندرية والأخرى على طريق أشمون

وفى هاتين القهوتين يدار الفونوغراف ، وتلقى بعض النكت المبتذلة
ولا يذهب إلى هذه الملاهى إلا الشبان الذين يخاصون من سلطان
الآباء ، فان أهل سنتريس لايعيدون إلا فى منازلهم ودواويرهم ؛
ولا يخرج منهم إلى القهوة إلا من وصل إلى أذنه أن المدنية الحديثة
لها فى العيد مذهب جديد !

ومن المؤكد أن رواد القهوات فى سنتريس سيقرأون هذا
المقال ويعتبون ، ولكن لا بأس فنحن نصور الواقع رغبة فى تأريخ
التطورات الاجتماعية فى الريف

* * *

أما بعد فقد كان حضور العيد فريضة وكنت لا أستطيع قضاءه
إلا فى سنتريس بين الأهل والأحباب ، ثم راضتنى الأيام على
احتمال الفراق . وصل الله بكم قلبى ياأهل سنتريس ، وأرانى وجوهكم
فى خير وعافية   والسلام

أول شوال سنة ١٣٥٢

*

شـــــــــوقى

كلمة صدق فى توديع أمير الشعراء

كان فى مصر رجلان يقال لهما حافظ وشوقى ، وكان لذينك الرجلين ولوع بالحديث عن الموت ، وكان حافظ ينعى نفسه فى كل مناسبة ، ويرحب بالراحة الأبدية ، أما شوقى فكان يقف دائما وقفة المتطلع ، ويتمنى لو حدثه الأموات عما بعد الموت ، حتى كاد حديثه عما بعد الموت يعد من إحدى لوازمه فى قصائد الرثاء

وكان القدماء يرون أن الدنيا لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول أبى نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق

ونحن نرى أن الحياة لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول شوقى :

كم فى الحياة من الصحراء من شبه
كلتاهما فى مفاجأة الفتى شرع
وراء كل سبيل فيهما قدر
لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع

فلست تدرى وإن كنت الحريص متى
تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئة
من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدرى وإن قدرت مجتهدا
متى تحط رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى
أن الدليل وإن أرداك متبع

أو قوله :

لبنان ردتنى اليك من النوى
أقدار سير للحياة دراك
جمعت نزيلى ظهرها من فرقة
كرة وراء صوالج الأفلاك
نمشى عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك

والذى يقرأ ما سطره الكتاب فى رثاء شوقى يراهم جميعا وقفوا يتحدثون عن الموت وعما بعد الموت ، كأن ذلك الرجل الذى طال وقوفه بباب الأقدار ألهمهم ما يقولون فى التطلع إلى ما سيكون بعد الموت . . . أكان شوقى أول ميت حتى يثير كل هذه الشجون ؟

لا ، لم يكن شوقى أول ميت ، ولكن موت الشاعر فجعية تبعث

على التفكير فى حقائق الموت والحياة ، وخاصة شوقى ، فانا لا نعرف إنسانا فى مصر طابت له الحياة كما طابت لشوقى ، ولا نعرف شاعرا تغنى بأطايب الحياة كما تغنى شوقى ، فكان من الحق أن نسأل : وشوقى أيضا يموت ؟!

وبعد فمن شوقى ؟ وما شعره ؟

كان شوقى عاديا فى حديثه ، وفى مظهره ، ولكنه كان فى شعره أعجوبة الأعاجيب ، وكان دليلا على أن العرب كانوا معذورين حين ظنوا الشعر من وحى الشياطين . فما أذكر أن حديث شوقى راعنى مرة ، أو دلنى على أن للرجل عقلا يمتاز على سائر العقول . وكان مظهره بسيطا جداً لانه كان يبغض اللباس الأنيق ، وإنهم ليذكرون أنه كان يضيق صدراً بالملابس الرسمية ، وأنه طلب من الخديو السابق أن يعفيه من لبس الردنجوت فى قصر عابدين ، وأن الخديو أعفاه وأن شكله كان يضحك حين يتكلف ملابس الاستقبال عند تقديم بعض السفراء.

ولكن هل العبقرية لباس مهندم ولسان معسول ؟

هيهات ! لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن يكون أشعر الناس فى زمانه : لان العبقرية سر مكنون ، وقد أفصح هو عن ذلك أبرع إفصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شانى
أنا أسمو إلى نباهة شانه

كان بالسبق والميادين أولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه
ما الرحيق الذى تذوقون من كر
مى وإن عشت طائفا بدنانه
وهبونى الحمام لذة سجع
أين فضل الحمام فى تحنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

ومن ذلك الوتر الرنان الذى وهبه شوقى كانت الدرع الحصينة التى يدفع بها سهام الحاقدين ، فقد قامت فى وجه الرجل أعاصير جائحة من النقد المسموم ، فثبت لها ثبات الجبال الرواسخ ، وظل هو فى جميع الأحوال لا يخبو زنده ، ولا ينكسر جناحه ، ولا يقع طائره ، مع أن حاسديه لم يتورعوا - وهم ينهشون لحمه - من رميه بما يهد عزائم الرجال . وكان يتخذ من أحقاد خصومه مادة لشعره قد تكون من أجمل ما تغذى به خياله الوثاب ، والقراء يذكرون أن ناسا عابوا عليه سكوته عند نعى حافظ وذهبوا يتقولون عليه الأقاويل ، فدمغهم بقوله فى رثاء حافظ :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى
يامنصف الموتي من الاحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة

قدر ، وكل منيـــة بقضاء

وودت لو أنى فداك من الردى

والكاذبون المرجفون فدائى

الناطقون عن الضغينة والهوى

والموغرو الموتى على الأحيـاء

من كل هـدام ويبنى مجـــده

بكرائم الانقاض والاشلاء

ما حطموك وإنما بك حطموا

من ذا يحطم رفرف الجوزاء!

انظر فأنت كأمس شأنك باذخ

فى الشرق واسمك ارفع الأسماء

وهو يعنى نفسه بالبيتين الأخيرين ، وإن توهم القارىء أنه يعنى حافظ إبراهيم

***

كان شوقى مفطورا على الشعر ، وكانت الحياة فى عينيه شعرية الملامح ، وكان يستبيح من متع العيش كل ما حوت فراديس الشعراء وكانت حياته فى بيته وبين أهله مطبوعة بطابع شعرى أخاذ ، وكان

هيامه بقطع المسافات الطوال على قدميه أيام قوته دليلا على أن الرجل يقظ المشاعر ، وأنه مفتون بدرس مظاهر الوجود ، وكان الشعر يسود كل مافى حياته من نظام واضطراب . وقد تصادقنا حينا وألفنا التلاقى فى كل يوم حقبةمن الزمان ، فكنت ألاحظ أن للرجل نواحى هو فيها أضبط من الساعة - كما نعبر فى لغة الحديث - ونواحى يهمل فى ضبطها وتحديدها أغرب الاهمال ، وهو فى نظامه واضطرابه شاعر يعرف كيف يتذوق مفاتن العقل والجنون

وكان شوقى مفتونا بأبنائه إلى حد العشق ، وخاصة بابنته أمينة وابنه حسين ، وله فى أبنائه شعر رائع يدل على أن الرجل كان شاعر العقل والذوق والروح ، وكان يتعلق بأصهاره تعلقا شديدا يذكر بعيش الفطرة فى خيام الاعراب ، وكانت منافع الدنيا تتمثل له فاتنة جذابة ، لأن الرجل فى شعره وفى صميم قلبـــه وروحه ونظامه السياسى والاجتماعى كان رجل دنيا ، وكان لايفهم كيف يكون الزهد وكيف يكون الاعراض عن أطايب العيش ، والذين لاموا شوقى على التشبث بأهداب الجاه العريض لم ينظروا إلى الدنيا بعينيه القلقتين ولم يعرفوا كيف تكون السيطرة وكيف يكون الاستبداد بمتع العيش على شواطىء النيل . والحياة فى مصر - وفى الدنيا كلها - لاتتم أسبابها بغير الجاه والمال ، وكان الرجل يفهم ذلك فهم الشاعر ، وليتصور القارىء كيف يكون فهم الشاعر ، وخاصة عند أمثال شوقى ممن تلقوا الدنيا بحس مرهف وذوق مصقول

كانت لشوقى دنيا قبل الحرب فأخرجته منها أفاعى الحوادث كما عبثت الحية فأخرجت آدم من الجنة ، وقد ظلت ذكريات ذلك الفردوس المفقود تعتاده فى اليقظة والمنام ، وذلك هو سر تحفظه وحيطته فى كل ما يمس دقائق السياسة العالية ؛ فان قال ناس إنه لم يهب الجماهير صفو شعره فليتذكروا أن ذلك لم يكن ليقع لو أن الرجل فطر ذوقه فطرة شعبية ، وكيف وكان يزهى ويفتن كلما تذكر أنه ولد فى رحاب المجد والجاه !

كان شوقى مفتونا بشعره كل الفتون ، وكان لا يصدق أن فى الدنيا شاعرا غيره ، وكان يعادى ويصادق على هذا الأساس ، وقد اتفق أن توثقت بيننا أواصر الصداقة بعد عودته من المنفى ، وظلت صداقتنا على خير حال نحو ثلاثة أعوام ، فلما كان صيف سنة ١٩٢٥ طلب منى أن أكتب مقدمة للشوقيات فقبلت ، ثم عدت فتذكرت أن الذوق يفرض أن تكتب المقدمة بشىء من المجاملة ، وأن هذا قد يضرنى إذا اضطررت لنقد شعره فى مستقبل الأيام ، فكتبت إليه خطابا أعتذر عن كتابة مقدمة الشوقيات ، وكان فى الخطاب تعليل لذلك الاعتذار يتلخص فى مصارحته بأنه عرضة للخطأ والصواب وأنى أحب أن أحتفظ بحريتى فى نقده إذا اقتضى الحال . وكنت أنتظر أن يتقبل الرجل عذرى ، ولكنه أسر الغضب وأضمر الجفاء وطوى ما كان بيننا من وداد منذ ذلك الحين [1]

(١) ومع ذلك فقد بالغ الدكتور فى الثناء عليه بما لا مزيد فوقه وتلك لعمرى أحاسن أخلاق العلماء . مصححه .

***

كان شوقى من كبار أهل العلم بأسرار اللغة العربية ، وقد دانت له تعابيرها وأخيلتها وألفاظها بحيث كانت قصائده تحمل من صنوف الثروة اللغوية مالا تظفر به قصائد غيره من المعاصرين إلا فى النادر القليل ، ومن رأى بعض رجال الأدب أن شوقى كان أعلم من حافظ باللغة ، وحجته فى ذلك أن حافظ لم يملك غير الديباجة المتينة أما شوقى فكان يقع على كلمات نادرة يطرز بها شعره من غير أن يشعر القارىء أنها اجتلبت عن طريق التكلف أو الافتعال ، وكان شوقى بالفعل من المولعين بالمراجعات الموصولة فى كتب الأدب والتاريخ وكان يفهم جيداً أنه من أئمة الأدب ، وأن من واجبه أن يتعرف إلى روائع الأدب القديم والحديث ، وكان لمثل هذا الموقف من الآداب الأجنبية وإن كانت صلته بأدب أوربا وأمريكا وقفت عند حدود المشاهد السينمائية منذ ضعف بصره عن كثرة القراءة ، ومثل شوقى كانت تكفيه اللمحة الدالة ، فكانت المناظر السينمائية تغنيه عن قراءة مختلف الأقاصيص .

***

كان شوقى من حيث الديباجة فى الذروة العالية ، وكانت

معانيه وموضوعاته من روائع الأدب الجديد . وقد ظلم ناس أنفسهم وظلموا النقد النزيه حين قرروا أن شوقي لم يكن في معانيه من المبدعين ، وحسب القراء أن يذكروا أن شوقي كان من أسبق الناس إلى تدوين كبريات الحوادث في مصر والشرق . وسيظل ديوانه من أهم المراجع لتاريخ هذا الجيل .

وقد ابتدع شوقي القصص الشعري المسرحي لأول مرة في تاريخ اللغة العربية ، ولم يكن أول من حاول هذه المحاولة ، ولكنه أول من نجح نجاحا يذكر ويؤثر ، وسينسى التاريخ المحاولات الأولية مع الأسف ، ويذكر أن شوقي هو أول من شغل المسارح برواياته الشعرية ، وأول من طاف بشعره الممثـــلون في مختلف الأقطار العربية

وبعد فهذه كلمة قصيرة في توديع شوقي ، وإن نفسي لتطيب كلما ذكرت أني كنت أول ناقد أنصف شوقي في حياته كما يشهد بذلك كتاب « الموازنة بين الشعراء » ويرحم الله من قال :

وطيب نفسي أنني لم أقل له   كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢

*

النباتيون فى باريس

حقائق تنفع الشباب والكهول

باريس فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٠

إن المذاهب الفلسفية لا تنشأ مصادفة واتفاقا ، ولكنها تنشأ وفقا لطائفة من الغرائز والطبائع والميول والأهواء ، ولن تجد رجلا يتشيع لمذهب من المذاهب الروحية ، أو الطبيعية ، أو الاجتماعية إلا خضوعا لحاجة ملحة من تكوينه الطبيعى والجثمانى والحسى . فالفلسفة ليست من الشؤون الكمالية كما يتوهم المتوهمون ولكنها ضرورات الحياة يلجأ اليها من خانته قوة من قواه أوألح عليه هوى من أهوائه ، أو اضطرب نظام أعصابه ، أو أمعائه ، أو غلبت عليه أزمة من الأزمات الاجتماعية التى تفرض تغيير نظام الاجتماع من وضع إلى وضع ، وتبديله من حال إلى حال . وأهل الفلسفة ليسوا هم طلبة الفلسفة ولا أساتذة الفلسفةالذين يدرسونها فى المعاهد والجامعات ؛ فقد يكون أكثر طلبة الفلسفة وأساتذتها ناسا عاديين هادئين لم يجدوا من تقلبات الحياة وصروفها مايحملهم على اعتناق مذهب من المذاهب الفلسفية ، وإنما أهل الفلسفة هم

الناس الحساسون الذين اصطدموا بأمواج الحياة فغالبوها وغالبتهم وكان منهم المنتصرون والمنهزمون،ولو أننا عدنا الى الفلاسفة فدرسنا حياتهم الخاصة ، وعرفنا كيف كانوا يعيشون فى منازلهم ، وبين أزواجهم وأبنائهم ، وأصدقائهم وأقربائهم ، وخلطائهم وعشرائهم ثم تطرفنا فبحثنا كيف كانوا يلهون ويلعبون ، وكيف كانوا يجدون ويعملون ، وكيف كانوا يحبون ويبغضون ، ومن أى طبيعة كان حبهم وبغضهم ، وجدهم ولعبهم ، وعلى أى حال من الأحوال النفسية كان أحبابهم وأعداؤهم وأنصارهم وحسادهم ، لو أننا درسنا حياة الفلاسفة بشيء من الاستقصاء لعرفنا كيف تكونت فكرتهم الفلسفية ، وعرفنا ما السبب فى أن بعضهم يقبل على مذهب وينحرف عن مذهب آخر ، وما السبب فى أن هذا الفيلسوف كان من الروحيين ، وذاك كان من الطبيعيين، وهذا كان من فلاسفة الاجتماع وذلك كان من أصحاب الرأى فى الحق أو الخير أو الجمال.فان الواقع أن كل كلمة يخطها الأديب العبقرى أو الفيلسوف المتمرد ، ترجع الى طائفة معقدة من الحوادث الفردية والاجتماعية ، وليست الآثار الأدبية والفلسفية إلا صدى لزوابع وأعاصير ورعود مرت بنفس الأديب أو الفيلسوف ، والقارىء قد يلهو وهو يقرأ ما يقع له من آثار الفلاسفة والأدباء ، غير مكترث بما بين يديه من عصارة الاحشاء والاعصاب والقلوب ، ولعله لو تأمل لرأى فى ظلال كل كلمة حشا يتفتت أو قلبا يذوب .

أكتب هذا تمهيداً لما أقدمه من أعمال النباتيين فى باريس ، فانى لا أظن أن المذاهب الطبيعية تنشأ فى مثل باريس حبا فى الشهرة وطلبا لبعد الصيت ، كلا وإنما استطاعت باريس بما فيهامن تعقيد اللهو والطعام والشراب ، وما يجرى فى خفايابيوتهامن البؤس والفاقة والضجر والاكتئاب ، استطاعت باريس بعنفها وجبروتها أن تهدى ناسا وتضل آخرين : فهى مأوى لجميع المذاهب الأدبية والفلسفية إذ كانت مأوى لأكثر الأشقياء والسعداء والمترفين والبائسين ، ففى كل ركن من أركانها يشقى ناس ويسعد ناس ، ويموت فريق من البطنة وفريق من الجوع ، ويغتسل ناس باللبن لتنعم أجسامهم فيما يزعمون ، ويبحث آخرون عن لقمة فلا يجدون ، ومثل هذا الجو المعقد جدير بأن يخلق ألوانا من التفكير يختلف بعضها عن بعض أشد الاختلاف : فللمدرسين فلسفة ، وللفنانين فلسفة ، وللعمال فلسفة وهكذا دواليك حتى لا تجد باريسيا واحدا خالى الذهن من المشاكل العقلية والروحية والاجتماعية ،وإنك لتجد صدى ذلك كله فى الجرائد وفى الأندية وفى المطبوعات ، وعلى ألسنة الناس حيث تجمعهم ساعات العمل أو ساعات الفراغ .

وليس معنى ذلك أن الفلسفة النباتية لم تنشأ إلا فى باريس ، لا فهى فلسفة قديمة عرفها الهنود والعرب واليونان ، وهى فوق ذلك كله فلسفة طبيعية : فهناك ناس يفرون بفطرتهم من اللحوم من دون أن يعظهم أديب أو فيلسوف ، ففى القرى المصرية يوجد أفراد

لا يأكلون اللحم ، وليس امتناعهم عن أكله أثراً للاقتصاد أو الفلسفة ، ولكنهم لا يسيغونه ولا يشتهونه ، وأنياب الانسان عند التأمل غير مستعدة لأكل اللحم، وإن كان هذا لا يمنع أن فى الناس من يأكلون السمك نيئا ، وأقول السمك فقط ، لأنى ماسمعت ولا رأيت إنسانا يأكل لحم الحيوان قبل أن تنضجه النار [١] وقديما وجد فى العرب لعهد النبوة من حرم اللحم على نفسه فنزلت آية (ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وامتناع الانسان عن اللحم امتناعا مطلقا يبدو كأنه فلسفة عديمة القيمة ، وقد امتنع أبو العلاء المعرى عن أكل اللحم ، ويؤثر أن طبيبه وصف له فروجا يأكله وقد أبل من مرض ألم به ، فلما لمسه صاح : «استضعفوك فوصفوك ! هلا وصفوا شبل الأسد !» وهى سذاجة من جانب أبى العلاء ، وإلا فلو وصف له شبل الأسد فأكل منه لعجزت أمعاؤه عن هضم ذلك الضارى الفتاك

والأطباء حين يصفون اللحوم البيضاء يسايرون الطبيعة ، فانه لاجدال فى أن الانسان بطبيعة تكوينه قادر على هضم لحوم الطير بلا مشقة ولا عناء ، وفقهاء الشريعة الاسلامية كانوا على حق يوم تعرضوا للحم الجمل واستحبوا أن يضعوا لآكليه بعض الآداب الخاصة بالوضوء والاغتسال، لأن لحم الجمل قوى لا يهضم بسهولة ،

---

(١) علمت أن بعض القبائل الوحشية تأكل اللحم نيئا ، ولكنهم فى الأغلب يضعونه فى توابل تلينه

وقديما عاب كسرى على العرب إقبالهم على لحم ذلك الحيوان ، ورأى في أكله نوعا من الوحشية والاستذآب

وبعد فقد أنشئت جمعية النباتيين فى باريس سنة ١٩١١ وهى تسمى بالفرنسية « علامة الوصل » أنشأها جماعة من محبي الفلسفة والراغبين فى إنقاذ الحياة الانسانية من مضار اللحم والخمر والتدخين واليك ترجمة المبادىء التى أعلنتها يومذاك:

أولا — نحن نعتقد أنه من الممكن لكل إنسان فى الحالة الاجتماعية الراهنة أن يصل بمراعاة أفضل قواعد الصحة والتهذيب الشخصى إلى تحسين عظيم الأهمية فى تقويم حياته

ثانيا — نحن نعتقد أن قيمة الأفراد هى التى تكون قيمة الجماعات وهي التى تحدث أعظم الأثر فى الأنظمة العمومية

ثالثا — ونحن نعتقد - تبعا لذلك - أن كل إنسان عليه واجب خطير نحو نفسه ونحو المجموع ونحو مستقبل النوع، وذلك الواجب يتحقق حين يعمل جهده فى إصلاح حياته الفردية

رابعا — نحن نعتقد أن جهد الانسان فى إصلاح نفسه له نتيجة لازمة هى ظفره بمقدار من السعادة يتناسب مع ما يبذله فى هذا الشأن

خامسا — نحن نعتقد أن دراسة قوانين الطبيعة والوفاء لمبادئها تعطى الانسان أصدق المرشدين لتقويم نفسه

سادسا — نحن نعتقد أن للفكرة وللارادة الانسانية قوة عظيمة وأنه يجب أن يستخدم الانسان فكرته وإرادته عن عزيمة صادقة

فى عمل الخير ، والسمو إلى الآفاق العلوية

سابعا — نحن نعتقد اعتقادا جازما بالانتصار المؤكد للجمال على القبح ، والحق على الباطل ، والبر على الأثرة والحقد

ثامنا — نحن نعتقد أن الوسائل الفعالة فى تحقيق النفع هى الحب الشامل والاخاء والتعاون ، وأنه لاشىء من الحق أو الجمال أو الخير يمكن أن يبنى على أساس الحقد والتحزب والتعصب والمنافسة والانتقام والاضطهاد

تاسعا — نحن نعتقد وجود الجاذبية العامة ، والعطف المشترك بين من يعملون مخلصين للخير ، وإن كانوا متعارضين فى الظاهر لأن الطرائق لايجاد مستقبل أحسن تختلف بمقدار ماتختلف طبائع الناس .

هذه هى المبادىء التى أعلنتها جمعية النباتيين يوم إنشائها ، والذى يتأمل هذه المبادىء يرى أنها تعطى القوة الفردية قيمة كبيرة ، والفرد فى حقيقة الأمر هو الحجر فى بناء الجماعة ، وكل بناء لا تسلم أصوله لبنة لبنة ، وحجراً حجراً ، قريب من التداعى والسقوط .

والطرائق لتحقيق هذه المبادىء تتلخص فيما يأتي :

أولا — الامتناع المطلق عن المشروبات الروحية .

ثانيا — الامتناع عن التدخين وجميع المواد التى تميل بالجسم إلى التخدر والذهول

ثالثا — الامتناع عن اللحوم وجميع الأطعمة التى تثير الشهية

رابعا — الاقبال يوميا على الاستحمام ، أو على الأقل دلك الجسم .

خامسا — الحياة فى الهواء الطلق وفى الشمس كلما أمكن ذلك

سادسا — القيام يوميا بطائفة من الألعاب البدنية التى تحي الجسم وتنبه قواه الغافية

سابعا — تقوية الاحساس وفهم الجمال وذلك يتحقق بتخصيص جزء من كل يوم لدراسة الاحساسات والمشاعر الفنيـة النبيـلة ومشاهدة الجمال

ثامنا — تقوية الذكاء بالمطالعـة والدرس المنظم الموصول للنصوص التى تتطلب جهودا عقلية

تاسعا — تقوية ملكات النفس من اعتدال واتساق وابتهاج وصبر واحتمال وثبات وحزم وكرم وحب

عاشرا — تمرين الارادة على الحياة العاليـــة وذلك يتحقق بالاشتراك عن إخلاص ونزاهة فى أعمال الخير والبر التى يتجه نفعها إلى الانسانية بدون تفريق بين الأجناس والأديان

***

وللقارىء أن يسأل : هل لهذه الجمعية شهرة وسلطان فى باريس ؟

والجواب بالسلب : فقد طال ترددى على هذه المدينة منذ أعوام

ولم أر أثرا فعالا لهذه الجمعية ، وقدمت في صدر هذا المقال أن المذاهب الفلسفية لاتخلقها إلا الضرورة ، فمن المعقول إذن أن تكون أعمال النباتيين وجهودهم مقصورة النفع على من يجد الحاجة إلى متابعةما يفرضون من القواعدوالأصول، وأهل باريس نشاوى من الخمر والحب وقلما يفيقون

وحسب القارىء أن يعلم أن المطاعم فى باريس تعد بالألوف يجدها الانسان حيثما توجه ، ومع ذلك لا يوجد للنباتيين فى باريس إلا مطعمان لاثالث لهما ، وهذا دليل على أن النباتيين لا يتجاوزون بضع مئات فى مدينة كاد سكانها يبلغون ستة ملايين .

ولكن كيف حال المطاعم النباتية ؟

الواقع أنها غير مغرية ، وأنا شخصيا لم أتردد عليها إلا بقدر ماأعد المستندات لهذا المقال ، وهى فى الجملة خالية من كل أنواع الخمر ولا يشرب الآكلون فيها غير الماء ونوع من عصير العنب غير المختمر وفى الخمر معنى ليس فى العنب كما يقولون ، ولا يباح التدخين للآكلين والخبز جاف جدا لأنه على طبيعته الجافية لم تنزع منه النخالة، والمائدة تتكون من الحساء والخضراوات والبقول والفواكه والبسكوت وليس فى هذه المطاعم خدم يوزعون الطعام على الزائرين وإنما يذهب كل امرىء ومعه ماعونه يأخذ فيه ما شاء من أنواع الطعام وهو طعام تغلب عليه « قلة الطهى » لخلوه من إدام اللحوم وهو كثير الأنواع ويختلف باختلاف الأيام ، والملح فى هذه المطاعم

جريش غير مطحون . والآكلون فى هذه المطاعم يتكلمون بعضهم مع بعض بدون تعارف خلافا للقواعد المتبعة فى باريس حيث يعد ذلك نوعا من الفضول . ومواعيد الطعام يغلب عليها التبكير ، فاذا ذهبت قبل الظهر بساعة مثلا وجدت الناس سبقوك إلى هناك وكذلك يبكرون فى طعام العشاء . والكامخ (السلاطة) يعطى بلا حساب وهو مصنوع من الكرنب والجزر والبطاطس والزيت والبصل . والمطعم فى جملته تغلب عليه الصبغة الطبيعية ، وزوار هذه المطاعم غرباء فى باريس حتى لتكاد تحسبهم من أهل ماقبل التاريخ !

لقد ذكرنى هؤلاء النباتيون بفقراء الفلاحين فى مصر ، فهناك عائلات فقيرة لا تعرف ما طعم اللحم إلا فى المواسم والأعياد ، وهم مع ذلك فى غاية من سلامة الحواس ، وعافية الأبدان . فمن الفقراء الفلاحين من يفهمهم بأنهم فلاسفة من حيث لا يشعرون ؟

انما ينافق الضعفاء

تنصحنى ياهذا بأن أجامل ، وأن أصانع ، بل تريد أن أنافق ،
ويحك ، إنما ينافق الضعفاء

إن الله لم يخلقنى لأكون ألعوبة ، أدارى هذا وأحابى ذاك ؛ أنا خير منكم جميعا ؛ بل سيدكم جميعا ، فانظروا ما تصنعون

أنا فى نعمة من الله، لا أبالى بعدها أين يكون سخطكم، وأين يكون رضاكم، وإن الله لأكرم من أن يضطرني إلى مصانعة جماعة من الكسالى لاقيمة لهم فى هذا الوجود . لاتنصحونى وانصحوا أنفسكم، حدثونا ماخطركم فى هذه الحياة العاملة، التى نطق فيها الحجر وأنتم بفضل جهلكم صامتون ؟؟

إن فضيلة الوفاء هى التى تضطر مثلى إلى أن يجامل بعض الناس وسأعرف كيف أهجر الناس جميعا حين لا يرضيهم غير النفاق !

هذا هو فصل الخطاب : ألستم تريدون أن أنافق كما تنافقون؟ كلا لن يكون ذلك : إنكم تنافقون لتعيشوا ، أما أنا فحى بالرغم منكم، لأن الله لا يريد أن أموت ، وسوف تعلمون

أغسطس سنة ١٩١٩

الحياة الحرة[1]

يذكرون أن السيد جمال الدين الأفغاني رفض مساعدة المصريين له وهم يودعونه إلى منفاه، فلما ألحوا عليه أقنعهم بهذه الكلمة « أينما توجه الليث وجد فريسته » وقد كان السيد جمال الدين الأفغاني يستطيع مكاثرة (قارون) لو كان للمال عنده قيمة، ولكنه

(١) نشرت فى جريدة الأفكار فى نوفمبر سنة ١٩٢٢

كان رجلا يستقل الموت فى سبيل الشرف ، فلم يكن عجبا أن يستقل فى سبيله العدم والاقلال !

واليوم نسجل مانقل عن المستر لويد جورج من الرغبة الشديدة فى الحياة الحرة، لأن فى ذلك عبرة لأولى الأبصار : فقد جاهر الرجل الذى دوخ العالم بضع سنين بأنه مضطر إلى طلب الرزق ، وصرح بأنه فقير ولا عار عليه فى فقره إن عمل لسد حاجته من طريق شريف !

سقط لويد جورج ، ثم تأمل فاذا هو خالى الوفاض ، ثم نظر حواليه نظرة الليث الجائع فاذا كل مافى الأرض من طعام وشراب قد لوثه الذباب ، ففزع إلى قلمه يستصرخه فأمطره شآبيب الرزق الحلال !

اتفقت جريدة النيويورك تيمس والشيكاغو تريبون مع المستر لويد جورج على أن يقدم لهما كتابه « ذكريات الحرب » ليختصا بنشره في مقابل أربعين ألفا من الجنيهات يأخذها دفعة واحدة حين يسلمهما الكتاب !

ثم اتفقت معه بعد ذلك جمعية النشر الأمريكية على أن يكتب لها مقالات أسبوعيه تنشر فى صحفها التى تزيد على ثلاثين صحيفة في مقابل سبعة آلاف وخمسمائة من الجنيهات ! ولكن مراسل النيويورك تيمس والشيكاغو تريبون خاطب هاتين الجريدتين حين علم بهذا الاتفاق : وسألهما أيدخل فى مزايدة ويتفق مع المستر لويد جورج على ٨٥٠٠ أى بزيادة الف جنيه عن المبلغ الذى قبله من

جمعية النشر وهل له أن يزيد المبلغ إلى تسعة آلاف جنيه ؛ فجاءه الرد بأن يحتج على هذا الاتفاق : لأن اشتغال لويد جورج بهذه المقالات يؤخر وضع كتابه ، ولأن ظهور هذه المقالات أسبوعياً قد يصرف الناس عن ترقبه، فلما رفع المراسل اليه الاحتجاج كتب من فوره إلى الجريدتين خطابا طويلا جاء فيه :

«ما ظننت لحظة أن العقد الذى وقعته يمنعنى من نشر المقالات السياسية ، ولو رأيت فيه مادة من هذا القبيل لرفضته: فقد عولت بعد أن استقلت على الاشتغال بالكتابة فى الصحف بغض النظر عن كتاب « ذكريات الحرب » ولقد خدمت الحكومة سبعة عشر عاما ثم خرجت وأنا فقير فلم يكن بد من أن أكتسب بقلمى بعد ما وقفت ما سآخذه منكم على الصدقات »

هذا لويدجورج بطل انجلترا يودع رياسة الوزارة ويودع معها الجاه والمال ، ليستقبل الحياة الحرة ؛ وليفتح بقلمه ممالك عجزت عن فتحها الجيوش والأساطيل !! وهكذا يشغل العظماء عن أنفسهم حين يتولون المناصب الرفيعة ، فاذا تخلوا عنها أصبحوا فقراء كأنما يطرقون باب العالم من جديد ، أما صغار النفوس فلهم من مصالحهم الشخصية شاغل عن مصالح الجماهير ، والمناصب فرصة لهؤلاء يدخرون فيها الدراهم البيض لليالى السود . افتحوا أعينكم أيها الناس وتأملوا كيف عجز لويدجورج وقدملك المشرقين عن أن يدخر لنفسه «بدرة من الذهب » ينفقها حين يخونه الحظ ، ويسلمه التوفيق !!

لا يخجل لويد جورج ولا يتحرج من أن يقول إنه فقير ، لأن الغنى لم يمنع آلاف الناس فى انجلترا من أن يودوا بجدع الأنف لو أصبحوا فقراء على أن يكون لهم ما لهذا الفقير من مجد شامخ يعز على من رامه ويطول ، ولكن بعض الناس فى مصر — وفى غير مصر — يخفى فقره ويسامى الأغنياء فيكون مثله كمثل الضفدعة التى راقها جسم الثور ، فأخذت تنتفخ عساها تصبح فى ضخامته حتى بقرها الانتفاخ

ولئن حمدنا للمستر لويد جورج وقفته هذه فى وجه الحياة يطلب ما خلق له من السيطرة على الناس بآرائه الأدبية والسياسية بعد هيمنته عليهم هيمنة فعلية حين كان رئيسا لأقوى حكومة فى العالم الحديث ، فانا لنحمد للامة الانجليزية والشعوب الامريكية هذه الشهوة الحادة شهوة الاطلاع التى جعلت رسائل هذا الوزير مما يتنافس فيه المتنافسون ، حتى لتصبح شغلا لثلاثين جريدة لهن ما لهن من الدوى الشديد فى آذان الملايين من أحرار العقول !

لقد غلا كل شىء فى الغرب حتى المداد ، ورخص كل شىء فى الشرق حتى الدماء !! وإن قطرات من الحبر يسود بها لويد جورج وجه القرطاس لأعز منالا من الدم القانى يسفح فى سهول الشرق وإن بكت له الأرض والسماء

وبيدكم أيها الشرقيون كشف هذه الغمة ومحو هذا الظلام ، فلو شئتم أعززتم نفوسكم ، وأغليتم دماءكم ، ولن يكلفكم ذلك أن

تكونوا ناراً تلتهم القابسين والمستصبحين ، بل يكفي أن تكونوا نبتة مرة المذاق ينفر منها أولئك (الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون)

اعملوا فى شبابكم بعض مايعمل لويد جورج فى مشيبه ، واعلموا أن الأمم لاتحيا بالقيل والقال ، وكثرة السؤال ، وإنما تحيابالأعمال العظيمة يقوم بها جبابرة المفكرين من حيث لا يبتغون الجزاء

الادب عند الاحياء

ذهبت لزيارة صديق فرنسى حجبه عنا المرض يومين ، فتجلد وأقبل يحيينى ويحيى رفيق الذى صحبنى إلى هناك . وبعد لحظة هممنا بالانصراف ليعود إلى سريره الصديق العليل ، ولكن قادما طرق الباب ، ففتح له فاذا رجل فرنسى يكاد ينقله الفرح إلى هذيان الجنون وهو يصيح :

ــ اليك ياصديقى مجموعة من (كانديد)و(جرنجوار) تقتل بها وحشة الليل إن أزعجك المرض وغاب عنك الأنيس

وأقبل الصديق العليل على تلك الصحف يقلبها واحدة واحدة وقد تمشى البرء فى سقمه وعاوده الجذل والنشاط ؛ وأخذالصديقان يتقارضان الثناء ؛ وأخذ رفيقى يجاذبهما أطراف الحديث ، أما أنا فظللت

مطرق الرأس أفكر فى حياتنا الأدبية وما ينتابها من خمود

عندنا فى مصر أدباء ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى اليوم أن يشغلوا القراء بالأدب، وأن يصيروه من العناصر الضرورية لمقومات الحياة فكيف اتفق ذلك مع كثرة الصحف وكثرة الكتاب ؟

السبب واضح : ذلك بأن أدباءنا لما يعرفوا ان الأدب فى صميمه ليس إلا شرحا لأهواء النفوس ، وشهوات العقول ، ونزوات القلوب، ومن أجل ذلك كان أدباء فرنسا أعز الناس على القراء ، لأن كل قارىء هناك يجد فيما يقرأ صوراً صادقة لمشاكله الروحية والوجدانية والعقلية . أما هنا فالأدب فى جملته ثرثرة فارغة بعيدة أشد البعد عن حياة العواطف والقلوب والعقول ، لأن الحديث عن الوجدان طيش وخلاعة ومجون ، والحديث عن العقل زيغ وزندقة وإلحاد . وبهذا ينصرف الأدباء طائعين أو كارهين إلى الأدب الصورى الذى يتمثل فى طنطنة الألفاظ لا فى روعة الاغراض

ومن أشنع ما رزىء به الأدب فى مصر أن هناك طائفة من « المجددين » هم فى أنفسهم حجارة صماء ، وقد استطاع هؤلاء أن يفرضوا « أسماءهم » على الناس ، ولكنهم لركودهم وجمودهم لم يستطيعوا أن ينقلوا أحداً من غي إلى رشد ، أو من هدى إلى ضلال. والأدب الصادق هو الذى يدخل على النفوس فيبدد ما كان فيها من أمن وسكون ، ويحولها إلى ميادين يصطرع فيها الحق والباطل ، والشك واليقين .

وقد تسمعون أحيانا أن من المؤلفين الأوربيين من تقدم إليهم ثمرات مؤلفاتهم قبل أن يشرعوا فى تأليفها . فاعلموا إذن أن الناشرين يثقون بخطر أولئك المؤلفين، ويعلمون أنهم سيطلعون على الناس وقد اكتشفوا آفاقا جديدة كانت مجهولة من حيوات النفوس الانسانية وكثير من الناس لا يعرفون أنفسهم ، وينتظرون من يدلهم على ما فيها من أصول الخير والشر ، والبر والعقوق ، والنفس دنيا ثانية فيها أزهار وأشواك ، وسهول ونجود ، وفيها كذلك مناطق خطر ومناطق أمن ، وفيها أيضا عوالم شدة وعوالم رخاء

وفى اكتشاف ذلك العالم المجهول ، عالم النفس الانسانية تتفاوت أقدار الكتاب والشعراء والمؤلفين ، وخريطة ذلك العالم خريطة مطموسة لا رسوم فيها ولا حدود ، ويمكن أن يقال مع هذا إن رموزها سهلة الحل لأهل الصدق ، أما المنافقون من أدعياء الأدب فهم عنها مبعدون . وهل جزاء النفاق إلا الحجاب عن مشارق النور الخالد، نور العقل المتمرد والقلب الخفاق ؟

٣ سبتمبر سنة ١٩٣١

*

ذكرى صديق

كان مسلم بن الوليد يعجب من اتفاق اليأس والحنين ، وكنت أشاطره العجب ، فأترنم بقوله :

حنين ويأس كيف يلتقيان مقيلاهما فى القلب مختلفان

ثم أصبحت مؤمنا بهذا الاتفاق ، فلا أراه عجيبا ، فقد مات صديقى الشيخ حسين الحكيم منذ سنين ، وأمسيت يائسا من لقائه بل الطمع فى لقائه جنون ، ولكنى أحن إليه كأنه حى وأكاد أزوره فى منزله ، لأنسى — حين ألقاه — همومى وأحزانى !!

والحق أني لا أريد الاقتناع بأنه مات ، فليس إلى الصبر على موته سبيل ، وإنما أغالط حسى ، وأخادع نفسى : فأتوهم تارةأنه على سفر ، وأن هذا السفر طويل ، وأتخيل تارة أخرى أن الموت لا حقيقة له ، وإنما ننقل من دار إلى دار كما قال أبو العلاء ،وأني سأجده فى انتظارى حين أنقل إلى الدار الباقية ، فالى الملتقى ياصديقى العزيز !!

آمنت بالله ، فما أحوجنى إلى الايمان وما أغنى الله عنى ، وعن إيمانى ، وعن جميع العالمين ، وماذا يغنى الشك ؟ إنه لا يقف دورة الفلك ولا يحول بين القدر وبين تصرفه فى الكائنات ، بالمحو

والاثبات ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب !! آمنت بأن الله قوى ، وأن العبد ضعيف ، وآمنت بأن الله عزيز ، وأن العبد ذليل ، ولكن أليس لى فى ضعفى وذلى ، أن أطلب من الله فى عزته وقوته أن يهبنى الطمأنينة على مصيرى ومصير من أفقد من الأصدقاء ؟!

***

ولد الشيخ حسين الحكيم فى سنتريس ، من قرى المنوفية ، ثم سكن القاهرة ، والتحق بمدرسة القضاء الشرعى ونال منها شهادة العالمية ، ثم عين مدرسا بمدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ، فقضى سنة فى المدرسة الواصفية ببور سعيد ، وبضعة أشهر فى مدرسة دسوق الثانوية ، وقضى نحبه هناك يوم الجمعة ٩ ربيع أول سنة ١٣٣٧ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩١٨ ثم نقل إلى القاهرة مساء السبت ودفن بها مساء الأحد ، وسبحان من تفرد بالبقاء !

كان للفقيد أصدقاء ثلاثة ، ومازالوا أصدقاءه وإن حجبه عنهم التراب ، أولهم كاتب هذه السطور ، وثانيهم الأستاذ الشيخ حسن مامون قاضى محكمة زفتى الشرعية ، وثالثهم الشيخ مصطفى الجمل المحامى الشرعى ، ففكرنا بعد موته فى أن نوفيه حق الرثاء فى إحدى الجرائد اليومية ، فكتبت عنه أربع رسائل بعثتها إلى جريدة المنبر ولكنها ألقت بها جميعا فى سلة المهملات ، إذ كانت لاتعرف مانعرف

من مجد ذلك الصديق !! فضممت تلك الرسائل إلى صورة الفقيد ، وإلى خطاب بعثه إلى من القاهرة ، وخطاب بعثه إلى من بور سعيد ووضعت هذه الذكريات فى مكان حريز آملا أن يجىء يوم أسجل فيه هذا الأثر الغالى ! فلما كانت الثورة المصرية وجاء دورى فى الاعتقال ، لم يكن همى حين زارنى فى منزلى مأمور قسم الدرب الأحمر إذ ذاك المرحوم محمد بك فرج إلا أن آخذ معى إلى المعتقل ما بقى من آثار الشيخ حسين الحكيم لتكون أنسى فى وحشة الاعتقال ! فلما عدت وضعتها فى مكانها من جديد ، وصرت أتردد إليها كما يتردد العابد إلى المحراب ، ثم فتش البوليس منزلى فى الصيف الفائت فبعثر هذه الأوراق ، فأعدتها إلى مكانها مرة ثالثة ، ولكن البوليس عاد ففتش منزلى فى الأسبوع الماضى ، فعزمت نهائيا على نشر هذه الآثار فى كتاب البدائع لأقوم لصديقى الراحل ببعض ما يوجب الوفاء

كان صديقى الشيخ حسين لا يرسل إلى خطابا إلا ابتدأه بوصف ما أرسل إليه من الشعر ، أو النثر ، ولو كنت أرى رأيه فى شعرى ونثرى لنشرت ما بعث به إلى من آيات الثناء ، ولكنى أرجوه أن يأذن لى بطى هذه الصحيفة فقد لا تهم القراء ، وأكتفى بنشر ما يمثل سمو نفسه ، وصفاء روحه ، وورونق أدبه ، وجمال خلقه . . فمن ذلك خطاب بعثه إلى بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩١٨ جاء فيه .

(أخى ! لقد حالت بينى وبين الانتفاع بآثار قلمك ، والتمتع

بمكنون نظمك ونثرك ، ضرورة حياتى الجديدة التى أنستنى كل شىء — ما عدا صداقتنا الوطيدة الأركان المتينة الدعائم — وما كان بودى شهد الله ولا عن رضا ، ولكنها الحياة تشغل المرء عن نفسه وتلهيه عن واجبه ، وكان ما كان

والآن ، هل لأخى أن يفتح لى قلبه ، ويحلنى من نفسه المحل الذى كنت أشغله من قبل ؟ وهل أجد من كريم أخلاقه ، ولطيف عفوه ، وجميل رعايته ، وحسن عطفه،مايشجعنى على إحياء حب دفين ، وغرام مستكن ،كاد يقضى عليه الاهمال ، ويسحب ذيل العفاء عليه النسيان ، ويذهب برونقه وبهائه باطل هذه الحياة الفانية ؟

إنك إذا فعلت ذلك ياسيدى — وأظنك فاعلا — تكون قد أحسنت إلى إحسانا لا أزال أذكره ، حتى يعتاق نفسى حمامها ، ويهال عليها ترابها ، وضممت هذه الى نظيراتها — وهى كثير عندى — بل هى كنزى الثمين ، أحرص عليها حرص البخيل بماله ، والعفيف بعرضه — هى سلواى فى هذه الديار النائية ، والبلاد القاصيه ، إذا ذكرتها ذكرت نعيمنا الماضى وعزنا الغابر وهناءنا السالف

يوم كنا ولا تسل كيف كنا نتهادى من الهوى ما نشاء

نعم تصرم حبل ذلك الزمان السعيدوخلفه آخر أسودمن الغراب وأمر من الصاب ، يصدق فيه قول الشاعر :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

لولا أنه أراد الانسان وأردت الزمان ، فكلاهما غادر ماكر لا يؤمن كيده ،ولا يتقى شره ،ولا رعى الله حياة التدريس لأطفال حمر الحواصل ، لايحسنون النطق ، ولا يفرقون بين التمرةوالجمرة ولا بين الألف والمأذنة ، حياة شبيهة بالموت ، تمسخ العالم جاهلا ، وتقلب المفكر غبيا ، وترجع بالمرء إلى ماقبل الآن بعشرات من السنين . فتجاوز عما تمر به فى كتابى من أشياء لاترضيك ، فهذه إحدى سيئات الدهر إلينا !!)

وفى هذا الخطاب كلمة قاسية فى وصف بور سعيد إذ يراها « قطعة من أوربا فى الأخلاق والنظام والعادات » وقد رأيت التجاوز عن هذه الكلمة ، مراعاة لعواطف أولئك الناس ، فقد تكون الغربة أثرت فى ذلك الأديب فقال ماقال

ولا أنسى أنه أجزل الثناء على صديقيه الشيخ محمد طاهر سمره ومحمد افندى بهجت ولعلهما كانا زميليه فى المدرسة الواصفية ، وأحب أن يتنبه القارىء إلى أن فى القطعة التى نقلتها من خطابه دليلا على شعوره بأن أجله قصير ، وقد لفتنى إلى ذلك حضرة صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى القاياتى حين أسمعته هذا الخطاب فى سنتريس وكان شرفنى بالزيارة هناك

وقد أرسل إلى من مصر خطابا رقيق الحاشية ، استهله بهذا البيت

سلام الله لاأرضى سلامى فكل تحية دون المقام

وفى هذا الخطاب كلمة عن رأيه فى التسرع بالزواج ، ننقلها بنصها لأهمية الموضوع الذى كتبت عنه . قال :

« وكنت أتمنى من صميم الفؤاد أن يسعدنى الحظ فأنعم برؤية ذلك المهرجان الذى أقامه حضرة الوجيه السيد عبد الحميد مبارك احتفالا بزفاف نجله الاديب الشيخ على مبارك لأقوم بواجب التهنئة ولأوجه اليه بعض اللوم على تسرعه فى هذا الزواج ، فانت تعلم ياأخى أن للشبان أطوارا مختلفة فى حياتهم ، تتكون حسب تربيتهم التى خصصوا أنفسهم لها . وربما رضى الشاب بعمل اليوم لقصر نظره وصغر عقله ، حتى إذا دخل فى طور جديد من أطوار حياته تحول فى عينيه نعيم هذه الدنيا إلي شقاء ، ورضاه إلى سخط ، ويندم ولات ساعة مندم !! »

وآخر خطاب وصلنى من هذا الصديق جاءت فى ختامه هذه الكلمة :

« أنا سعيد بالاقامة في مصر ولا ينقصنى إلا التمتع بلقياك فآمل أن يسمح الدهر برد نعيمنا الشارد وأنسنا الغابر ؛ فأين ذلك اليوم ومتى أراه ؟ »

وهنا يعجز القلم عن رد هذا الخطاب ، فقد سمعت أن هذا الصديق مات فى ديسمبر سنة ١٩١٨ ، وعلمت بعد ذلك أن شقيقه الأستاذ حامد افندى الحكيم مات فى أسيوط فى أواخر السنة الماضية ١٩٢٢ م

وقد كان حامد افندى غزير العلم ، شهى الحديث ، وكأنى أحاوره الآن على شاطىء النيل فى سنتريس ، وكنت أتعزى به عن شقيقه الشيخ حسين ، ولكن الدهر بالكرام ضنين

شهابان منا أوقدا ثم أخمدا ... وكان سناً للمدلجين سناهما
لقد ساءنى أن عنست زوجتاهما ... وأن عريت بعد الوجى فرساهما
ولن يلبث العرشان يستل منهما ... خيار الأواسى أن يميل غماهما

مومس تستبق الخيرات

قرأت كلمة لمراسل احدى الصحف اليومية يذكر فيها أن مومسا ببندر دمنهور طلبت من وزارة الأوقاف التصريح لها ببناء مسجد سيدى ضحوة الخرب ، على نفقتها الخاصة ، ولما كانت موارد رزق هذه المرأة (معروفة) فقد رفض الطلب بادىء ذى بدء ، لولا أنها جددته وقدمت إعلاما شرعيا يفيد حيازتها بالميراث الشرعى أملاكا ثابتة ومنقولة . فوافق المفتى على طلبها وشرعت فى البناء .
قال المراسل: وزادت تلك المومس على ذلك أن وقفت جميع أملاكها على بناء وترميم وتصليح كل مسجد خرب فى دمنهور ، والمساجد الخربة فيها كثيرة

ثم علق هذا على النبأ بقوله : كان لاتيان هذه المومس عملا خيريا

كهذا صيحة دهش وعجب في نفوس الجميع : فكنت ترى في الأندية والفنادق وفي مشارب القهوات جموع الحاضرين يتساءلون ألا يوجد في المدينة غير المومس ! ؟ فكان المنظر مؤثرا جدا يبعث على الحزن العميق، وينم على مبلغ تأصل الحقد في النفوس ، ويؤجج في القلوب نارا لا يخمد لها لهيب . فياللعار وياللفضيحة ، ويالشقائك يادمنهور !!

***

هكذا يتحدث الناس حين تقوم امرأة فاجرة أو رجل فاسق بعمل جليل ، ولعل أكثرهم ثرثرة في مثل هذه الشؤون هو أعداهم للبر وأبعدهم من المعروف !! إنكم لا تستنكرون أن يخبث الطيب ، كما تستنكرون أن يطيب الخبيث . ولكن الله في رحمته لم يشأ أن يترك العالم لأحكامكم الجائرة ، وعدوانكم الفظيع ، فقال وهو أصدق القائلين (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف)

فما لكم كيف تحكمون

*

المحدث حافظ ابراهيم

بمناسبة سفره إلى وادى الخلود

قضى الأمر ، ولا راد لقضاء الله ، وأصبح حافظ ابراهيم فى ذمة التاريخ

وأول مانقاسيه بعد فقده هو الوحشة الأليمة التى تساورنا بوفاة رجل مهذب كان يصافى كل من يعرفه من الناس ، وكان لقاؤه تحية خالصة لاتعرف التصنع ولا الرياء ، وكان الأدباء فى صدره إخوة وأبناء، يعزهم جميعا ويوليهم من إنصافه وتشجيعه مايندر أن يوجد له نظير عند أكثر الشعراء . وكان متواضعا أجمل التواضع ، وكان فى تواضعه يقوم أغلاط محدثيه فى لطف ورفق ، ثم يشير عليهم بمراجعة القاموس ، لينفى عن نفسه التثبت ، وهو بذلك يريد أن يكون موقفه موقف المشير لا موقف الأستاذ ، ولقد أذكر أنه لقينى مرة فاستنشدنى شيئًا من شعرى فأنشدته قصيدة ختمت بهذين البيتين:

يامن يعز علينا أن نجازيهم   صدًّا بصد وإغضاء باغضاء
وترحمون وصلتم شيقا كلفا   ألقى جفاكم عليه ألف بأساء

ونطقت كلمة (يعز) بكسر العين ، فقال رحمه الله : يظهر يامبارك

أنه يحسن أن تنطق (يعز) فى هذا الموضع بفتح العين ، لأنها بمعنى يشق ، وهى بالضم بمعنى يغلب ، وبالكسر معناها صار عزيزا ، ومع هذا فأرجوك أن تراجع القاموس ، وقد راجعت القاموس يومئذ فرأيتنى على صواب ووجدت فيها لغتين الكسر والفتح ، ومع هذا استفدت من كلامه رحمه الله فائدتين : اللطف فى تقويم المحدثين ، والشعور بقيمة الدقة فى نطق الألفاظ ، فانى مع اعترافى بأن (يعز) بمعنى يشق تفتح عينها وتكسر أصبحت أميل إلى إيثار الفتح ليصح التمييز بالحركات بين المعانى الثلاثة ، وكذلك كان رحمه الله يميل إلى تنويع المدلولات وفقا لتنويع حركات البناء

* * *

ليس يهمنى فى هذا المقال رثاء حافظ لأنه أعز علينا من أن يودع بالبكاء ، ولكن يهمنى أن أذكر الخصائص الأدبية لحياة ذلك الشاعر العظيم ليكون فى ذلك خدمة لمن يريدون الكتابة عنه من الباحثين

وأول ميزة لحافظ أنه كان «محدثا» وكلمة محدث فى هذا الموطن تماثل الكلمة الفرنسية «كوزير» والحديث نوع من الأدب الرفيع ولا يحسنه إلا الأقلون ، وقد كان حافظ محدثا بكل معنى الكلمة -كما يقولون- فاذا صادفك فى الطريق ألهاك حديثه عن نفسك وعما تقصد اليه ، وأذكر أني ماصادفته مرة فى الطريق إلا ألهانى وشغلنى

بأدبه نحو ساعة أو يزيد ، وكنت فى جميع المرات أجد مشقة فى صرف نفسى عن حديثه لأمضى إلى حيث أشاء ، أما مجالسه فكانت جنة دانية القطوف ، كان يجلس فيتحدث فى ظرف ولباقة ، ويتنقل من فن إلى فن ، ومن حديث إلى حديث ، وهو فى ذلك يمزج الحلو بالمر والجد بالهزل ، ويحول الجالسين إلى آذان مرهفة وقلوب واعية وأحلام تكاد من طرب تطير ، والخمر التى وصفوها بأغرب الأوصاف لا تفعل بالنفس ما كانت تفعله أحاديث حافظ ابراهيم ، ولقد لقيته مرة فى المساء فاحتجزنى بالقوة فى مشرب نيوبار ، وانطلق يتحدث وكنت من لحظة إلى لحظة أقول : أعفنى ياحافظ بك ، أنا عندى الحصة الأولى ، وأنت لاتعرف ماالحصة الأولي عند المدرسين ! وهو فى كل مرة يقول : اسمع هذه فقط ! ثم انصرفت وأنا أوقن أن الدنيا كلها بما فيها من حصة أولى وأخيرة لا تساوى لحظة فى حضرة حافظ ابراهيم ، فيارحمتا لمن صرفتهم الشواغل أو المقادير عن أحاديث حافظ ابراهيم ، فان هؤلاء حرموا من خير كثير ، ولم يعرفوا شيئا قيما عن حافظ ، لأن شعره ونثره لا يقاسان إلى حديثه ، فان له أمثالا ونظائر فى الشعر والنثر ، ولكنه كان فى حديثه منقطع النظائر والامثال

كانت أحاديث حافظ ابراهيم ترجع إلى أصلين : أولهما روائع الأدب العربى ، وثانيهما ما اخترعه أو سمعه من الطرائف المصرية .

اما الأصل الأول فكان أبلغ دليل على أن حافظ بذ معاصريه جميعا فى الاطلاع على ذخائر الأدب العربى ، وأعيذ القارىء أن يظن أن أحاديث حافظ كانت كلها نكتا وفكاهات ، لا ، فقد كانت أحاديث حافظ روايات ممتعة شائقة خلابة من الهزل البارع والجد الرصين ، وكان يحفظ كثيرا من القصائد والمقطوعات والأبيات ، واسمه (حافظ) منطبق على حياته الأدبية أتم الانطباق : وقد كانت كلمة (حافظ) لقبا عند المتقدمين على من يحفظ جملة كبيرة جدا من الأحاديث الصحيحة ، ولقب بها كثير من الأئمة والمجتهدين ، وكذلك كان حافظ ابراهيم فى الأدب ، فقد كانت محفوظاته تعد بالألوف ، وكانت لاتزال ماثلة فى ذهنه على كبر السن وطول العهد ، بحيث لا يمترى إنسان فى أن هذا الرجل كان من أعاجيب الزمان

وقد حدثنى رحمه الله أن فى نيته أن ينشر كتابا يختار فيه لكل شاعر بيتا واحدا ، وأنه جمع أصول ذلك الكتاب فبلغ بضعة آلاف ثم أخذ يذكر الشواهد ، وأشار إلى أنه اختار لأحد الشعراء هذا البيت :

ولا بد لى من جهلة فى وصاله

فهل من حليم أودع الحلم عنده

ثم أخذ رحمه الله يعجب بسحر هذا البيت ، فقلت له : ليست هنا مشكلة كما يظن حافظ بك ، فقال وكيف ؟ فقلت : الخطب سهل يترك حلمه عند البواب !

فقهقه رحمه الله قهقهة عالية وقال: صدقت، فان البوابين أحلم الناس!! ثم اندفع يحدث عن (سماحة) البوابين!

وكانت أحاديث حافظ تذكر بما قيل: إن الناس يختارون أحسن ما يقرأون، ويحفظون أحسن مايختارون، ويتحدثون بأجمل ما يحفظون، فاذا شئت الأدب فخذه من أفواه الأدباء، وكذلك كانت أحاديث حافظ تفيض بالأدب المتخير الجميل، وكانت أقوى حجة على غنى الأدب العربى وقدرته على إمداد الأديب بما يحتاج اليه فى شتى الفنون، وقد لاحظت أنه كان يحفظ أشعارا كثيرة مجهولة طويت فى بطون المخطوطات واستقر علمها من ذاكرته فى حرز حريز، وكان يحفظ كذلك نتفا كثيرة جدا من الكلمات النادرة التى تدل على بلاغة أو عقل أو وجدان، فكان يقف رحمه الله عند الكلمة يختبرها اختبارا دقيقا ثم يضيفها إلى محصوله الوافر لتكون من عتاده حين يفتتح الحديث

وقد كنا نقرأ أن بعض المحدثين القدماء كان يصاحب الأمراء أعواما طويلة فلا يعيد حديثا واحدا وإن طال الزمان، فما كنا نصدق ذلك، فلما رأينا حافظ وشهدنا كيف يتحدث كل يوم بفن جديد عرفنا أن ذلك من المواهب التى لا تمنحها العناية إلا لقليل من النابغين.

ومن الواجب أن نقرر أن نشأة حافظ ساعدت على تفوقه فى الآداب العربية، والنشأة هنا لا أريد بها غير العشرة الصالحة التى

وفق اليها حين اتصل برجال الأدب الممتازين مثل محمد عبده ومحمود البارودى وسيد المرصفى ، ومن اليهم من الرجال الأبرار الذين كانوا يؤمنون بان اللغة العربية من أرقى اللغات ، وأدبها من أسمى الآداب ، وهذا حق فان اللغة العربية ظفرت فى ماضيها بما لم تظفر به لغة من اللغات الحية ، فقد دخلت اليها العبقريات من كل جنس عن طريق الاسلام ، وجمعت بين ثقافات مختلفة فى آسيا وأفريقيا وأوربا ، ونكالها من الحظ مالم تحظ بمثله الفرنسية أو الانجليزية فى العصر الحديث ، وذلك أن الفرنسية والانجليزية على حظهما من الرواج لم يكتب بهما من الأجانب عن فرنسا وانجلترا إلا عدد ضئيل جدا ، أما اللغة العربية فتغلغلت فى أقطار كثيرة اجنبية ثم حولت أولئك الأجانب عنها بفضل الاسلام إلى جنود مخلصين يكتبون بها ويؤلفون ويصنفون ، فكان من ذلك أن ظفرت العربية بكنوز غنية من عبقريات الأمم المختلفة ، وكان لها من جهودهم غناء أى غناء

وهذا الذى نقوله لاتحيز فيه ، ولكنه الحق ، وللقارىء أن يتأمل هذه الفكرة فسيراها من صميم الصواب

أولئك الأصدقاء العارفون بقدر اللغة العربية وجهوا حافظ وجهة صالحة حين غرسوا فيه الميل إلى التعمق فى الأدب القديم فكان له فيه معين من الرواية لا ينضب ولا يغيض، وكذلك كان من أعرف الناس بما أبدع الأولون

أما الأصل الثانى لأحاديث حافظ وهو الفكاهات المصرية فيرجع إلى فطرة حافظ ، وكانت شعبية تمت إلى روح الشعب بأمتن الأواصر والأسباب ، والشعب المصرى شعب طرب وجذل وافتنان فى ضروب اللهو والمجون ، وكان حافظ يتلمس مساقط النكتة فى المشارب والقهوات ، ويسره أن يكون له من أدب العامة مجموعة صالحة يتندر بها عند الخواص حين يشاء . والعامة فى مصر أدباء بالسليقة ، وحكمتهم فى جهلهم تذكر بأعراب البادية الذين كانوا ينطقون بالقول الفصل وهم جهلاء ، وقد استطاع حافظ أن يتخلص من قيود الصنعة وهو يستمع إلى العوام ، لأن هؤلاء ليسوا بفنانين ولكنهم يرمون بالكلمات القصيرة فيمثلون بها عواطفهم ونوازعهم أصدق تمثيل . وفى أدب العامة صدق وصراحة وإشراق ، لأنه يصدر عن النفس في غير تكلف ويعبر عن مشاعر أصحابه فى جلاء وكان من هم حافظ أن يسمر عند الخواص المصطفين من أعيان المصريين ، فينقل اليهم من حكمة العامة أمثال ما كان ينقله الأصمعى من حكمة الأعراب فى مجالس الخواص ببغداد

أضيف إلى هذا أن حافظ كانت له شيعة كبيرة جدا من عشاق النكتة المصرية ، وكانت له خلوات وصبوات تحتاج إلى ذلك الهزل الطريف ، وما كان رحمه الله يتورع عن مصارحة أصفيائه ببعض الألفاظ والتعابير التى تقع له أو لغيره فى أوقات العبث والمجون وكان هو نفسه يتفق مع بعض أصدقائه على خلق أسباب النكتة ،

وله فى ذلك نوادر يحسن طيها عن القراء مراعاة لبعض التقاليد واذكر أنه حدثنى مرة عن مشكلة أثارها فى بعض المنازل وقد استدعى أحد الأطباء المعروفين وزج به فى ورطة (فنية) صارت بعد ذلك مورد فكاهة لمعارف ذلك الطبيب

وكان حافظ مع هذا يخلق النكتة خلقا حين يعز عليه النقل : من ذلك ماحدثنا به أن أحد رؤساء الأقلام كان له حاجب ، واتفق أن الحاجب أخبر مخدومه أن برقية جاءته بوفاة أبيه ، وأنه لذلك فى حاجة إلى إجازة ، فمنحه رئيسه الاجازة ، وبعد ذلك عاد الحاجب فطلب إجازة لأن برقية جاءته بوفاة أبيه ، فمنحه رئيسه الاجازة ، وبعد عامين التمس الحاجب إجازة لأن برقية جاءته بوفاة أبيه ، فمنحه رئيسه الاجازة ، وقد فهم الحاجب من هذا أن رئيسه ينسى ما فات ، وبعد مـــدة طلب إجازة لأن أمه ماتت ، فمنحه رئيسه الاجازة ، وبعد عامين طلب إجازة لأن برقية جاءته بوفاة أمه ، فصرخ الرئيس فى وجهه وقال :

« قد أفهم أن يكون لك أربعون أبا ، ولكن لا يمكن أن يكون لك إلا أم واحدة !! » فأسقط فى يد الحاجب وفهم أن رئيسه يعد عليه أسباب الاجازات !

***

وكان حافظ يجد متعة عظيمة فى رواية النوادر والملح والفكاهات

وكان يقبل على جليسه فى نشاط عجيب فيتكلم بكل نفسه ، ويسد على جليسه منافذ الخلاص من المجلس إذا طال ، وكان أحيانا يتعب من القصص فيقول فى كل مرة : هذه آخر نكتة أقولها ، وتكون هذه النكتة الأخيرة واحدة من خمسين يقصها بعد أن تبدو عليه أمارات الملال

وليحذر القارىء أن يظن أن حافظ كان على هذا « مهرجا » . معاذ الأدب أن يكون ذلك ، وإنما كان حافظ « محدثا » على نحو ما كان الجاحظ فى قديم الزمان

وقد نفعه مذهبه عند كبار الرجال ، وأذكر أنه ذهب مرة إلى المغفور له سعد باشا وكان رئيس الوزارة وكتب إليه هذين البيتين.

قل للرئيس جزاه الله صالحة
بأن شاعره بالبـــاب ينتظر
إن شاء حدثه أو شاء أتحفه
بكل نادرة تروى وتبتكر

أو كما قال ، فقد اجتذبت هذين البيتين من الذاكرة بجهاد عنيف والمؤكد هو عبارة « إن شاء حدثه » وفيها تصريح بما كان يفهم حافظ عن نفسه من حسن الحديث .

وقد تعلق به سعد باشا فى أخريات أيامه تعلقا شديدا ، وكان سعد باشا من الأدباء الفحول ، فكان يروقه أن يستمع إلى أحاديث

حافظ الحلوة الشهية ، وقد اجتذبه فى العام الذى توفى فيـــه الى مصاحبته فى مسجد وصيف ، وقد سألت المرحوم حافظ عما اشترطه على سعد باشا فى تلك الصحبة فابتسم وقال : اشترطت أن أبقى دائما فى البيجامة كيفما كانت الظروف ، ثم سكت لحظة وقال الا اذا اقتضت الحال أن نستقبل بعض السفراء !! وهذه الحـــكاية لها حواش لاتـكتب وهى تدل على مبلغ ما وصل اليه من امتلاك قلب المرحوم سعد باشا

وللقارىء أن يثق بأن الصلات التى ربطها حافظ مع كبار الرجال فى مصر من أمثال سعد زغلول وأحمد حشمت ومحمد عبده ومحمد محمود ، يرجع الفضل فيها أولا الى صفاء نفسه وظرف حديثه وعذوبة لسانه ، لأنه كان فى حديثه أشعر منه فى قصيده ، وكان لصوته رنات مقبولة جدا على قوته وجهارته ، وتلك مزية تفرد بها بين أدباء العصر الحديث

انتفع حافظ بحلاوة حديثه أجزل النفع ، واستطاع أن يتخلص من قيود وظيفته تخلصا تاما ، فكنت لاتراه فى دار الكتب المصرية الا زائرا ، ولم يستطع الأستاذ لطفى بك السيد أن يحتجزه فى تلك الدار الا فى اللحظات التى كان يحتاج فيها لمعاونته عند مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق

وكان رحمه الله يخرج من بيته فيظل يتنقل من ناد الى ناد ومن مشرب الى مشرب ومن منزل الى منزل باحثا عن أصفيائه الذين

ألفوا ما ينفحهم به من طيبات الأحاديث

وأشهر المشارب التى كان يغشاها حافظ بار اللواء ونيوبار حيث يجلس الأدباء المتقاعدون الذين أخلدوا الى السكينة بعد أن كانوا أنشط من الجن وأخطر من النـــار ، وفى يقينى أن تلك المشارب ستشعر لفراقه بوحشة أليمة ، وسيذكر السامرون أن نديمهم غاب وأن أنسهم مضى وراح !

***

لقد كانت الدنيا ضيقة على حافظ ، وكان يتلمس الخلاص من همومه في لقاء اخوانه ، فليؤنس الله وحشته فى قبره ، وليجزه عن أدبه ووفائه أطيب الجزاء !

وبعد فلحافظ مكانته فى الشعر والنثر ، وهو فيهما من الأئمة المقدمين ، وسيحرص قوم على درس شعره ونثره ، وسيجمع له من ذلك مجلدات إن صحت نية المتأدبين ، فهل من إخوانه وأصفيائه من يسارع الى وضع كتاب عن أحاديث حافظ قبل أن يتصرم الزمن ويعفى النسيان على مابقى منها فى أذهان أولئك الأصفياء ؟

لقد فكر ناس فى جمع نكت البابلى ، ثم انصرفوا ونسوا ، فليتهم لا ينسون هذه المرة حتى لا تصح دائما كلمة شوقى فى موكب أم المحسنين

نسيت روعتـــه فى بلد   كل شىء فيه ينسى بعد حين

٢٩ يوليه سنة ١٩٣٢

خطر يهدد الثقافة المصرية

الحكومة وشهادات كلية فكتوريا

وقع فى هذه الأيام حادث لم يلتفت الناس اليه إلا قليلا ، ثم شغلتهم عنه توافه الحياة اليومية . وقد علمتنى التجارب ومعاشرة الأجانب من أوربيين وأمريكيين أن المصرى وحده هو الذى يغفل عن التفكير فى مستقبله ويهتم بمشاكل الساعة الحاضرة أما الأجانب الذى عرفتهم فلا يخطون خطوة إلا وهم يقدرون ما سيكون لها من نفع أو ضر بعد خمسين عاما ، ومنهم من يقدر نتائج الأعمال بعد قرن أو قرنين من الزمان ، وينبنى على هذا أن الفرد منهم لا تهمه صفته الفردية إلا فى حدود المعاش ، ولكنه فيما عدا ذلك أسير لصفته القومية ، فهو انجليزى أو فرنسى أو أمريكى ، أعنى أنه ينظر إلى الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية كرجل يمثل أمته فى مختلف الشؤون ، أما المصرى فيضيق صدره حين تسأله عن نتائج عمله بعد عشرين عاما ، لأنه تعود التفكير فى النفع المباشر الذى يجنى ثمره بعد عام أو عامين

وعلى هذا الأساس فكر الانجليز فى المستقبل البعيد حين حملوا الحكومة المصرية على منح شهادات كلية فكتوريا جميع الحقوق

التى يتمتع بها حملة البكالوريا المصرية ، وفى ظنى أن الانجليز وصلوا إلى ذلك بلا عناء ، لأن الوزراء المصريين يصعب عليهم تقدير ما لتلك المنحة من العواقب المشئومة التى سنبينها للقارىء فى هذه الكلمات

وقد يكون من القراء من خلا ذهنه من مشاكل التعليم ، فمن الخير إذن أن نوضح هذه المسألة بعض التوضيح فنقول :

الذى درجت عليه الحكومة المصرية منذ أزمان يتلخص فى أن الشهادات الأجنبية لا تعطى لحامليها حق التوظف فى مناصب الدولة إلا إذا ظفر بالبكالوريا المصرية ، وهذه ظاهرة تبدو بسيطة ولكنها مهمة جدا من حيث النتائج : فان اشتراط البكالوريا المصرية معناه فرض الثقافة المصرية على جميع الموظفين ، والموظفون حين تتوحد ثقافتهم الأساسية يكونون هيئة متجانسة متقاربة العواطف والأهواء والميول ، والثقافة الأساسية تتكون من التعليم الابتدائى والثانوى أما التعليم العالى فتتكون منه فى الغالب ثقافة عالمية تمتاز بسموها عن الصبغات الطائفية والقومية ، ومن هنا فكر كثير من المصلحين فى أن لا يتعلم الشبان فى الخارج إلا بعد إتمام الدراسة الثانوية

إذا فهمنا هذا أدركنا الخطر الذى يهدد الثقافة المصرية من منح شهادات كلية فيكتوريا الانجليزية مزايا البكالوريا المصرية ، فان الانجليز لن يهتموا مطلقا ببث الثقافة المصرية فى كلية فيكتوريا بالاسكندرية وما سيلحق بها من معاهد وكليات فى الأعوام المقبلة ، وإنما يعنيهم أولا وقبل كل شىء نشر الثقافة الانجليزية ، لا سيما

وقد استطاعوا أن يستلينوا حكومة صدقى باشا فيظفروا بمنحة ظلوا يتطلعون اليها السنين الطوال

والمصريون ينسون سريعا ، وقديكون فيهم من يذكر ماصنعه المستر جورج لويد حين ضاق صدره بتفوق المدارس الفرنسية فى مصر ، فقد ذهب ذلك الانجليزى المستعمر واستنهض الجالية الانجليزية بالاسكندرية وجمع منها على قلتها ما يقارب المائة ألف جنيه فى جلسة واحدة ليقوى كلية فيكتوريا ، وذهب يومئذ فى صحبته وزير مصرى مسئول فخطب بالانجليزية — والعياذ بالله — ليعضد ذلك المشروع الخطير

والآن — بعد هذه الصدمة — لننظر ماسيكون فى الغد ، ولسنا فى حاجة إلى منجم ولا عراف ولا بديهة كبديهة وزير المعارف لنتنبأ بما يخبئه الغد ، فان هذا معروف موثوق به منذ هذه اللحظة وإلى القارىء البيان :

سيتوجه فى الغد القريب جدا سفراء الدول الاجنبية ليطلبوا لمدارسهم نفس الحقوق التى أعطيت لكلية فيكتوريا ، وسيحرص وزير فرنسا بنوع خاص على كسب هذه الحقوق لأن الفرنسيين أكثر الأجانب مدارس ومعاهد فى هذه البلاد ، ويومئذ تقف الحكومة المصرية بين نارين : نار الرفض ونار القبول ، فان رفضت كان معنى ذلك أنها حكومة متجلنزة تخص الانجليز بالطيبات صدقا أو رياء وإن قبلت كان معنى ذلك أنها تصوب السهم طائعة إلى الثقافة المصرية

فانظروا فى هذا وأفتونا ياكتاب مصر ويامفكريها ، أو فلينظر فى هذا وزير المعارف ومساعدوه ووكيله وسكرتيره وجميع من أقلت وزارة المعارف من مفتشين ومراقبين ، ثم ليدلونا على مستقبل الثقافة المصرية الذى نخشى عليه ألعن الأخطار

قد يقول فريق من خلق الله : وما الذى يمنعنا من الحرص على ثقافتنا بإيثار المدارس المصرية على المدارس الأجنبية ؟

ونجيب بأن التجارب علمتنا أيضا أن المصرى مغرم بالزهو والخيلاء ، ومن أدلة ذلك ماصنعته كلية العلوم ، فقد عبنا عليها إيثار اللغة الانجليزية على اللغة العربية ، ثم تبينا أن مدرسيها فرحوا بهذه التهمة أشد الفرح ، وذهب وكيلها المصرى المتعلم يلقى محاضراته العامة بالانجليزية ، مع أن المحاضرات العامة لم تقررها الجامعة المصرية إلا رغبة فى تثقيف الجمهور الذى لايتسع وقته لسماع المحاضرات فى الكلية ، فمن الذى أخبر وكيل كليه العلوم أن الجمهور لا يفهم بغير الانجليزية !

اقرأوا هذا أيضا أيها الناس واشرحوا معناه ، أما أنا فأفهم أن وكيل كلية العلوم يسره جدا أن يقال إنه يتكلم الانجليزية كأهلها كما كتب المقطم ، وفى هذا الكفاية كل الكفاية ، وعلى القومية العفاء !

بقى مخرج واحد من هذا المأزق ، وعلينا أن نفكر في مثل هذا المخرج ، لأننا لاننتظر من مثل صدقى باشا أن يسترد هبة

أسداها إلى كلية انجليزية ، ولا ننتظر مطلقا أن يتعذر على المدارس الأجنبية الوصول إلى مثل ما ظفرت به المدارس الانجليزية من مساوات شهاداتها بالشهادات المصرية : وذلك المخرج هو تقييد تلك المنحة بقيود تعصم الثقافة المصرية من الضياع ، فعلى الحكومة أن تشترط احترام اللغة العربية فى تلك المدارس فيكون لها برنامج مماثل للبرامج المصرية ، وعليها أن تفرض أن يدرس التاريخ والجغرافيا وما يماثلهما من أنواع الثقافة العامة باللغة العربية ، فان لم تفعل الحكومة ذلك — وأخشى أن تجبن — فستكون النتيجة أن تقبر الثقافة المصرية وأن يكون شبان المستقبل موزعين فى أهوائهم ومشاربهم وطبائعهم بين متجلنز ومتفرنس إلى آخر ما سترمينا به الأقدار من نكبات الانحلال

وأنا بعد هذا أهيب بالكتاب المصريين أن يعطوا هذه المسألة حقها من العناية ، فلست فيها متشائما ، وإنما أتكلم عن يقين

٩ شعبان سنة ١٣٥٠

*

إله الحب وإلهة الجمال

فى أساطير الاولين

كانت أفروديت أو فينوس تعبد على أنها إلهة النور ، وكانت أجمل إلهة فى السموات ، ولم يكن تقديسها يراعى فيه فضلها وحده على أهل السماء ، وإنما كان يراعى معه ماتفيض به على الأرض من الخصب والنماء . أليس إشراق النور هو الذى تتفتح فى صفائه الأزهار ، وبفضله تتجدد حياة الحدائق والرياض والغابات فى أيام الربيع ؟ ومن أولى بالعبادة من إلهة النور الذى يفيض البشر والخير والايناس فى أرجاء الوجود ؟

وهذه الآلهة التى تظهر فى فصل الربيع — وموقعه من السنة موقع الفجر من النهار — صارت مع الزمن إلهة الجمال فى العالم كله والمسيطرة الخالدة التى تبعث الروح في جميع الأحياء . . . وإذا كان كل جميل يلهم القلب الحب فقد صارت تلك الآلهة ربة الجاذبية التى تحملنا على أن نحب كل ماهو جميل ، لأنه بفضل نورها يخلق الجمال ويشيع الحسن فى كل مافيه حياة

مولد أفروديت

لقد ولدت أفروديت ذات البسمة الفاتنه من زبد الأمواج ، ولدت بيضاء نقية كأنها فلق الصباح ، على بحر فضى ، وظهرت لأول مرة — فيما يقال — على شاطىء قبرص المشرق الوهاج ، بعد أن ظل النسيم الرطب يدفع الصدفة التى تحويها مدة طويلة فوق الأمواج الصاخبة ، إلى أن وصلت إلى الشاطىء وتفتحت وخرجت من مهدها البحرى المكنون ، وكانت كلما تقدمت فوق الرمل نبتت الأزهار تحت قدميها الناعمتين ، وكانت حارسات السماء ذوات الأشرطة الذهبية يتلقينها ويمسحن جسمها الذى ينضح بالماء الأجاج ويضفرن شعرها الأصفر ويزينها بالملابس المعطرة ، وقد وضعن على رأسها تاجا من الذهب ، وفى أذنيها أقراطا من معدن نفيس ، وعقدن على جيدها وصدرها فرائد العقود ، ولما تمت زينتها أحضرت حارسات السماء عربة تقودها حمامتان ، فركبت أفروديت وطارت لتعيش بين أهل الخلود ، فلما رآها الآلهة وقفوا جميعا إجلالا لجمالها الفتان ، وحيوا فيها ملكة جديدة وأجلسوها على عرش رفيع ، ومنذ ذلك الحين سادت أفروديت سعداء الأوليمب المعبودين

وكانت النضارة المشرقة التى تجول فى جسمها الريان ، والسحر الفاتن الذى يجرى فى عينيها النجلاوين ، والابتسام الحلو الذى يشرق من ثغرها البديع وإشاراتها المنسجمة ، ومشيتها النبيلة وزينتها الأخاذة ،

كان ذلك كله قد غمر سكان السماء بينابيع من البهجة والفرح لا تنضب ولا تغيض

تحاسد الآلهة

ولكن مع الأسف لم يخل عالم الآلهة مما يكدر عالم الناس من الحسد والبغضاء، فقد كان استواء تلك الآلهة على عرش من عروش السماء مما يزرع الحقد فى نفوس الآلهة الآخرين، وكذلك ادعت هيرا وآتينا أنهما فى جمال أفروديت ، واستفاد إله الشقاق من تلك الغيرة التى دبت فى صدور الجميلات من سكان السماء ، فدخل خفية فى أحد الأعياد إلى قدس الأوليمب ، وكان الآلهة بين مأخوذ بالشراب ومفتون بالغناء ، فانتهز فرصة هذه النشوة ورمى وسط المائدة تفاحة جميلة كتبت عليها هذه الجملة : « هدية إلى أجمل إلهة »

فأخذتها هيرا ، وصاحت أتينا وافروديت طالبتين تحكيم زوس وكانت مشكلة رقيقة تخلص منها سيد الآلهة وهو يقول :

ماذا ترين أيتها الآلهات الفاتنات ! كنت أتمنى أن أفصل بنفسى فيما شجر بينكم من خلاف ، ولكنى لا أستطيع ذلك لأنى أحبكم جميعا على السواء ، فلم يبق إلا أن أشير عليكم بأن تنزلوا حالا إلى « الأيدا » وهنالك تجدون الراعى الجميل « باريس » يرعى قطيعه الكبير . وقد اخترته حكما بينكم ورضيت قضاءه فيكم ؛ وأنت ياهرمس : خذ هذه التفاحة وانزل إلى « الأيدا » مع هؤلاء

الآلهات الثلاث وقل للراعي الجميل

« ياباريس ! زوس يأمرك بأن تحكم أى هؤلاء الملكات أرشق قدًّا ، وأرق خداً ، وافتن لحظا ، وأحلى دلا ، وأملح شكلا ؟ وأعط هذه التفاحة لمن تراها أقدر على سبي القلوب ، وأسر النفوس »

حكم باريس

فنزل هرمس مصحوبا بأفروديت وهيرا وأتينا على قمم الجبل المقدس الشجراء ، ووجدوا باريس يرعى القطيع وفى يده عصاه ، فقال هرمس :

« سلام عليكم ياباريس ! خذ هذه التفاحة واعطها لأجمل هذه الآلهات الثلاث ، بذلك يأمرك زوس »

فنظر باريس إليهن ، واختبر جمالهن واحدة واحدة ، ولكنه وقف مترددا حيران بين هؤلاء الجميلات اللاتى يفضحن النجوم فى السماء ، والازهار فى الرياض ، وبعد تأمل طويل أعطى التفاحة للالهة أفروديت ، فرضى الثلاث بهذا الحكم وصعدن إلى الأوليمب فى سكون ، وظلت أفروديت منذ ذلك الحين ملكة الملاح بلا نزاع

ولم يكتف أفروديت أن تخضع لجمالها الساحر كل سكان الاوليمب ، بل أصبحت حاكمة مطلقة على قلوب جميع الناس ،

وشاء لها هواها وعبثها وعدوانها على الخلق أن تغريهم بالآمال التى تلهب قلوبهم فتغرس فيهم الحب ، وتغمرهم كما تريد بالسعادة أو بالشقاء ، فان الحب لم يكن دائما متبادلا بين المحبين ، وإذا كان فى العشاق من يمرح فى النعمة لأن أفروديت تكلؤه وترعاه ، ففيهم من يقاسى ألوان الشدائد لأنها حكمت عليه بالعذاب . ولا توجد في الواقع بأساء أقسى وأشد من أن يهوى الانسان من لا يهواه

وقد قيل :

ما العيش إلا أن تحب   وأن يحبك من تحبه

ومع هذا لم يقتصر سلطان افروديت على حكم قلوب الآلهة والناس ، بل امتد سلطانها إلى الطبيعة بأسرها ، فكانت على البحر سيدة مطلقة ، بها تسكن الأمواج الهائجة ، وتهدأ الرياح الهوجاء ، وتداعب السماء الأمواج . وكانت للأرض مصدر خصب وحياة : بها يحيا الزرع وتتجدد الفصول

وإذا كان فضل هذه الآلهة المعبودة لا يظهر أثره فى البساتين والأحراش إلا فى الربيع فقد كان ذلك الفصل فصل الأزهار هو موعد الاحتفال بفضلها على الطبيعة والآلهة والناس

أدونيس

وقد لوحظ أن أعياد الربيع كانت دائما قصيرة ، فان الأزهار تتفتح ثم تذبل وشيكا ، ولتفسير هذا النماء المسرع الذى يختصره

الموت العاجل وضع اليونان أسطورة جميلة : فقد تصوروا أفروديت أما للحياة النباتية وأعطوها ابنا هو أدونيس الذى يعد صورة للربيع المشرق السريع الزوال

فنى يوم من الأيام الجميلة التى طالت فيها مداعبة الشمس للزهر خرج أدونيس من لحاء الشجرة التى كانت تحتويه ، وقد كان نماؤه سريعا ، وكان عمره مع ذلك أقصر من عمر الورد ، فلم يبق جماله فى زهرته المتفتحة إلا أياما قليلة ثم حصده الموت ، وكان ذلك فى نهاية الصيف حين مالت النباتات التى أحرقتها الشمس على سوقها وأصبحت هشيما تذروه الرياح

كيف مات أدونيس

كان أدونيس فى ذلك الحين يلاحق خنزيرا بريا فرجع إليه ذلك الحيوان المتوحش وطعنه طعنة قاتلة ، فأسرعت أفروديت إلى إغاثة طفلها الجريح ، ولكنها لفرط الفزع نسيت أن تلبس حذاءها ، فداست وهى تجرى على شجرة ورد دخلت شوكتها فى قدمها فجرى الدم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك الشجرة تحمل ورودا حمراء ، وكانت ورودها بيضاء ولم تكد أفروديت ذات الشعور الشقراء الذهبية تصل إلى ابنها حتى وجدته قد هلك فذرفت عيناها دموعا غزيرة نبتت منها شقائق النعمان

وقد كانت حياة أدونيس المضيئة ونهايته العاجلة موضعا لعبادة حقيقية عند اليونان ففى اليوم الذى مات فيه كان يبكى النساء لذكراه

الأليمة ، وكانت لهن فى النوح عليه زفرات تفتت الأكباد ، وكن يحملن سريرا من الفضة مغطى بالحرير الأحمر ، ينام فيه جسم يمثل أدونيس وهو فى طريقه إلى الفناء ، وحول هذه الجنازة ترى آلاف الهدايا ، والفواكه المختلفة ، والمشاعل ، والأوانى المعطرة ، والسلال الفضية تحمل النباتات التى أسرعت فى نمائها ثم أسرعت فى جفافها تمثيلا لذلك الفقيد الغالى العزيز الذى يسكبن من أجله الدمع السخين وحول ذاك الجسد المعبود كان النساء يمكثن يوما وليلة يضربن صدورهن ، ويلطمن وجوههن ، ويشققن الجيوب فى ذكرى معبودهن المفقود ، وفى فجر اليوم التالى يقوم هؤلاء النسوة وشعورهن مرسلة ، وصدورهن عارية وصرخاتهن تصم الآذان ، فيدفن هذا الجسد المعبود فى أثباج الأمواج . وحين يحتوى البحر هذا الجسد ويأخذه فى حراسته تطير صيحات الفرح : لأن أدونيس سيعود مع أمطار الفصل المقبل مبعوثا مع الحياة فى الزهر والشجر والنبات

إيروس

لم يكن أدونيس هو الابن الوحيد لأفروديت ، تلك الملكة الجميلة التى تسيطر على ما فى الحياة من بهيج وجميل ، بل كان لها ابن آخر ، حلو فتان له أجنحة ذهبية ، يسمى « إيروس » أو « الحب » وكان كأمه ينشر على الأرض الحياة والسرور والخصب ، وكان يذهب إلى جميع البقاع محمولا على النسيم العطر عند دخول الربيع فتورق فى

طريقه الأشجار وتزهر الأغصان ، وكان إيروس كأمه أفروديت يسيطر على قلوب الآلهة والناس فيخضع من يشاء لسحره الفاتن وأمره المطاع ، حتى السباع كانت تخضع لمشيئته وطالما رؤيت عربته يقودها النمور والأسود ، وبفضله عرف الناس رقة الصداقة وحلاوة الحنان ، وعرفوا كذلك اللذات والآلام التى تصحب الحب المتين

كان إيروس يتنقل من مكان إلى مكان مسلحا بالسهام وفى يده مشعال وضاء ، وكان يلهو بالمزج بين الدموع والبسمات ، والجمع بين السعادة والشقاء ، ومن أجل ذلك نرى المحبين يضحكون لحظة ويبكون ساعات ، كالذى وقع للمسكينة بسيشيه التى ذاقت أطيب اللذات وأوجع الحسرات

بسيشيه

كان لأحد الملوك ثلاث بنات ، وكانت بسيشيه أجمل أولئك الثلاث ، وكانت فاتنة يعبدها من يراها كأنها نفس أفروديت ، وقد بعث جمالها المرموق عقارب الحسد والضغن فى إلهة الجمال ، فصممت على الانتقام من بسيشيه ضرتها فى عالم الحسن ، ودعت لذلك ابنها إيروس وقالت له :

« ايروس ! يابنى ! هذا هو الوقت الذى تحتاج فيه أمك الرءوم إلى ساعديك القويين لامضاء إرادتها ، إن ناسا فى الأرض بلغت

بهم الوقاحة والسفاهة أن يساووا بين جمالى الخالد وبين جمال فتاة آدمية ، فانية ، تدعى بسيشيه ، فاذهب يابنى واحكم على تلك الفتاة بالشقاء ، بان تجعلها مفتونة مدلهة بحب شاب بائس يضرب الناس بدمامته الأمثال ! »

عندئذ خرج إيروس من الأوليمب ونزل على الأرض ، ولكنه لم يكد ينظر إلى جمال بسيشيه ونضارتها وحلاوتها حتى فتن بسحر تلك الانسانة التى لاتقل إشراقا ونضرة عن أمه أفروديت وبلغ به الوجد المفاجىء أن نقلها إلى قصر جميل في بقعة نائية ، وهناك فى ذلك المنزل المنعزل فوق ربوة عالية باحدى الغابات الهادئة ظل إيروس يزور محبوبته خفية فى هيبة وحذر لئلا يعكر عليه صفوه سفهاء الرقباء

وكان يجلب اليها كل ما تشتهيه من طيبات الأرزاق ، ولم تستطع بسيشيه أن ترى وجه محبوبها الجميل لأنه لم يكن يزورها إلا فى الظلام ، فكانت كلما لمسته وأحست نضارة جسمه ووجهه تمنت عليه أن يسمح لها برؤيته فى ضوء القمر أو ضوء المصباح فكان يجيب :

« إن سعادتك يابسيشيه لا تدوم إلا إذا كتمت سر حبنا فلا يكن من همك أن ترى وجهى أو تعرفى من أنا ، أحبينى فقط

ولا تكدرى صفو الحب بالبحث عن معرفة ما يجب جهله »

حسد الأختين

ولكن الغيرة التى ملكت الأختين حملتهما على التفكير فى قطع ماوصل الحب لأختهما من نعيم ، فقدمتا لزيارتها ذات يوم وأفهمتاها أن محبوبها ليس إلا جنيا دميم الوجه وأن القصر الذى تسكنه ليس إلا داراً من دور الشياطين ، ثم قالتا لها :

« تستطيعين أيتها الأخت العزيزة أن تتبينى صدق ما نقول ، وسبيل ذلك أن تضعى مصباحا صغيرا تحت السرير ، فاذا جاء محبوبك لزيارتك فانتظرى حتى يغمره النوم ثم قومى برفق فارفعى المصباح وانظرى فى وجهه لتعرفى أى جنى تعاشرين

وما كادت تسمع بسيشيه هذا الكلام حتى استبد بها الشغف شغف التطلع إلى معرفة مايستر الظلام من حقيقة رفيقها المعشوق فأحضرت فى المساء نفسه مصباحا صغيرا وأخفته تحت السرير وانتظرت حتى أخذ حبيبها النوم العميق ، ثم قامت فأدنت المصباح من وجهه ، وكانت تنتظر أن ترى جنيا دميم الخلقة كما وصف أختاها الواشيتان، ولكنها فوجئت برأس أشقر تزينه الشعور المعطرة وفم يزفر بأنفاس الرحيق ، وأعطاف من العاج يتصل بها ذراعان تزينهما استدارة ولين ، وباحداهما قوس ، أما أخراهما فقد وضعت تحت خده الأسيل

عندئذ هاج الحب فى قلب بسيشيه هياجا عنيفا وهمت بتقبيل معشوقها الجميل ، ثم مالت عليه وفى يدها المصباح فوقعت قطرةمن الزيت المحرق على عطفه المكشوف ، فاستيقظ إيروس من الألم وعرف أن محبوبته فضحت سره المكتوم ، فطار من لحظته ، وترك بسيشيه نهبا للأسى والبكاء

مصير بسيشيه

بلغ الجزع من هذه المسكينة كل مبلغ ، فألقت بنفسها فى النهر لتستريح من كمد الفراق ، ولكن الأمواج ردتها حية إلى الشاطىء ، فتجدد فى قلبها الأمل وأخذت تبحث عن حبيبها الغضبان فى جميع البقاع ، وكانت كلما صادفت معبدا دخلته وتمرغت على أعتابه وهى تتوسل إلى الآلهة أن يرحموا قلبها الخافق ودمعها المسكوب ولكن الآلهة منحوها آذانا صماء ولم يقبل أحد منهم أن يدلها على مكانه حتى تذهب اليه ، لأنهم عدوها جانية على نفسها حين رأوها تذيع من سر الحب ما لا يذاع ، وتسمع فى محبوبها وشاية الواشين

وأخيرا خطر ببال المسكينة أن تلجأ إلى أبواب أفروديت بعد أن نال منها الشقاء ، وكانت ترجو أن ترثى إلهة الجمال لحالها فتسهل عليها سبيل الوصول إلى ابنها إيروس

ولكن افروديت ذات الجدائل الذهبية لم تكد ترى بسيشيه حتى هزت رأسها ساخرة ، ثم انقضت عليها فمزقت ثيابها ولوت شعورها

وأدمت جسمها ووجهها بالضرب الوجيع ، ثم قضت أن لا يكون لها من رفيق فى حياتها غير البغيضين : الحزن والحيرة ، واتخذت منها أمة ذليلة ترهقها بأثقل الأحمال ، فصبرت المسكينة صبرا جميلا وظلت فى بؤسها حافظة لعهد حبيبها المعبود

وبعد أزمان شفى إيروس من الجراح التى رمته بها قطرات الزيت المحرق ، وفكر فى محبوبته التى ظلت على ولائها له ، ولم ينسها غضبه وهجره مامر بينهما من عذب الوصال ، فتوجه إلى الأوليمب وألقى بنفسه على أقدام زوس وتوسل اليه أن يأمر بخلاص بسيشيه وأن يمنحها له زوجة وفية ، فقبل زوس رجاءه وأمر هرمس بادخال بسيشيه منزل الآلهة وضمها إلى صفوف الخالدين

وماهى إلا أيام حتى زفت بسيشيه إلى ايروس ، ورقصت أفروديت نفسها فى عرس الحبيبين ، وكان ذلك أول دليل على أن العاقبة فى الحب والمجد للصابرين

ظلم العواطف

قيل لعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: أتقول الشعر فى فقهك وورعك ؟ فقال: لابد للمصدور أن ينفث . وكان عبيدالله من وجوه الفقهاء الذين روى عنهم الفقه والحديث . وهو أحد الفقهاء السبعة

من أهل المدينة . ومن شعره

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور
تغلغل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

إن الناس يجلون الفقهاء عن قول الشعر ولاسيما النسيب ، ويرون بعدهم عنه ، وبراءتهم منه ، من متممات فضلهم ، ومكملات مجدهم . وكان ذلك ظلما للعواطف ، وقتلا للشعور ، فان لبعض أولئك قلوبا نزاعة إلى الحسن ، ونفوسا عشاقة للجمال . ومنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما جنحوا إلى السلوان

ولئن خرج عبيد الله على الجفاة من معاصريه ، فقال فى الغزل ماقال ، فانى لأحسبه كتمنا كثيرا من شجونه ، وضن على الشعر بمكنون صدره ، مداراة للعامة من جيرته ، والسذج من عارفيه فان الخوف من صغار العقول ، والهرب من ثرثرة السفلة ، لم يسلم منه نابه ، فى عصر من العصور أو قطر من الأقطار

إن الأبيات القلائل التى نقلها الرواة إلينا من شعر عبيد الله لتحدث عن صبابة وتسفر عن غرام ، ولو أن الرجل أوتى من قوة الارادة وشجاعة الفؤاد ما يشرح به هواه ويمثل به خواطره لكان له من المواقف الحسان والمشاهد المبجلة ما يضمن له الخلود فى الشعر الوجدانى من عالم الآداب

إن ظلم العواطف حرمنا كثيرا من نفثات الشعراء ، وجعلنا

تصيد طرائف الشعر الوجدانى من هنا وهناك ، ثم لانجد ماينقع الغلة ، ويشفى النفس : لما فى أكثره من التلون المذهب للعاطفة ، المميت للشعور

ولو أن ذلك كان وقفا على الفقهاء لتجملهم بالزهد ، أو النساء لتحليهن بالعفاف ، لهان الأمر وسهل ، ولكنا وجدنا فى أشهر الشعراء بالظرف وأعرفهم بالخلاعة من يمنون بالنهاة من أهلهم ، فينزلون عند حكمهم ويصدعون بأمرهم فيتناسون الهوى ، ويصدفون عن الغرام

هذا عمر بن أبى ربيعة ، كان من أجرأ الناس على إذاعة هواه وأبعدهم صيتا فى الغواية ، وطاعة الشباب ، ثم ما برح أخوه الحارث يعظه وينهاه ، حتى دان من ذلك أن أعطاه ألف دينار على أن لا يقول شعرا فقال :

« أما مادمت بمكة فلا أقدر ولكنى أخرج إلى اليمن »

فلما سار إلى هناك لم تدعه نفسه وقول الشعر ؟ فقال :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا ... إذا حللنا بسيف البحر من عدن
واحتل أهلك أجيادا فليس لنا ... إلا التذكر أو حظ من الحزن
لادارکم دارنا یاوهب إن نزحت ... نواك عنا ولا أوطانكم وطنى
ياوهب إن يك قد شط البعاد بكم ... وفرق الشمل مناصرف ذا الزمن
فكم وكم من حديث قد خلوت به ... فى مسمع منكموا أو منظر حسن
بل ما نسيت ببطن الخيف موقفها ... وموقفى وكلانا ثم ذو شجن
وقولها للثريا يوم ذى خشب ... والدمع منها على الخدين ذو سنن

بالله قولى له فى غير معتبـــة   ماذا أردت بطول المكث فى يمن
إن كنت حاولت دنيا أو نعمت بها   فما أخذت بترك الحج من ثمن

ويذكرون أن أخاه لما سمع هذا الشعر يئس من صلاحه وقال :
قد فتك أخى وغدر

والذى أراه أن عمر بن أبى ربيعة ، ما كان له أن يذهب إلى اليمن ، دفعا للوم أخيه فحسب ، فان الرجل طالما نهاه النهاة فلم ينته ولم يرجع ، وكان بينه وبين أخيه مايشعر بتهاونه بنصحه ، وسخريته من عذله ، بدليل ما يذكرون من أخذه ألف دينار من أخيه ، فى حين أنه كان من أكثر الناس مالا ووفرا ، وأعظمهم تيها وكبرا ، ولكن الرجل كان يحاول أن يتناسى صبابته ، ويتغاضى عن هواه ، حتى كان من أمره أن حلف لا يقول بيتــــا من الشعر إلا أعتق رقبة ، نهيا للنفس عن الهوى ، وكبحا لها عن الغواية ، وكان من المسرفين

فر ابن أبى ربيعة إلي اليمن ليبعد عن ملعب صباه ، ومرتع شبابه فيودع بذلك الشعر ، ويترك النسيب : ثم غلب على أمره فقال نونيته السالفة ، طوعا لأمر الفؤاد

كان ابن أبى ربيعة من أصبح الناس وجها ، وكان عشقه شبيها بعشق الملوك : لتهافت الغوانى عليه ، والتفاف النساء حوله ، فكان شعره لذلك ضائعا بين الأوصاف الظاهرة ، والمحاسن البادية ، فلا ترى له حسرة على فائت ولا لهفة على مأمول ، فلما صوح شبابه ، وحان منه التذكر ، نضب معين شعره ، ونهجت صبابته ، برًّا بذلك القسم

ونزولا عندحكم المشيب ، فكان نصيبه من الشعر الوجدانى ضئيلا ، لما ظلم عاطفته ، وعق وجدانه ، وكان من القاسطين

أنا لا أبخس ابن أبي ربيعة حظه من الشعر الوجدانى ولا أبعد أن يكون فى ديوانه من هذا النوع شيء كثير ، ولكنى أقول إن الرجل الذى يبهر الناس شعره فى مجالس الأنس، ويروقهم حديثه عن اللهو واللعب ، لجدير أن يقرح أجفانهم ، ويفتت أكبادهم ، لو بكى عهوده السوالف ومعاهده المقفرات

ولكن أبي الجد العاثر إلا أن توضع هذه الأغلال فى أعناق الشعراء فيمسون كالبلابل الموثقه الحبيسة : لا تستطيع التغريد ، ولا تملك الترجيع

وما عسى أن يكون حزن بشار وبثه ؛ وقد نهاه المهدى عن التشبيب ، وحال بينه وبين ما يشتهى من الغزل ، ومداعبة النساء .

وإنى ذاكر لك مثالا مختارا من شعره فيما يتعلق بالعواطف ، ويختص بالوجدان ، حتى تعرف أى خطب ألم بالشعر الوجداني ، فأصبح ضئيلا فى شعر هذا الرجل الكبير ، قال :

أيها الساقيان صبا شرابى ... واسقيانى من ريق بيضاء رود

إن دائى الظما وإن شفائى ... شربة من رضاب ثغر برود

ولهـا مبسم كغر الأقاحى ... وحديث كالوشى وشى البرود

نزلت فى السواد من حبة القلـ ... ـب ونالت زيادة المستزيد

ثم قالت نلقاك بعد ليـال ... والليالى يبلين كل جديد

عندها الصبر عن لقاى وعندى زفرات يأكلن قلب الحديد
لا أبالى من ضن عنى بوصل إن قضى الله منك لى يوم جود

فانك لتبصر من خلال هذا الشعر رجلا صادق الحب ، متين الصبابة ، ألح عليه ساقياه بالراح ، فتعفف عنها ، لا زهداً فيها ، ولا نفوراً منها ، ولكن ذكرى حارة ، ولوعات دخيلة ، هاجت بصدره وثارت بلبه ، إذ ذكر صهباء الثغر ممن يهوى ، وخمر الريق ممن يحب شغل الشاعر عن الراح ، بما ذكر من محاسن محبوبه ، ولطائف معشوقه ، فأخذ يذكر ما فعل الحب بقلبه ، ونال الهم من نفسه

نأسى عليكم إذا حثت مشعشعة فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

كان بشار من أظرف الناس غزلا ، وأبدعهم نسيبا ، ولكن قضى الله أن يحول المهدى بينه وبين التشبيب ، فيضيع بذلك الشعر الوجدانى من هذا النوع ، فيما عسى أن يقول فى ذكرى لياليه الخوالى وعهوده السوالف ! وقد ختمت زفراته المحرقة ، وعبراته المغرقة بكلمته الآتية :

يا منظراً حسنا رأيته من وجه جارية فديته
لمعت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما اتقيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته

ويشوقني بيت الحبيـب إذا غدوت وأين بيته
قام الخليفـــة دونـــه فصبرت عنه وما قليتـــه
ونهـــانى الملك الهمـــام عن النساء فما عصيته
بل قد وفيت ولم أضـــع عهـدا ولا وأيا وأيتـــه

ثم انقضت حياة بشار الوجدانية ، وما عدت تسمع له غير أبيات فاترة في الأسف على ما حيل بينه وبين هواه ، فنال اليأس من قلبه والقنوط من ضميره ، وعاد من الهالـكين .

ولقد نال أبانواس إمام الشعراء فى وصف الخمر ، ما نال بشارا إمامهم فى وصف النساء ، فقد نهاه الأمين عن شربها وحبسه ابن أبي الفضل من أجلها ، ثم كلم فيه : فأخرجه على أن لا يشرب خمرا ، ولا يقول فيها شعرا ، فطالت حسراته ، وكثرت زفراته ، ثم قال:

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما
نالنى بالملام فيهـا إمام لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فاني لست إلا على الحديث نديما
جل حظى منها إذا هى دارت أن أراها وأن أشم النسيما
فكأني وما أزيـن منها قعدى يزيـن التحكيما
كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق أن لا يقيما

وتعرف أن أبا نواس إن نهى عن الخمر فقد لا ينتهى ، ولـكنه لابد مقلع عن وصفها ، طاعة للامام ، وفى ذلك يقول :

عين الخليفة بى موكلة عقد الحذار بطرفها طرفى

صحت علانيتى له وأرى   دين الضمير له على حرف
ولئن وعدتك تركها عدة   إني عليك لخائف خلفى

نهى أبو نواس عن الخمر فشربها سرا ، ولكنه جامل الامام بترك نعتها ، والتحدث عن وصفها ، فاصاب الأدب ما أصابه ، وغشى الشعر ماغشيه ، فان أبا نواس فيما أرى أول الناس وآخرهم فى وصف الراح والسقاة

ولو لم يقف فى سبيله الأمين ، لأبان لنا من مذاهب القول وطرق البيان ماكنا فى حاجة إلى بعضه : ولكن الزمان للادب ظلوم قهار

ليس وصف الخمر والندامى ، والكؤوس والسقاة ، ضربا من الشعر الوجدانى : فانها أوصاف محسة ، ترجع فى جملتها إلى ماترى العين ويذوق اللسان ، ولكن طبع أبي نواس ومهارته ، جعلا لتلك المعانى الخمرية صبغة خاصة تشبه أن تكون من عمل القلب ، وصنع الضمير

قل شعر عبيد الله لما تخوف الجمهور ، ونضب شعر ابن أبى ربيعة لمانهاه أخوه، وذهبت لطائف بشار فى الغزل لما منعه المهدى ، وحرمنا بدائع أبى نواس فى الخمر لما زجره الأمين

فكان ذلك مما أوجب فقر الآداب العربية ، وجعل حظ الشعر غاية فى الضؤول ونهاية فى الخمود

فياليت شعرى أتشمل الحرية الأدب وتنتظم الشعر ، أم يعيش

الشعراء أسرى الأوامر العالية ، والزواجر الطاغية ، أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

مارس سنة ١٩١٨

الامل الضائع

تأيمت حتى لامنى كل صاحب رجاء سليمى أن تئيم كما إمت
لئن بعت حظى منك يومابغيره لبئس إذاً يوم التغابن ما بعت

كنت أصبر على بأساء الحياة ، وأحتمل ما فيها من هم وغم ، لو أن عندى بقيةمن الأمل أرفه بهاأحزانى ، وأدفع بها آلامى، ولكن حال القنوط دون الرجاء ، وأتى اليأس دون الطمع ، فلم يبق غير الجزع من مسعد ، ولا سوى النوح من شفاء !!

فياجيرة ما كان أهنأ وردهم ، وأطيب عيشهم ، ويا أحبابا ذقت الفرح بقربهم ، وعرفت الهم لبعدهم ، ويامن أفنانى فراقهم وكان أحيانى لقاؤهم ، بربكم ماالذى لقيتم بعدى ، فقد لقيت بعدكم ذلاوهوانا وظلما وعدوانا ، ومن عسى أن يكون قد ظفر بودكم ، ونعم بحسنكم ، فأصفاكم من الحب أجمله ، ومن الأنس أكمله ، فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتى ، وأنكر خلتى ، ومن سقيته الشهد فسقانى الصاب ، ومن أوليته القرب فأولانى القطيعة !

فياليت شعرى من ألوم؟ أألوم نفسى على أن لم أعق فى بركم أهلى وإخوانى: فأسير حيث سرتم، وأقيم حيث أقمتم

تفرق أهلى من مقيم وظاعن فياليت شعرى أى أهلى أتبع
أقام الذين لاأبالى فراقهـــم وشط الذين بينهـــم أتوقع

أم ألومكم على أن تركتمونى وحيدا وآثرتم وطنكم وأهلكم، ولم تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه، وأسير همه؟ أم ألوم قوما جعلتهم منكم بدلا فكانوا شر بدل، واتخذتهم من بعدكم ذخراً فكانوا كالهباء ورجوتهم حصنا أتقى به الدهر الخائن، والزمن الجائر، فاذا هم أذل من قراد بمنسم، وإذا المتفيء ظلهم، والراجى برهم، يطمع فى غير مطمع، ويلجأ إلى شر وزر!

أم ألوم دهرا اضطركم إلى الرحلة فرحلتم، وحكم على بالمقام فأقمت، ثم أمدنا من اليأس لبعد الدار، وشط المزار، ماجعل الأمل فى التلاقى خائبا، ورجاء التدانى كاذبا

وقلمـا أبقى عـلى ما أرى يوشـك أن ينعانى النـاعى
ما أقتل اليأس لأهل الهوى لاسيما من بعـــد إطماع

ما هذا الذى صنعتم؟ أخضعتم لليأس، وأذعنتم للقنوط، ولم ترهبوا العتاب، إذ لم تأملوا اللقاء؛ فزففتم تلك الشمس إلى غيرى، وآثرتم بها سواى.

ياعز إن ضاعت عهودى عندكم فانا الذى استودعت غير أمين
أو عدت مغبونا فما أنا فى الهوى لكمو بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فللنم — ولا وفاء لملول — فكان منكم ما أقض المضجع ، وأورث الجفن السهاد ، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا ، ونال القنوط منا ؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء !

هي الغاية القصوى فان فات نيلها فكل منى الدنيا على حرام

نوفمبر سنة ١٩١٧

احاديث . . .

باريس فى ١٥ يناير سنة ١٩٣١

الوطن الذى يحفظ الجميل

مات المارشال جوفر فى باريس فخفقت لموته قلوب الفرنسيين جميعا ، وأعلن الحداد العام على الرجل الذى كسب موقعة المارن ، وأخذت الجرائد والمجلات تنشر ما عرف وما لم يعرف من أخباره وصوره وأعماله منذ كان يافعا إلى ان اختطفه الموت

وقد أثار هذا الحادث فى نفسى أشجانا محرقة : فقد التفت الذهن من فرنسا التى تحفظ الجميل إلى مصر التى تنكر الجميل

وانى لأرجو ان يحتمل القراء وقع هذه المؤاخذة ، فانى لا ارضى أن أتملق عواطفهم وأهواءهم ، وأظهرهم بمظهر الأوفياء لوطنهم وقومهم ، على حين يرتطمون فى أوحال العقوق

كل شىء يتقدم فى مصر إلا عاطفة الواجب نحو الجنود الذين

خدموا الوطن فى امانة وإخلاص

والذى يعيش فى باريس يأخذه العجب مما انتثر فى هذه المدينة من مئات التماثيل ، ويكفى ان يتجول الرجل من حى إلي حى على قدميه ليعرف تاريخ فرنسا العلمى والأدبى والسياسى عن طريق التماثيل

ولكن لا يحسب القراء ان التماثيل هنا تقام لمن هزوا فرنسا وأشعروها بوجودهم ، وفرضوا عليها الوفاء لهم . . . كلا ، ففى أكثر الأحيان تقام التماثيل لرجال لم يكن يخطر ببالهم أن سيكون لهم ذكر مأثور بعد الممات ، وإنما ينتبه الشعب الى مزايا رجاله ، وخصائصهم ، وتفوقهم فيما انقطعوا له من علم أو أدب أو طب أو سياسة أو قانون ، وكذلك تنظر فترى تمثالا يقام لرجل نسيه الأهل والأصدقاء والأقربون ، وليس له شيعة ولا حزب ولا أنصار ، وكل ما في الأمر أن بعض المنصفين تنبه إليه ودعا الحكومة إلى إنقاذ ذكراه من جور الخمول

والذين يستحقون الذكر فى فرنسا لا يمجدون فقط فى بقعة واحدة ، وإنما تنتشر أسماؤهم فى جميع المقاطعات والأقاليم ، فاسم فيكتور هوجو مثلا يطلق على عدد كثير من الشوارع والميادين فى مختلف القرى والحواضر الفرنسية ، وكذلك اسم جان جاك روسو وفولتير وموليير ومن إليهم من رجال العلم والأدب والفن والسياسة والتشريع

هذا فى فرنسا ، أما فى مصر؟

أنا لا أذكر أنه أقيمت فى مصر تماثيل شعبية ، فان التماثيل القليلة يرجع السر فى وجودها إلى بعض الرغبات العالية ، أما الشعب نفسه فيحتاج إلى من يهذب ذوقه ويروضه على تقديس الأوفياء من زعمائه ومعلميه ، وحسب القارىء ان يذكر أنه كان من الممكن أن تتلاشى فكرة تمثال زغلول ، ولولا قوة الوفد لوضع ألف غطاء على تمثال سعد وضريحه ، وكان من الجائز أن نشهد هذه المهزلة ونحن أحياء

فاذا خلينا سعد باشا جانبا ، ورجعنا إلى مصطفى كامل تبينا الحقيقة ، فان تدهور الحزب الوطنى كان كافيا لأن ينسى معه اسم مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان على الشعب أن يفهم أن زعماء الحزب الوطنى الأولين غير مسئولين عن « البرودة » التى يخب فيها أشياع الحزب الوطنى فى الوقت الحاضر ، وقد أذكر أن الوفد المصرى تقدم فى أواخر سنة ١٩١٩ إلى الاحتفال بتأبين محمد فريد ، فدل بذلك على تقديره لعظمة الرجل ، مع أن الخصومة بين الوفد والحزب الوطنى كانت إذ ذاك أحر مايكون

هذا حظ رجال السياسة والوطنية فى مصر ، مع مالهم من الأثر الفعال فى طبع أسمائهم فى الرؤوس

أما رجال العلم والأدب والتشريع الذين يعملون فى تواضع وهدوء فان نسيانهم حتم لاريب فيه ، فكم فكر الناس فى إحياء ذكرى

اسماعيل صبرى باشا ثم سكتوا ، وكم صاح الصائحون باحياء ذكرى الشيخ محمد عبده ثم هجعوا

ومع هذا العقوق لايزال فى مصر ناس يشقون لتسعد أمتهم ويموتون لتعيش . وبفضل هؤلاء الضحايا ، ضحايا نكران الجميل ، يحيا الكاندون الجاحدون !

أسماء عربية

أخذ الشرقيون منذ أكثر من عشرين عاما يعتزون بقوميتهم ، والقومية الصريحة لشعوب الشرق الأدنى هى القومية العربية ، وقد أخذ فريق من المصلحين يعمل لنشر اللغة العربية بحيث تصبح لغة الشرق فنشأ عن ذلك أن انصرف أكثر الشرقيين عن الأسماء الأوروبية وأصبح من النادر أن يسمى الناس أطفالهم بمثل ادوار أو جورج ، أو جان ، وأشهر الداعين إلى هذه السنة الحسنة من إخواننا الأقباط رجل طيب القلب بعيد النظر يسمى (وهبى بك) وكان ناظراً لمدرسة الأقباط ، فاليه فيما علمت يرجع الفضل فى شيوع الأسماء العربية بين الأقباط .

وأظهر الشواهد فى هذا الموضوع ما كان من الأستاذ الخطيب مكرم عبيد ، فقد أبعد عن نفسه اسم (ويليم) ليجمع بين الخصائص المصرية والعربية ، وليبعد عن نفسه وشائج السمات الانجليزية ،

والأستاذ مكرم خطيب شعبي محبوب ، ولباقته فى الخطابة سيكون لها آثار حميدة في شيوع اللغة الفصحى بين إخواننا الأقباط

هذا ، ولنا صديق فى باريس من طلبة الدكتوراه اسمه ادرار فارس ، وهو شاب أديب نشر له المقتطف عدة قصص جيدة ، وقد رأيت أن أقدم بعض رسائله إلى المساء على شريطة أن يغير اسمه ، فارتاح للفكرة ، ولكنه قضى عدة أسابيع يتخير الأسماء من عهد أصحاب المعلقات إلىاليوم ، وكان أحب الأسماء إليه مروان وحسان ثم اختار أخيرا اسم « بشر » فهو الآن بشر فارس ، رضى الله عنه وأرضاه !

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أذكر أن المأسوف عليه الدكتور يعقوب صروف كان يأسف على أنه لم يكن مسلما ، وكان يعتقد أن الباحث المسلم أقدر على التغلغل إلى أعماق النفوس الشرقية ، وفى يقينى أنه أصبح من المحتم على أهل الشرق أن يتسامحوا مع الاسلام فى سبيل الوحدة الشرقية ، فان الاسلام دين هداية وسماحة ويقين ، ولا ضير على أهل الشرق من غير المسلمين أن يسايروا الواقع ، ويطمئنوا إلى المدنية الاسلامية التى تؤلف بين قلوبهم من حيث لا يشعرون

أسماء مصرية

المسيو ميشو أستاذ الأدب الفرنسى بالسوربون وعميد كلية

الآداب بالجامعة المصرية سابقا رجل من أكرم الناس نفسا وأنقاهم سريرة ، ذهبت لتحيته فى عيد الميلاد ، وهو يسكن ضاحية قريبة من باريس تسمى (سو) فلما وصلت إلى الشارع الذى يقيم فيه عذرت كل من يعشق مصر من الأساتذة الأجانب ، فان أكثرهم يقيمون فى مصر الجديدة ، ومصر الجديدة ضاحية قلما يوجد لها نظير فى الضواحى الفرنسية ، فلما دخلت المنزل بهرنى ما فيه من الزخرف والزينة ، وجاء المسيو ميشو فحيانى ودعاني إلى زيارة حديقته ، ولكننا لم نكد نضع أقدامنا فى الحديقة حتى هرع الكلاب لاستقبالنا فى حفاوة بالغة ، وهجم أحدها يريد معانقتى ، فتراجعت وقلت « امش يا كلب يا ابن الكلب ! » فضحك وقال : ما خطبك ؟ قلت : إنك لتعلم أننى أزهرى قديم يكره النجاسة ! فقال : إنها كلاب لطيفة ، وقد سميتها بأسماء مصرية ، فالأكبر اسمه (الاقصر) والأوسط اسمه (اسمع) والأصغر اسمه (دغرى) فقلت فى نفسى عجبا ! إننا نسمى أبناءنا بأسمائهم ، وهم يسمون كلابهم بأسمائنا ! وحمدت الله على أنه لم يخطر ببال المسيو ميشو أن يسمى كلابه بأسماء من كان يراهم كل يوم فى الجامعة المصرية مثل (زكى) و (لطفى) و (طه) فانه لو فعل لكانت ذكرى غير طيبة لأصحابها زكى مبارك ولطفى السيد وطه حسين

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من «أسمائنا» ما استحلت

الاستعمار على كف عفريت

لى صديق فرنسى مشغول الفكر بمستقبل المستعمرات الفرنسية، فاذا تحادثنا انطلق يشكو ما يلقى الفرنسيون فى مستعمراتهم من القلاقل والاضطرابات، وأظرف ما فيه شماتته بالانجليز، فهو يطرب لأخبار الهند ومصر بنوع خاص، ويقول: إن فى مصر والهند دلائل قوة ونهوض، ويسرني أن أجد أصدقاءنا المصريين وقد اكتملت قوتهم، واكتهلت تجاربهم، بحيث صار من المستحيل أن تفنى قوميتهم او ان يطمئنوا إلى خداع السياسة الانجليزية، وإن الهند لتضرب المثل لمن يريد ان يفهم أن القوة الروحية لا تقل فى خطرها وجلالها عن القوة المادية، قوة المال والسلاح .

فاذا انتهى الصديق من الاشادة بفضل مصر والهند عاد فذكر ان سكان الهند الصينية ناس خبثاء ملاعين! فاذا قلت: ولم ذلك؟ أجاب: إنهم يحلمون دائما بالثورة، ولا يتركوننا فى أمان، ولعلك تذكر ما كان من الطلبة الأناميين فى صيف سنة ١٩٢٨ حين ذهب رئيس الجمهورية لافتتاح دارهم فى المدينة الجامعية، فقد كانوا يوزعون المنشورات الثورية علنا فى حفلة الافتتاح، مع اننا شجعناهم على التعلم، وفتحنا لهم أبواب الرقى، وأنقذناهم من الجهل، وعلمناهم كيف تكون الحرية وكيف يكون الاستقلال

قلت: ونتيجة ذلك؟ فأجاب: الخلاصة أنه من الحمق أن يفكر

المستعمرون فى تهذيب الشعوب الشرقية ، فقد ظهر أن العلم يفتح عيون أولئك الناس ويبعثهم على الثورة والتمرد والعصيان

وهنا ضاق صدرى فقلت : لقد آن لكم يا صديقى أن تفهموا انه قد انقضى عهد الطمع فى استعباد الشعوب ، والشرق الذى ترمونه بالوقاحة والخبث لخروجه عليكم يرميكم هو أيضا بالغفلة والجهل حين تطلبون مالا يكون وتطمعون فى المستحيل . وعما قريب لتصبحن نادمين !

العرب واليونان

نشرت الشورى الغراء للأمير شكيب ارسلان كلمة فى خواطره عن العرب واليونان جاء فيها أن ابنه سأله : لماذا يا ابت يمجد الأوربيون ذكريات اليونان ، ولا يمجدون ذكريات العرب ؟ وقد أجاب الأمير شكيب بما معناه ان تحامل الغربيين على العرب لم يخف على احد ، حتى الأطفال ! وفى رأيى ان إغفال الأوروبيين لذكريات العرب يرجع لأسباب كثيرة أهمها ما يأتى :

أولا — العرب لايزالون أقوياء يخشى شرهم ، وذكرياتهم الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالاسلام ، وكل إحياء لذكريات العرب خليق بأن يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الاسلامية وهم يعرفون ما صنعت تلك الأمم فى الأيام الخوالى ، فليس من الحزم أن يشجعوا ذكريات العرب والاسلام لهذا السبب الخطير .

ولا كذلك اليونان ، فانهم أمة صغيرة قليلة الحول والطول ، وليس في مقدورها أن تضايق أوروبا فى حرب أو فى سلم ، فهم ينشرون ذكرياتها فى طمأنينة وأمان

ثانيا — أهم آثار العرب ترجع فى صميمها إلى التشريع ، وهو من المعانى الجافة التى لايقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين ، ولا كذلك آثار اليونان فان معظمها يرجع فى جوهره إلى الأدب الصريح الذى يهيج الأهواء ، ويثير الشهوات ، وتلك شؤون تجد نصيبها فى كل قلب ، ويسرى روحها فى كل نفس ، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشهوات واللذات الحسية أخذها الأوربيون عن اليونان ، ولهذا الفرق بين آثار العرب وآثار الاغريق أغوار بعيدة يعرفها من يقدر ظمأ السواد إلى اللهو الجامح ونفرته من الجد الرصين

ثالثا — اشترك اليونان بأنفسهم فى نشر آدابهم بين اهل الغرب وقلما فعل أنصار الأدب العربى شيئا من ذلك ، وفى يقينى أنه لو ترجم كتاب العقد الفريد مثلا إلى اللغات الأوربية لكشف للعالم الغربي آفاقا من حرية الفكر وسلامة الذوق ، وخلق للادب العربى آلافا من الأنصار والأشياع، فالينا إذن يرجع اللوم فى طمس آثار أسلافنا الماجدين

ساعة حب

يَامَلِيكَ الْحُسْنِ عَزَّتْ دَوْلَتُكْ　　وَرَعَتْ آلِهَةُ الْحُبِّ صِبَاكْ
شِرْعَةُ الْإِسْعَادِ فِينَا شِرْعَتُكْ　　وَهُدَى الْإِشْفَاقِ وَالْعَطْفِ هُدَاكْ

***

أَنْتَ أَنْقَذْتَ فُؤَادِي مِنْ جَوَاهْ　　وَسَقَيْتَ الرُّوحَ أَكْوَابَ الصَّفَاءْ
آنَ أَنْ يَنْسَى فُؤَادِي مَاشَجَاهْ　　نَسَخَ الْإِقْبَالُ أَيَّامَ الشَّقَاءْ

***

سَاعَةٌ مَرَّتْ وَفِي الْقَلْبِ هَوَاكْ　　سَاحِرَ النَّغْمَةِ خَفَّاقَ الْجَنَاحْ
يَرْشُفُ اللَّثْمَةَ مِنْ كَأْسِ لَمَاكْ　　فِي ظِلَالِ الْأُنْسِ وَالصَّفْوِ الْمُتَاحْ

***

سَكَبَتْ نَجْوَاكَ فِي الرُّوحِ الْأَمَانْ　　وَأَرَانِي الْوَصْلُ أَسْرَارَ جَمَالِكْ
فَتَمَثَّلْتُ فَرَادِيسَ الْجِنَانْ　　وَرَأَيْتُ الْخُلْدَ مَنْضُورَ وِصَالِكْ

***

وَقَفَ النَّجْمُ وَأَلْقَى بَالَهُ　　لِيَعُدَّ اللَّمْحَ مِنْ قَلْبِي وَقَلْبِكْ
وَيْحَ هٰذَا النَّجْمِ مِمَّا هَالَهُ　　فِي ضَمِيرِ اللَّيْلِ مِنْ حُبِّي وَحُبِّكْ

***

غَارَتِ الأَنْجُمُ مِنْ قَلْبِي الطَّرُوبْ، مَا يَقُولُ النَّاسُ لَوْ شَامُوا غَرَامِي؟
أَنَا بِالأَفْنَانِ فَتَّـــاكٌ لَعُوبْ يَزْدَهِينِي الْغَيُّ فِي تِيهِ هُيَامِي

***

شُبْهَةٌ فِي قَلْبِكَ الْبِكْرِ يَلُوحْ طَيْفُهَا الْمُرْتَابُ فِي إِنْسَانِ عَيْنِكْ
أَنَا يَامَوْلَايَ لَوْ تَعْـــلَمُ رُوحْ يَهْصِرُ الْمَطْلُولَ مِنْ مَائِدِ غُصْنِكْ

***

تَنْظُرُ السَّاعَةَ مِنْ حِينٍ لِحِينْ لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَسْتَعْجِلُكْ
إِنَّ هٰذَا الْوَصْلَ أَحْلَامُ سِنِينْ فَاتَّقِ الْحُبَّ وَدَعْ مَا يَشْغَلُكْ

مارس سنة ١٩٣٤

*

الدكتور طه حسين[١]

بين البغى والعقوق

ـ:ـ○ـ:ـ

١ــ قصة الفأر الجبان فى أساطير الأولين
٢ــ شخصية زكى مبارك وشخصية طه حسين
٣ــ وزير المعارف الجديد

قصة الفأر الجبان

فى أساطير الأولين أن شيخا من السحرة كان فى بيته فأر جبان لا يسمع مواء القط إلا اضطرب وخاف ، فأشفق الساحر عليه وحوله إلى قط ، فصار يخاف من الكلب ، فحوله إلى كلب فصار يخاف من النمر ، فحوله إلى نمر فصار يخاف من الفيل ، فغضب الساحر وقال : لافائدة من ترقيتك إلى حيوان مستأسد مادمت تحمل قلب الفأر الجبان

(١) رسالة من كتاب « أكواب الشهد والعلقم » الذى سنصدره فى العام المقبل ، وإنما تعجلنا نشر هذه الرسالة فى « البدائع » لأن الجمهور تشوف اليها كثيرا ، ولأنها كانت ذات تأثير شديد فى جميع الأنديه الأدبية ، وبفضلها انكشف طه حسين وعرف الناس أنه كالطبل الاجوف وأنه مثال الانحطاط بين أهل هذا الجيل

وفى أخبار العصر الحديث أن رجلا اسمه زكى مبارك كان يهجم على شخص اسمه طه حسين ، وكان طه حسين يسكت فلا يجيب ، فكان الناس يظنون أن طه حسين يترفع عن ملاحاة زكى مبارك ، ثم مضت أيام وأصبح زكى مبارك موظفا فى الحكومة المصرية ، ورأى طه حسين أن الوظيفة تحرم على صاحبها ألوانا من الخصومات ، فانطلق كالسهم يأكل لحم زكى مبارك فى غير تعفف ولا إشفاق ، وكذلك عرف الناس أن طه حسين لم يكن يترفع عن ملاحاة زكى مبارك ، وإنما كان يخاف ، فلما رأى أن زكى مبارك أصبح فى قيود الوظيفة أمن واطمأن ، واندفع يناوشه ويلاحيه بلسان شجاع وقلب جبان

يادكتور طه ، سلام عليك !

لقد كان الناس يحسبونك جبانا حين كنت أستغضبك فلا تغضب ، وأطعنك فلا تهتاج ، فما بالك اليوم تشجعت وشغلت نفسك بمحاربتى فى صحيفتك السوداء ؟ أتحسب أن الوظيفة تحولنى إلى رجل جبان كما فعلت بك فى الأيام السوالف ؟ معاذ الله أن يكون ذلك، وسترى كيف أجعل لحمى حراما عليك ، وكيف أخرسك فلا تنطق ولا تبين ، لقد كانت بينى وبينك عهود رعيتها بأدنى حق الرعاية ، وهأنذا أراك تحللت من جميع ما كان بينى وبينك من عهود فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ، ولن أرعى لك بعد اليوم عهدا ولن أدعك تنهش لحمى ، وهل من البر أن نصفح عن الغادرين ؟

يادكتور طه !

كيف نسيت فضلى عليك ، يوم نبذك النـاس نبذ النواة ، ولم يـكن لك نصيرسواى ؟ أتذكر يوم كان أصحابك يفرون منك كما يفر السليم من الأجرب ؟ أتذكر كيف كنت وحدى صديقك الذى لا يغدر ولا يخون ، وكان إخوتك وأصدقاؤك بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص ؟

يادكتور طه !

ماذا تملك من السلطان حتى تهدد و توعد ؟ حدثنى ماذا تملك فقد ضقت ذرعا بوعيدك ؟ هل تملك غير الدسائس التى تسطرها ضدى فى صحيفتك السوداء ؟

إن هذه الدسائس لن تفضح أحدا غيرك ، لأنها أظهرتك على حقيقتك ، وبينت للناس أنك بعيد كل البعد عن أخلاق الأشراف

كل ما تملك هو الانتساب إلى العلم والعلماء ، ولست من ذلك فى كثير ولا قليل ، ويجب أن تعلم أنى أزاحمك برأس أرجح من رأسك ، ومنكب أضخم من منكبك ، وساعد أقوى من ساعدك ، وستندم يوم لا ينفع الندم ، فاعرف قدرك ، ولا تطمع فى أن ألاينك ، فانى أومن بالله وحده وهو نعم المولى ونعم النصير ، أما أنت فلا تعرف أنصارك إلا فيمن يزحفون فوق الأرض . تذكر ربك مرة واحدة ، ياغافل ، فسينصرنى الله عليك ، ولو خدمت ألف حزب وسيطرت على ألف جريدة ، والمستنصر بغير الله مخذول وإن أعانه الثقلان !

***

شخصية وشخصية

يادكتور طه !

أنت تعجب من رجوعى إلى الجامعة المصرية ، فلتعلم أن حجتك فى هذا العجب ساقطة أشنع السقوط ، لأنى لم أجىء إلى الجامعة من عرض الطريق ، فقد زكيتنى أنت للتدريس فى الجامعة منذ تسع سنين ، واشتغلت بالتدريس فى الجامعة ثلاثة أعوام بجانبك ، ولم تؤاخذنى بهفوة واحدة ، وكتبت عنى تقريراً كان يومئذ يمثل نزاهتك فقلت إنى أؤدى عملى تأدية موفقة وأنك راض عنى وعن عملى كل الرضا ، وأنت تذكر يادكتور طه أن إرادة فوق إرادتك أخرجتنى من الجامعة ، وتذكر أنك مثلت دور الرجل الكريم فجزعت لخروجى من الجامعة أشد الجزع ، ورشحتنى للرجوع اليها بعد ذلك مرتين ، ومن حسن الحظ أن ذلك كله مسجل فى أوراق رسمية ستشهد عليك إن أنكرت

فيا أيها الغادر بأخيه كيف تنسى كل ذلك ليصح لك الزعم بأن رجوعى إلى الجامعة لم يكن إلا مكرمة خالصة من معالى الأستاذ حلمى باشا عيسى ، مع أن حلمى باشا لم يصنع أكثر من تحقيق رغبة صالحة أعلنتها أنت مرتين ؟!

ومع ذلك ، فبأى حق تكون أنت أولى منى بمناصب الجامعة المصرية ؟

اليك الفروق الواضحة بين شخصية زكى مبارك ، وشخصية طه حسين :

لقد ذهبت أنت فأتممت دراستك فى باريس ، وذهبت أنا فأتممت دراستى فى باريس ، فهل تعلم ما الفرق بينى وبينك ؟

اسمع أيها الصديق القديم البالى :

ذهبت أنت على نفقة الجامعة ، ومضيت أنا متوكلا على الله فأنفقت ما ادخرت من عرق الجبين

واتصلت أنت بالمسيو كازانوفا ففرض عليك آراءه فرضا ، ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ ، واتصلت أنا بالمسيو مرسيه ، ففرضت عليه آرائى فرضا ، واتصلت بينى وبينه الخصومة فآذانى إيذاءاً شديدا ، ولكن قناتى ظلت صلبة واستطعت أن أقوض كبرياءه فى عقر بيته وفوق كرسى السوربون

ولم تمر هذه المعركة بلا غنيمة ، فقد وقف المسيو ماسينيون يوم أديت امتحان الدكتوراه ، وقال : « إننى حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول : هذه بضاعتنا ردت الينا . وحين أقرأ أبحاث زكى مبارك أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة »

فان كنت فى ريب من ذلك فاسأل من حضروا امتحاني فى السوربون ، وكانوا مئات ، وفيهم مدير البعثة المصرية فى باريس ،

ولك أن تسأل المسيو ديموبين ليخبرك أن المسيو مرسيه صارحه بهذه العبارة « إني لا أستطيع أن أمنح زكي مبارك مايصبو اليه : فاني أقرأ في وجه هذا الفتى آيات الطموح الجارف وأخشى أن يجيء غداً ومعه سفير مصر ليطالب بكرسي من كراسي السوربون »

وأنت يادكتور طه تعلم من هو زكي مبارك ، وتعلم أنه لايخاف الا الله المتفرد بالعظمة والجبروت ، وقد عرفت مني ماسرك وساءك والدنيا أفراح وأحزان

ثم ماذا ؟ اسمع أيها الصديق :

لقد اشتغلت أنا بالصحافة ، واشتغلت أنت بالصحافة ، واليك الفرق بين الشخصيتين :

كنت أنا رئيسا لتحرير جريدة الافكار ، وكانت تدافع عن مبادىء الحزب الوطني ، وكان يشرف عليها عبد اللطيف بك الصوفاني ، فكنا نختلف ونختصم في كل صباح ، لاني كنت آبى أن أكتب غير ما أراه في التقلبات السياسية ، وكان يتفق أن أخرج من الجريدة قبل أن أتم مقالي ، فيخرج الصوفاني بك يبحث عني ويترضاني

وأنت اليوم رئيس تحرير جريدة وفدية ، فهل تدري ماذا تصنع؟

تدخل إلى مكتبك فلا تكتب سطراً قبل أن تتصل تليفونيا بهذا أو بذاك لتتلقى الوحي ، ثم تكتب مايلقى عليك وكأنك الببغاء ؟!

وأنت مع هذا تزعم أنك رجل ذو شخصية وأن من واجب الناس أن يستمعوا قولك

ثم ماذا ؟ اسمع أيها الصديق :

اشتغلت أنت بالتأليف واشتغلت أنا بالتأليف ، واليك الفرق بين الشخصيتين: مضيت أنت فانتهبت آراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين ، وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العمومية .. وأنت تعلم أن ليس لك رأى واحد وصلت اليه بعد جهد وبحث ، وقد تحديتك فى كتاب النثر الفنى ، فسكت وتخاذلت لانك تعلم أن بيتك أوهى من بيت العنكبوت

واشتغلت أنا بالتأليف فكانت آرائى كلها مبتكرة ، ولم يستطع أحد أن يتهمنى بالسرقة من فلان أو فلان ، كما اتهموك بالسرقة من جميع الناس

ومؤلفاتك تموت يوم تولد ، ولك أن تسأل لجنة التأليف لتخبرك أن كتاب الأدب الجاهلى لم يبع منه شىء بعد النسخ التى فرضتها أنت على طلبة كلية الآداب

أما مؤلفاتى فهى فى جميع الأيدى ، وتعاد طبعاتها وتطلب فى جميع الأوقات .

ثم ماذا ؟

كنت أنا فى الجامعة وخرجت ، وكنت أنت فى الجامعة وخرجت فهل تدرى ما كان منى وما كان منك ؟

خرجت أنا من الجامعة فلم أعتمد على غير الله ، وأنت تذكر يادكتور طه أن الأستاذ سليم حسن سألنى بحضرتك عما عملت ،

فأجبت انت ، وكنت يومئذ رجلا شريفا :

« لقد عمل زكى مبارك ما يعمل الرجل : رآني أتجنى ، ورأى لطفى بك يتدلل ،فتركنا ومضى يجاهد جهاد الرجال »

خرجت انا من الجامعة فاشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية ، وجمعت من المال الحلال ما أتممت به دراستى فى باريس ، وطبعت عددا عظيما من المؤلفات ، وكتبت فى الأدب والاجتماع صفحات تعد بالالوف ، والحمد لله رب العالمين

وخرجت أنت من الجامعة فانزويت فى بيتك وأخذت تبحث عن سيد ، وطالت حيرتك فى تخير سيدك الجديد ، فكنت تراه تارة من هؤلاء ، وتارة من هؤلاء ، ورأيت أخيرا أن مائدة الوفد أشهى من غيرها وأمتع ، فذهبت وقدمت اليها نفسك ، وهددت الدكتور هيكل بكشف أسرار الدستوريين

أفرأيت الفرق بين شخصية زكى مبارك وشخصية طه حسين

ثم ماذا ؟

كانت لى آراء جريئة ، وكانت لك آراء جريئة

أما أنا فكنت لا أذيع الرأى إلا حين أعتقد صحته ، وما كان يهمنى مطلقا أن أعادى الجمهور بلا موجب ، أما انت فكنت لوحة اعلانات لا تذيع الرأى الا لتغيظ الجمهور ولتصبح حديث الناس فى الأندية والمجتمعات

لقد أخرجت كتاب الشعر الجاهلى فى سنة ١٩٢٦ وكتبت فى

مقدمته فقرات تتحدى فيها الرأى العام وتعلنه بالحرب الشعواء ، ثم اتفق أن ذهبت لحضور المؤتمر التاريخى فى الشام ، ورجوتنى أن أحفظ لك ما يكتب ضد الكتاب ، فلما عدت سألتنى فأخبرتك أن الكتاب قوبل بالاعراض ، فأظلم وجهك لحظة ، واصفر لحظات ، لأن أملك خاب فى تهييج الجمهور ، ثم سعيت سعيك فى لفت الأنظار الى كتابك . أفتذكر كيف كانت العاقبة ايها الرجل الشجاع ؟

كانت العاقبة أن دعاك مدير الجامعة وامرك بالاستغفار فخضعت وأذعنت ، ونشر قلم المطبوعات على الصحف المصرية هذه التوبة النصوح :

«أشهد أنى أؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر» .

« طه حسين »

وكان حادثاً مضحكا أخزيت به العلم وآذيت كرامة العلماء

أنت تؤمن بالله وكتبه يادكتور طه وانت تكذب التوراة والقرآن اعتمادا على رأى خاطىء سرقته من احد المبشرين ؟

يحزننى والله أن اذكرك بهذا يادكتور طه ، فانا اعرف كيف تؤلمك هذه الذكرى ، ولكن ماذا أصنع ، وقد نقضت العهد ، وهدمت مابنيناه من صروح المودة فى عشر سنين ؟

وليتك وقفت عند هذا الاستغفار العجيب بل ورطت مدير الجامعة حين اكدت أنك لم تلق تلك الآراء الخاطئة على الطلبة فذهب

يحكى ذلك فى مجلس النواب ، وقام القائلون فعارضوه ، ونقلوا عن كتابك هذه العبارة :

« ألقيت هذا البحث على طلبة الجامعة وليس سرا ما أذعته على اكثر من مائتين »

أبعد هذا تحدث نفسك بمناوشتى وملاحاتي ، وأنا أملك من أسرار حاضرك وماضيك مايصعب عليك الفرار منه ، ولو اعتصمت بشواهق الجبال ؟!

ثم ماذا ؟

عدت أنا الى الجامعة فى عهد الوزارة السابقة، فهل يستطيع أحد أن يثبت أنى توددت مرة واحدة الى وزير المعارف السابق؟ وأقسم ماعرفت يوما منزل حلمى باشا لافى القاهرة ولافى الريف مع أن أهله من جيران سنتريس ، ولا رأيت الى اليوم وجه عبد الفتاح يحيى باشا ، ولا كتبت سطرا واحدا فى جريدة الشعب أو جريدة الاتحاد

فهل تعرف أنت شيئا من هذه الكرامة يادكتور طه ، وأنت لم تترك حزبا الا خدمته ، ولاجريدة حكومية الا توددت اليها بعدد عديد من الرسائل الطوال ؟!

لقد آن أن تعرف ان هناك فرقا عظيما بين شخصية زكى مبارك وشخصية طه حسين ، وآن لك أن تنزجر وتخشى عواقب التعرض لعداوات الرجال

أكتب هـذا وأنا أعلم أن ستنكمش ، لأن مثلك لا يطغى إلا حين يأمن، فاذا خوفناه خاف !

***

وزير المعارف الجديد

وقد ترامت الينا الأخبار بان الدكتور طه يعتز اليوم بصداقة وزير المعارف الجديد وأنا أعرف أن الاستاذ نجيب الهلالى يعطف على الدكتور طه كل العطف، لأن له أوطاراً لا تقضى إلا باصطناع ذلك الفأر الجبان ، ويسرنى والله أن يتقدم فيؤيد عطفه عليه بوظيفة تريح منه الصحافة ، وتريحه من الصحافة ، فقد كاد يفسد الجو الصحفى إفسادا لا إصلاح بعده، ولم يستطع مطلقا أن يربح من الصحافة مايغنيه عن شكوى الزمان

ولكن طاش سهمك يادكتور طه إن كنت تحسب ان نجيب الهلالى بك لن يكون له هم ولا وسواس إلا أن يتسقط مواقع هواك او يتلمس مساقط رضاك ، إن الوزراء لهم هموم أعلى وأشرف من شفاء أحقاد الموتورين ، وسترى أن نجيب الهلالى أعز على نفسه وعلى حاضره وماضيه من أن يقيم وزنا لوشايات العابثين ، ودسائس الحاقدين ، إن كان فيه شيء من نخوة الرجال

ليس بينى وبين وزير المعارف الجديد صداقة ولا عداوة ، ولو كنت من أعدائه لما خشيت شره ، فلسنا فى القرون الوسطى يادكتور

طه حتى نخاف الوزراء، فكفكف من أوهامك وتذكر أن إنصافك ليس معناه أن يظلم غيرك لتكون وحدك فارس الميدان

ما الذى تصبو اليه يادكتور طه ؟ أتريد أن تعود الى الجامعة ؟ أهلا وسهلا !

ولكن تذكر انك كنت السبب فى تأخر التعليم فى كلية الآداب وأنصح لك إن رجعك اليها الوزير الجديد أن تفهم أنه لا يجوز لأستاذ أن يواجه الطلبة إلا بعد أن يعرف موضوع الدرس. فانت تعرف ماضيك فى التعليم وتعرف جيدا أنك لم تكن بالأستاذ الذى ينفع الطلاب

فان أنكرت هذا الذى أدمغك به ، أو حاولت تجريحى فى صحيفتك السوداء ، فسأكون فى حل من سرد ماأعرف من أساليبك فى الدروس والامتحانات ، وفى بعض ذلك ما يخرسك ، وسيكون ذلك فى رسائل علنية ، لأني أكره الدسائس ، ولا أحب العمل الا فى ضوء النهار . . . افهمت أيها الأحمق الجهول ؟!

يادكتور طه !

أنت اليوم تبحث عمن يردك الى عملك ، فلا يكن سبيلك الى ذلك أن تسعى لايذاء غيرك ، فقد يغضب الله عليك فلا تظفر بقديم ولا جديد

والبغى يصرع أهله والبغى مرتعه وخيم

وسيرى الناس أن العاقبة لمن يعملون فى صدق واخلاص ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٤

الالم والحياة

قرأت فى «البلاغ» فقرة مترجمة جاء فيها أن شارلى شابلن قال :

« إن بعض الناس يدهشون لاصرارى على الظهور فى رواياتي بمظهر الشريد البائس المتألم ، ولكن أليس فى الألم كل معنى الجمال ؟ »

فتذكرت انى قرأت لأناتول فرانس منذ أعوام كلمة نفيسة عن الألم وفضله على الحياة ، فعدت إليه فرأيته يقول ما ترجمته بتصرف يسير :

«بين الوهم الدائم الذى يحيط بنا يبدو شىء واحد محقق : ذلك هو الألم ، وهو حجر الزاوية فى الحياة ، وفوقه قام بناء الانسانية ، وكل شىء ما عداه وهم ، وهو وحده اليقين . . . إننا نعرف أننا تتألم ولا نعرف شيئا غير ذلك، وهنالك القاعدة التى بنى عليها الانسان كل شىء . نعم فوق صخور الألم أقام الانسان صرح الحب والشجاعة والبطولة والرحمة والفضائل والقوانين، ولو انعدم الألم لاسودت تلك الجوانب الجميلة من الحياة وسقطت فى هاوية الفناء ، وعند الانسانية شعور مظلم بضرورة الألم ، ومن أجل ذلك وضعت الحزن بين فضائل الأخيار والقديسين . . فما أسعد الذين يتألمون وما أشقى السعداء ! وقد عاش الانجيل ألفى سنة فى العالم لأنه زفر

بصرخة الألم وأشاد بأحزان البائسين »

وقبل شارلى شابلن وأناتول فرانس كان ألفريد دى ميسيه يقول :

« الألم هو الذى يصيرنا عظماء »

فهل فى ذلك شىء من الحق ؟

الألم أساس النفع وأساس النجاح ومصدر العظمة ، على شرط أن لا يكون نوعا من القلق العليل ، فهناك ناس يستريحون إلى الحزن المبهم ويرون فيه لونا من السلوة والعزاء ، ومثل هذا الألم لا يصل بالمتألمين إلى ربح جزيل .

الألم النافع هوألم الرجال . والرجل قد يتألم ولكنه لايصرخ وكم فى العالم من رجال محزونين ولكنهم لا يفارقون الابتسام وهؤلاء يدركون معاني الحياة ويعرفون طعم السراء والضراء ، وتكويهم المحن والخطوب ، ولكنهم يستكبرون على الجزع والشكاية ، ويرون الناس أصغر وأهون من أن ينتظر منهم الكريم كلمة رثاء

الألم المشروع هو الألم فى الحب : لأنه نوع من العطف والحنان ، وهو كذلك نوع من الاشفاق على الجمال ، والجمال أشقى الموجودات فى العالم مهما استطال أهله ونشروا ألوية العتو والكبرياء فالعاشق يحزن ويتألم ، ولكنه فى ألمه وحزنه قوى متين

أما الألم فى سبيل المجد فرذيلة ، وليس للرجل أن يتألم حين

يفوته الحظ اللائق به ، ولكن عليه أن يحقد ، وهذا هو الموطن الذى أرى الحقد فيه فضيلة ، وحاشا للقارىء أن يظن أنى أدعو إلى الحقد السافل الذى يتسلح به الجبناء والأوغاد، إنما أدعو إلى الحقد الشريف الذى يفرض على أصحابه أن يستعدوا لكبت خصومهم فى ميادين الجد والنضال والكفاح . وهل هناك حظ أطيب وأشرف من أن تشعر خصمك بأنك أقوى منه نفسا وأشد مراسا وأصلب عودا ، إن ذلك لهو الفوز المبين .

١٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

دواعى الشعر[1]

- ١ -

أيها السادة

إن القمر الزاهر الذى يغازل الشعراء كما يغازلونه ، والبحر الزاخر الذى يعجب الأدباء بأمواجه المتلاطمة ، كما يعجب بأفكارهم

(١) مطلع هذا البحث كان فى الأصل خطبة ألقيت فى فندق شبرد سنة ١٩١٨ فى حفلة اقامها طلبة الجامعة المصرية لتكريم أستاذ اللغة الانجليزية ثم رأى الكاتب ان يتابعه فى جريدة الأفكار فى صيف سنة ١٩١٩ وكانت الثورة مشبوبة ، فاشترك السيد حسن القاياتى فى المناقشة وغضب الشاعر احمد نسيم فارسل إلى الكاتب قصيدة هجاء بامضاء (الاخطل) وهذه الرسائل فى جملتها تصور ماكان عليه الشعراء فى ايام الثورة المصرية من النهب والانزواء.

المعجزة ، والروض الضاحك الذى يبسم الكتاب لأزهاره الشائقة كما يبسم لكلماتهم المتناسقة ، تلك الظواهر الطبيعية التى تبعث على الشعر ، وتدعو إليه ، هى هى فى كل قطر ، وفى عينى كل كاتب ، وفؤاد كل شاعر : وذلك ما أوجد التشابه فى خيالات الشعراء ، وأفكار الكتاب ، وجعل الفرق غير بعيد بين قديم الشعر وحديثه ، وطارف النثر وتليده ، فاذا قال قائل : إن العقل البشرى سائر نحو الارتقاء في كل سبيل إلا من حيث الخيال الشعرى ، فاعلم أن ذلك ليس لعجز فى القوى البشرية ، أو تقصير من الشعراء أنفسهم ، إنما كان ذلك لأن دواعى الشعر خلقت مع الانسان يوم خلقه ، بل قبل أن يخلق بأجيال ، فلا بدع إذاً أن يظل امرؤ القيس شاعر العرب وهوميروس شاعر اليونان ، وإن طال العهد وبعد الأمد ، ولا كذلك ما عدا الشعر من الفنون والصناعات . فان موجباتها خلقت مع الحوادث شيئا فشيئا ، ولا تزال ؛ فليس عجيبا بعدئذ أن يقف الشعر أو يسير سيرا هادئا فى حين أن باقى الفنون تسابق الظل ، وتجارى الريح فى السير نحو الكمال .

تلك أيها السادة : علالة المتعلل وحجة الضعيف المغلوب ، وكيف تكون دواعى الشعر بالأمس هى نفسها دواعيه اليوم ؟ نعم إن السماء ما زالت كهيئتها يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن البحار مازالت زاخرة عجاجة على نحو من العظمة والجلال يتشابه أوله مع آخره ، وإن الرياض ما زالت تلبس فى الحاضر أثوابها فى

الماضى ، ولكن هل ينبغى أن يكون شاعر اليوم كشاعر الأمس ؟
كلا والله فان الناس من قبل كانوا ينظرون إلى السماء من بعد ؛
فأصبحوا يتبينون خفاياها بالمراصد ، وكانوا يعجبون بالبحر وهم
وقوف على شاطئه ، فأصبحوا اليوم يخوضون أحشاءه ويسبرون
أغواره ، وكانوا ينعمون بالرياض وهى حسناء مهلهلة الثياب
فأصبحوا يلهون بها عذراء غضة

« تأود تحت الحلى فى الحلل الخضر »

فهل يليق بشاعر بعد ذلك أن يقنع بما يمده به خاطره من المعانى
القديمة ، والخواطر العهيدة ؟ هذا والله ضعف وانحطاط

فلا تكثروا ذكر الزمان الذى مضى
فذلك عصر قد تقضى ، وذا عصر

وما أشبه حالنا مع من تقدمنا من الشعراء إلا بشاعر عاشق رأى
فى النوم طيف حبيبه فأصبح وقد ملأ الدنيا غزلا ونسيبا ، فلما أتيح
له أن يراه رأى العين أفحم ، وكذلك رأى أسلافنا ظواهر الطبيعة
فقالوا وأبدعوا ، ووقفنا نحن على حقيقة الكون وأسرار الوجود
ولكن لم نشعر كأن لم نشعر !

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فقل

إلا أنه اذا كانت تلك الظواهر الطبيعية هى الينبوع الأول الذى
تتفجر منه الخيالات الشعرية والمعانى الأدبية ، فان الشاعرية لتزداد
بالنظر فيما ترك الشعراء والكتاب من بديع الشعر ، وطريف النثر

فان فيماترك أولئك الكرام الكاتبون لجنات وأنهارا،وشموساوأقمارا
توحى الى المرء من ساحر الخيال ، وفاتن القول ، ماتعجز عن مثله
الأنهار الجارية ، والرياض الحالية،والسماء الصافية، وإذاعرفنا حاجتنا
الى النظر فيما ترك الشعراء والكتاب فلا بد أن نعرف أيضا أن
ذلك لايختص بأمة دون أمة ، أو إقليم دون إقليم .

وإن الذى يريد أن يتكمل فى الشعر والأدب يجب أن ينظر
فيما ترك الأدباء فى مشارق الأرض ومغاربها ، من الآثار الأدبيه
والطرائق العلمية . إذ كما لايمكن للرجل الواحد أن يخترع علما ثم
يكون أول الناس وآخرهم فيه ، فكذلك لايمكن لأمة واحدة أن تقوم
بحاجة البشر فى فن من الفنون ولاسيما فى الآداب التى هى خلاصة
الأفكار ونتيجة الخواطر . لذلك رأى رجال الجامعة المصرية ، وهم
من نعرف فى بعد النظر ، وأصالة الرأى ، أن تدرس آداب اللغة
الانجليزية والفرنسوية ، بجانب آداب اللغة العربية . فكان ذلك
فضلا الى فضل ، وأدبا الى أدب . وإذا لاحظنا أن أدباء الانجليز
من أحرص الناس على العلم والأدب وأعلمهم بلغات الأمم وآدابهم
وأشدهم عناية بتقييد الأوابد ، وضم الشوارد ، وأكثرهم ضربا فى
الأرض ، وسيرا فى الأقطار ، وأكثرهم تعرفا لأحوال الناس على
اختلاف طبقاتهم وتباين أشكالهم ، إذا لاحظنا كل ذلك عرفنا أن
آداب اللغة الانجليزية انما هى خلاصة آداب الأمم ، إذ كانت نتيجة
التجارب العديدة ، والمشاهدات المختلفة ، فى أكثر بقاع الأرض

وأغلب أنحاء المعمورة . وكذلك يكون العارف بآداب هذه اللغة عارفا بآداب أمم عدة لا أمة واحدة . وإذا لاحظنا أيضا أن آداب اللغة العربية إنما هى آداب أمم مختلفة جمعها الدين وألف بينها الاسلام كما أن آداب اللغة الانجليزية آداب أمم شتى؛ عرفنا أن العارف بآداب اللغتين العربية والانجليزية من أغزر الناس مادة فى الأدب وأرسخهم قدما فى عالم الشعر . فهنيئا لاخواننا الذين تمكنوا من آداب لغتهم العربية ثم تكملوا بآداب اللغة الانجليزية ، فشربوا من الكأسين، وتحلوا بالفضيلتين ، والسلام

— ٢ —

ألقيت خطبة فى فندق شبرد تكريما للمستر ورتهام أستاذ آداب اللغة الانجليزية ، فى الجامعة المصرية ، رددت فيها على القائلين بوقوف الحركة الشعرية ، لوجود الدواعى متماثلة متشابهة فى كل العصور ، ووازنت بين دواعى الشعر بالأمس ودواعيه اليوم ، وأنحيت باللائمة على الشعراء الجامدين ، الذين لايزالون يترسمون خطوات من سبق وهم عن الجديد معرضون

غير انى نظرت الى تلك الدواعى من الوجهة الطريفة ، فجعلتها فى الرياض الزاهرة ، والبحار الزاخرة ، وفى البدور الطوالع ، والشموس السواطع ، وأضفت الى ذلك مايكتسبه الفكر من النظر فى الآداب الأجنبية التى قد تزيد أدبنا وضوحا وبيانا ، إذا عرفنا أن

الناس من نفس واحدة ، وأنهم يسعون إلى غرض واحد : وهو فهم حقيقة الكون والثناء على الله

واليوم أقول : إن تلك الدواعى السالفة انما هى لقوم بلغوا من الحضارة والرقى ما يسمح لهم بالتفكير فى الجمال ، والتفنن فى وصف غرائبه ، من الظباء النوافر ، والحسان الأوانس ، ورأوا من قومهم نفوسا عاشقة لطرائف الحسن ، وقلوبا تائقة لبدائع الشعر ، فقالوا فى وصف الرياض والأزهار والبحار والأنهار ، والقصور المشيدة ، والصروح الممردة ، وخاطبوا النفوس الناعمة ، والقلوب الوادعة ، وانتقلوا من عالم الحس إلى عالم الخيال ، فوصفوا أحلامهم اللذيذة وآمالهم الحلوة ، الى غير ذلك مما يجد فى قلوب أهل السعة ونفوس أهل الرغد ، ميدانا يمرح فيه ، وروضا يأنس به ، وكذلك نفوس الشعراء ، فى أيام الرخاء

أما دواعى الشعر فى هذا البلد ، وفى هذه الأيام ، فهى غير أسبابه تلك ، لما ترى من الفرق الظاهر بين عامتنا وخاصتنا ، وقلما يتغنى الخاصة بالشعر ، إن لم تصغ العامة إليهم ، ويفتحوا لهم آذانهم وقلوبهم

وهل يطرب الناس للشعر وهو يصف مالا يحسون به ، ويتحدث عما لم يستطيعوا إليه السبيل !!

ولقد كان عجبا عند الشاعر حافظ إبراهيم أن يجيد العرب وصف الناقة وهى تلك المركب الصعب ، ولا نجيد نحن وصف ذلك المركب

الذلول (الأوتومبيل) ولو لحظ أن الشاعر العربى ما أطنب فى وصف
الناقة إلا لأنها كل شىء عنده ، ولأن أهله ورفاقه يعرفون من صفتها
مايعرف لعلم أن السر فى عجزنا عن وصف الأتومبيل ، ليس هو
ضيق اللغة كما زعم ، بل لأننا ننظر الى هذه المخترعات فى الأرض
كأننا ننظر إلى الشمس فى السماء .

مالنا ووصف هذه البدائع الفتانة والنفائس الخلابة ، ونحن لا ننعم
بها ، ولا شىء فيها من صنع أيدينا ؟ إذن فلنترك وصفها وتقريظها
لشعراء الغرب أولئك الذين يجدون من السرور بركوبها ما كان
يجده العربى وقد علا ظهر البعير البازل ، أو تسنم الناقة الهوجاء .

وقد كان أستاذنا الشيخ محمد المهدى يقول وهو يتحدث عما أبدع
الشعراء فى وصف الشمعة : لا أدرى ماكانت تكون حالهم لو شاهدوا
غرائب هذه الأيام ؟ إنى لا أشك فى أنهم كانوا يجيدون .

وليسمح لى أستاذى أن أقول : إنهم لو عاشوا إلى عصرنا
لعجزوا عجزنا فان الأمر كما قيل :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ، ولكن الرماح اجرت

وكما قال ابن الزيات :

لك أن تبدى لنا حسنا ولنا أن نعمل الحدقا

فان قومنا لم يفكروا فى مجاراة الأمم المولعة بأعاجيب الصناعة
حتى نجاريهم فى أفانين البلاغة

وإنا لجديرون بأن ننشط الى الافتنان والابتداع ، إن نشطوا الى

الابتكار والاختراع ، وإلا فليلوموا أنفسهم إن كانوا منصفين

—٣—

قل لى بربك ، ماأنت صانع لو زرت الأهرام ، وكنت ممن رزقوا الشعر الفصيح ، والخيال البديع : أتغرب فى وصفها بالوسامة الشاملة والقسامة الكاملة ، وتتغنى بارتفاعها الباهر ، واتساعها النادر. فتسلك سبيل الفاهمين من أهل مصر القديمة ، والغافلين من أهل مصر الحديثة أم أنت سالك غير تلك السبيل ، وخائض فى غير ذاك الحديث

مازلت أسمع الشعراء من حولى يتغنون بالحضارة القديمة ، ويشيدون بذكر الفراعنة ، ويلهجون بمجد العرب ، كأن مصر مازالت سيدة العالم وكأن رجالها مازالوا خير الرجال، وكأن العرب مازالوا سادة المشرقين وقادة المغربين ! قاتلكم الله ! تضحكون فى موضع البكاء ، وتفرحون فى موقف الحزن ، ولو كانت لكم ضمائر شاعرة ، وبصائر ناظرة ، لبكيتم مع الباكين ، ونحتم مع النائحين، فقد ذلت هذه الآثار بذلكم ، وضعفت بضعفكم ؛ وأضحى هرم خوفو

كأن الصبا توفى نذورا إذا انبرت
تراوحه أذيالها وتباكره

لقد كثر شعراء مصر ، وتوفروا على معنى واحد ، كما تكثر الأشجار فى بقعة واحدة ، فيأكل بعضها بعضا ثم لا تزهر ولا تثمر! وقصارى أحدهم أن يفتخر بأنه مصرى أو عربى ، يريد أنه من

بقايا الفراعنة ، أو من سلالة الأقيال

أهؤلاء الجبناء ، الذين يخافون ظلهم ، ويهابون طيفهم ، من ذرية أولئك الذين أخضعوا الأرض وهموا بمحاولة السماء ، فحاربوا الناس تارة ونازعوا الآلهة تارة أخرى ؟

أهؤلاء من سلالة ذلك الذى قال : ياهامان ! ابن لى صرحا ، لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى

تعالى الله فى سمائه ! وكفر فرعون وهامان ! ولكن أليس من العجب أن ينتسب هؤلاء الأصاغر إلى أولئك الأكابر ، وهم أذل من قراد بمنسم ، وأضيع من الأيتام على مائدة اللئام

ولقد يذكرون ان المأمون قال لوزرائه يوم زار اهرام مصر : إنها مبان جليلة ، ومنازل شامخة ، ولكنها لا تستحق أن يحاول صاحبها السماء لينازع الاله . فقال له بعضهم : ياامير المؤمنين إن الله يقول : (ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)

فاذا كانت هذه بقايا ما دمر ، فكيف كانت تلك العروش فبهت المأمون وسكت

يقولون إن الولد سر أبيه . فما بال أبناء النيل فى ذلة ، واحفاد العرب فى ضعة ؟

ايستطيع احد من شعرائنا الآن ان يقول كما قال قيس ابن الحطيم :

وكنت امرءاً لاأسمع الدهر سبة أسب بها إلا كشفت غطاءها

فانى فى الحرب الضروس موكل باقدام نفس ما أريد بقاءها
متى يأت هذا الموت لا تلف حاجة لنفسى إلا قد قضيت قضاءها

إذن فكيف يجرؤ هؤلاء أن ينتسبوا إلى العرب ، أو ينتموا إلى الفراعنة ؛ وهم ما يحسنون غير التهنئة بمولود ، أو التعزية بمفقود، كأنهم ما خلقوا إلا ليبكوا مع الباكين ، أو يضحكوا مع الضاحكين ؟ ؟

اين شعراء الوطنية ؟ ؛ اين عشاق الحرية ؛ !

فهذا أوان الشعر سلت سهامه معابلها والمرهفات السلاجم

لقد مات منهم من مات ، واغترب من اغترب ، وبقى جماعة يقلون عند الفزع ، ويكثرون عند الطمع

رضوا بصفات ماعدموه جهلا وحسن القول من حسن الفعال

— ٤ —

يكتب صاحب العزة على بك فهمى كامل مقالات شائقة تحت عنوان « لو كنا مستقلين » جاء فى اولها قوله : « لو كنا مستقلين لعم العلم الديار ، وراجت الصناعة فى كل الأمصار ، وحل اليسر محل البوار ، واصبح المصرى فى كل مكان يشار إليه باطراف البنان »

وانا اضيف إلى كلماته الجملة الآتية : لو كنا مستقلين لكثر شعراء الحماسة ، وقل شعراء الخلاعة ، ولعادت للشعر مواقفه المشهودة ، ومشاهده المعروفة ، يوم كان بيت يبعث الحرب ،

وقصيدة ترجع السلام !

ويقول الكاتب مصطفى المنفلوطى فى مقدمة مختاراته :
(وأحسب ان ما يتعلق من الشعر بالحماسة ووصف الحروب واسلحتها ودمائها وغبارها واشلائها هو آخر ما يحتاج إليه المتأدب فى هذا العصر)

ومعنى ذلك ان عصر البطولة قد مات ؛ وزمن الرجولة قد باد، ولم يبق إلا أن يلبس الشعراء اثواب الندماء ، فيقضون الليل فى خمر ، والنهار فى خمار

ولست ألوم المنفلوطى على أن جعل مختاراته خلوا من الحماسة ولا أعذل الشعراء على ما فرطوا فى جنب البطولة فان ذلك نتيجة الاستعباد ؛ وعاقبة الاسترقاق

وكيف يتوفر على الشعر الحماسى شعب يرى أنه غير مكلف بالدفع عن بلاده ، والذود عن حياضه ، ام كيف يتمدح بالشجاعة من يوصف بالطيش إن أقدم ، وبالحزم إن أحجم ؟

ولقد كثرت احاديث الناس عن فتوى الشيخ بخيت ضد البلشفية ، وفاتهم ان هذا أثر من آثار التبتل الذى جنته علينا الذلة ، ورمانا به الهوان

والذى يتأمل ماكان من فتوى الشيخ يعلم أنه تأثر بالحكمة القائلة إن العاقل لا يرضى لنفسه إلا ان يكون مع الملوك مكرما او مع

الزهاد متنسكا ، وأنه رضى لنفسه حظ ديوجين الكلبي

ولقد ساءه أن ينفرد الحلفاء بمحاربة البلشفية ، وان لا يكون لمصر حظ فى دفع هذا البلاء ، فرمى بفتواه فى صدر هذا المذهب الجديد ليعود وهو صريع

والذى نعرفه من قوة فتاوى الأستاذ ومن حججه الدامغة أن تلك الفتوى كانت جديرة بمحو البلشفية ، لو انها صادفت قلوبا كقلوب المصريين الذين يبجلون الشيخ ويعظمونه ، ولكنها نشرت بين قوم ينكرون مصر وعلماء مصر ، ويعدونهم من سقط المتاع

وإني لأخشى أن يصبح علماؤنا وما يعرفون غير السبحة والسواك

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن إساءة اهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

كما أخشى ان يصبح شعراؤنا وما يحسنون غير الهزل ، ولا يجيدون سوى المجون

— ٥ —

فى مصر اليوم جماعة من الشعراء ، تغنوا كثيراً فى الليالى الخوالى يوم كان الناس يسمرون فى المنازل ، ويسهرون فى البيوت ، وكان الرجل يعرف بالشعر ، ويوصف بالأدب ، لبيت يقوله فى تحية رب القصر ، او تكريم السامرين ، وربما وصف بالعبقرية لطرفة ينسبها

إلى دعبل ، او حديث ينقله عن أبى نواس

ثم قضى الله ان يرسل إلى بعض القلوب رسول الوطنية فانتقل الشعر من الخصوصيات إلى العموميات، إلا ان الشعراء كانوا مع ذلك مقيدين بقيود من الرياء ، فكان حافظ إبراهيم لا يطرب للشعر ، ولا يخف له ، إلا بحضرة الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكان احمد نسيم يمزج وطنياته بمدح محمد ابراهيم هلال ، وكان شوقى يشوبها بمدح صاحب السمو أمير البلاد ، وكنت لا تسمع للشعراء شيئا غير ما يدعون اليه يوم الاحتفال بفتح مدرسة ، او تشييد معهد ، (او فتح باركا فعل فلان) إلى غير ذلك مما يساق اليه الشعراء سوقا بدافع الشهرة ، او دافع المال

وكانت الأحزاب قد كثرت فى مصر : فكان لكل حزب شاعر ولكل شاعر اشياع ، فتنافرت الآراء ، وتناكرت الأهواء ، إذ كان الشعراء يستمدون وحيهم من سادتهم وكبرائهم ، وكان سادتهم منشقين مختلفين ، فكانوا يضلونهم سواء السبيل

ثم شب جماعة آخرون لم يقدر لهم ان ينتموا إلى بعض الأحزاب فرضوا بالخمول ، واكتفوا من الشعر بأبيات يقولونها فى الوصف ، او نتف يجيدونها فى النسيب ، وربما التفتوا إلى ما ينعم به إخوانهم من السعة فى العيش ، والبسطة فى الجاه ، فأخذوا فى شكوى الدهر وتأنيب الزمن ووصفوا الأدب بأنه رفيق الفقر وحليف المسكنة ، وكان بجانب هؤلاء جميعا جماعة من النقاد ينقدون اللفظ والمعنى

ويعرضون عن النحلة والمذهب ، فكنت تقرأ ما يكتبه الشيخ طه حسين فى نقد حافظ : فتراه جملة من المذاهب النحوية ، والمباحث اللغوية ، وربما رأيت طائفة من ألفاظ السباب فى خلال تلك السطور وضعها الكاتب حلية لبحثه ، وزينة لنقده ، وكان الويل كل الويل لمن يغفل عن ترضية اولئك الناقدين فيمسى وهو مقذوف

وكذلك كان الشعراء يأخذون طرائق التفكير عن الأحزاب ومسالك التعبير عن النقاد ، ولم يكونوا فى انفسهم شيئا مذكورا

ثم كان ما كان من الحوادث التى شتتت شمل الجميع . فخفت كثير من أصوات اهل النقد والسياسة ، وعاد الشعراء إلى السكون

ألا إننا فى حاجة إلى شعراء ينظرون بعيونهم ، ويسمعون بآذانهم ، ويفقهون بقلوبهم ، فهل نحن واجدون ؟

— ٦ —

قرأنا (دواء الشعر) فاذا بصاحبها الأستاذ زكى مبارك قد نال من شعراء العصر شديدا ، وطأطأ من كرامتهم ما شاء ، حتى كاد يبتعث الحفائظ ويوغر القلوب . فقد جاء فيها عن الشعراء حيث يهتف بهم قوله : « قاتلكم الله ! تضحكون فى موضع البكاء ، وتفرحون فى موقف الحزن ، ولو كانت لكم ضمائر شاعرة ، وبصائر ناظرة ، لبكيتم مع الباكين ، ونحتم مع النائحين ، فقد ذلت هذه الآثار بذلكم وضعفت بضعفكم »

وجاء فى موضع ثان منها قوله : « لقد كثر شعراء مصر ، وتوفروا على معنى واحد ، كما تكثر الأشجار فى بقعة واحدة فيأكل بعضها بعضا ، ثم لا تزهر ولا تثمر » وقال فى غير هذين الموضوعين « أهؤلاء الجبناء » وجاء فى محل ثان قوله « لقد مات منهم من مات ، واغترب من اغترب ، وبقى جماعة يقلون عند الفزع ويكثرون عند الطمع »

لشد ما نال الأستاذ من الشعراء ، وغلا فى الازدراء بهم ، على ان هذا ليس من النقد فى شىء

إنا لنطالب الأستاذ جد المطالبة ، ونأخذه أخذا شديدا ، بأن يخرج بالمعذرة من تلك البادرة ، وذلك اكبر الظن بأدبه ؛ والعهد به ، والسلام

حسن القاياتى

— ٧ —

قرأت ما كتبه الأستاذ السيد حسن القاياتى عن (دواعى الشعر) فحمدت له غيرته على إخوانه الشعراء ، ورفقائه الأدباء ، وسرنى أن كان اول الذائدين عن حياضهم ، والرافعين للوائهم ، فكان كما قال الشاعر :

لو كان فى الألف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا

ثم عجبت ، وحق لى ان اعجب ، من رغبته فى أن أعتذر

وهل أذنبت يا صاح ؟

ألزمتنى الذنب الذى جئته   صدقت ! فاصفح أيها المذنب

لا تنس ياصديقى أن كرامة الوطن فوق كرامة الأدب ، وأن الشعر وسيلة لا غاية ، وأننا جميعا نسعى إلى غرض واحد هو تحرير البلاد

فمن كان اكثر الناس إشادة بذكر الحرية وتغنيا بالاستقلال فهو شاعرنا المفلق ، وكاتبنا المبدع ، وإن كان شعره منحل العقد ، ونثره مختل البناء

انت شاعر ، ولكن فى أى عصر ؟ فى العصر الذى قلت فيه :

كأن وساما يعتلى صدر جاهل   جنى من الريحان يحمله قبر

وحافظ شاعر ، ولكن فى أى زمن ؟ فى الزمن الذى قال فيه :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت   حواشيه حتى بات ظلما منظما

كنتم شعراء يوم كانت قصائدكم تهيم فى كل واد ومعانيكم تدب فى كل قلب ، ويوم كان الطلاب فى مدارسهم والعمال فى مصانعهم يشيدون بذكركم النابه ويتغنون بشعركم الجميل

فأما اليوم وقد جنحتم إلى السكون وركنتم إلى الهدوء ، وهجعت منكم تلك البراكين الثائرة ، وتوارت تلك الشموس الباهرة ، وأخليتم الميدان لكل مجر بالخلاء ، ومستأسد بالعراء ، ثم طويتم اللواء ، وفررتم من الهيجاء ، فانا ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، وكما تركتم الأدعياء يصدعون الرؤوس ، ويزهقون النفوس ، يغتصبون الشهرة

اغتصابا ، ويستلبون المجد استلابا ،كأن ليست للنقد عين ساهرة ، وكأنكم لا تسمعون

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد

يجب أن تعتذر أنت ياصديق وأن يستغفر إخوانك فقد فرطتم فى جنب الوطن ونسيتم حق البلاد

أين الشعراء ؟ أين الأدباء ؟ إنى والله

أودهم وداً إذا خامر الحشا   أضاء على الأضلاع والليل دامس

ولكن ما العمل ؟ والدهر عابس ، والوقت عصيب ، ويكاد المرء ينسى أباه إن خذله ، ويهجر أخاه إن خلاه ، فهل بقى فى قوس الصبر منزع ، أو عادت للرجاء بقية، وهذا البلاء يتطاير من كل جانب والأمل ينهار فى كل واد ؟ ؟ !!

ياصديق إن شموخ الأهرام ، وجلال النيل ، وجمال مصر ، وما إلى ذلك من المعاني التى أوحت اليك وإلى إخوانك الشعر تتطلع اليكم بعين كلها أمل وقلب ملؤه الرجاء ، فهل فيكم اليوم من مسعد أو هل لديكم من معين ؟ ؟

واحر قلباه !!

— ٨ —

عاتبنا الأستاذ زكى مبارك على نبوة كانت منه إلى الشعراء ، وهنات اعتمدهم بها فى مقاله « دواعى الشعر » : وأخذناه بأن

ينزل على حكم الحق من بذل المعذرة ، وإعطاء النصف من نفسه ؛ فاعتبنا فى الأفكار بكلمة جافية حديدة كأنها الكأس الأولى ، لولا ما يلطفها به من مزاج التودد والازدلاف إلى ناحية من المرضاة ؛ فسامحنا فيما أوحش منها لما آنس ، واغتفرنا ما أحفظ لما أرضى ، فكانت كأسا شربناها على قذاتها ، وعتبى صديق تقبلناها على علاتها . فلم نكد نقول : آهاً منه ! : حتى قلنا : واهاً له

ومن لك يوما بأخيك كله !

لاذ الأستاذ منا بالوطن : فذكر بحقوقه ، وأرى من نفسه بحق أن غضبته للوطن كانت ، ومحاماته ونضحه إنما كانا حمية له ، وأنه زرى على الشعراء لتفريطهم فى جانبه ، ونومهم عنه فيما يقول

مهلا قليلا أيها المذكر بالوطن وحقه ، فما ذكرت ناسيا ، ولا نبهت غافلا ، إن بنا من الوجد على ذلك الوطن والحدب عليه . مثل ما بك ، غلة تحرق ، وجوى يؤرق

وتلك طريق لست فيها بأوحد

ذلك حق كله . ولكنك تعلم أننا قد غشيتنا غاشية ، ودهمتنا حال تركت إفصاحنا فى التوجع ، وبياننا فى التفجع ، كبيان الطير تهفو إلى وطن ، وحنين الابل تغدو الى عطن

شجو حزين ، ومنطق لا يبين

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

شاهدى على ذلك مقالك أنت . ألست القائل آنفا : « ولكن

ما العمل والدهر عابس ، والوقت عصيب »

على أن أحدنا لايزال يرفع صوته فى الفينة بعد الفينة ، بالكلمة كأنها دمعة يتيم ، وعبرة مهجور ، ينطق بها الحنا ، ويرسلها فى حذار ورقبة ، ثم يجس على أثرها رأسه ، هل طار عن جسده ؟

أترى نعيش إلى انطلاق الألسن ؟

مابالك أيها الأستاذ تشركنا فى العمل وتفردنا بالتعجب ، كما يقولون :

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها :

إن لك بيانا ولسانا ، فأين الذى لهما من أثر فى هذه الآونة ؟ إن قلت قلنا ، وإن سكت سكتنا ، وليس بنا أن نجحد فضلك !

لقد هجت عجبا،وأحدثت طربا ، حيث تقول « فمن كان أكثر الناس إشادة بذكر الحرية ، وتغنيا بالاستقلال ، فهو شاعرنا المفلق وكاتبنا المبدع وإن كان شعره منحل العقد ونثره مختل البناء »

إن للغربان والضفادع أوطانا ، وفى الحق أن يذود كل ذى وطن عن وطنه ، بيد أنه ليس بحسن ولا جميـل نعيب الغربان ونقيق الضفـادع !! أكل صائحة تطربك أيها الأستاذ ؟ رويداً لا يسمعك الأدعياء والمتشاعرون، فتملأها علينا نعيباونقيقا ! لا والله لايحسن الذياد عن الوطن ولا النضح عنه حتى يكون قولا عليه مسحة السحر وله أخذ كأخذ النفث فى العقد ، ينزل على حكمه العصى ويصحب الجموح ! أين أنت من البلابل المغردة والطيور الساجعة ، أمثـال

كتاب (الأفكار) ولا أمثال لهم ؟!

عد عن ذا ، كما يقول الشعراء ، وتعال إلى حديث بشاشة واحسان بعد حديث عتب وإعتاب لقد علمت أن جريدة الأفكار أندى الجرائد صوتا بالحق ، وأرحبها صدرا للحرية ، فبعثت اليها بكلمة طريفة في سبيل الوطن ، وأكبر ظنى أن رئيس تحريرها النبيل متفضل بنشرها فان نشرت فلن تمترى ، إن كنت من الممترين ، فى أن الشعراء يفون لوطنهم بعض الوفاء وأن لهم قلوبا ترعى كرامة الوطن ، وكرامة الأدب ، ولعلك تقول مكان ، واحر قلباه ! ، واطرباه ! والسلام

حسن القاياتى

— ٩ —

لقد سبقت كلمتنا فى إعتاب السيد حسن القاياتي ، وكنا حسبناه أكبر ما شرحناه ، إجلالا للوطنية ، وأحمد ما كتبناه ، إعظاما للحرية فاذا به يدأب فى العتب ، ويصر على المحاسبة ، كأن ليس لنا عنده من عذر وكأن الشعراء ليسوا بخاطئين

أراد السيد حسن أن يعتذر عن إخوانه الشعراء ، وأن يغسل عنهم عار الكسل والخمول ، فذكر من عنت الدهر ، وريب الزمن ، ماظنه شافعا فى سكوتهم ، مبررا لجمودهم ، كأن فى ضم الفكرة إلى مثلها ، ووضع البيت بجانب البيت ، شيئا من التجمهر يأباه القانون ونوعا من المظاهرة تحاربه السلطة ، وكأن القصيدة ذات القوافى

الكثيرة ، والفكر العديدة ، شبيهة بالعصبة تجمع فى طريق واحد ، لغرض واحد ، وكأن الشاعر الشاكى الخيال ، شبيه بالثائر الشاكى السلاح .

قد يكون الشعر الباهر ، كالسيف القاهر ، وقد تكون القصائد البارعة ، كالقنابل الرادعة ،وقد يتهيب جانب الشاعر، فوق ما يتهيب جانب الفارس ، فيكون من كل هذا عذر لاخواننا الشعراء ،ورفقائنا الأدباء، ويكون سكوتهم من الجبن أبعد ، وإلى الحزم أقرب

.ولكن ألا يحب صديقى السيد حسن أن يكون لعصرنا من طريف الاستعارات ، وحديث المجازات ، ما يرفع ذكرنا فى الأواخر ويلحقنا بالأوائل ، ممن لبسوا الكل حالة لبوسها فصرحوا تارة،ولحوا أخرى، ونالوا بالمثل الخرافى ، مالم ينالوا بالشعر الحماسى ، فكانوا بقومهم ناهضين ، ولأعدائهم قاتلين ؟

فهبنى اعتذرت عما نسبت اليهم من الجبن، ورجعت عما وصفتهم به من الخوف ، أتراني لا أنعتهم بضيق الحيلة ، وضعف الوسيلة ، وأنهم لا يعرفون من القول إلا أظهره ، ومن الشعر إلا أشهره ، وأن مقاتلهم بادية ، ومطاعنهم ظاهرة ، حتى لاسلامة لحياتهم ، إلا بسكوتهم ، ولا داعى لحتفهم غير نطقهم

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية النهر

لعلك ياصديقى تذكر ما فعل الأعرابى الأسير ، ولعلك تذكر ما أرسل الرجل مع عبديه ، إلى طفلتيه ، وما قال القبعثرى للحجاج

وما أجاب به عبد المسيح خالد بن الوليد . ثم لعلك ولعلك . .

أتريد ياصديق أن لاتكون لنا شخصية معروفة ، وأن لا يعثر القارىء فى الآداب العربية على طرفة أبدعناها ، أو بدعة أحدثناها ، كأن القول لايخرج من التصريح ، إلى التلميح . وكأن الزمن لم يلجئنا إلى الاشارة بعد العبارة . أو كأننا لا نعرف مقامات الكلام ، ومقتضيات الخصام .

لك ياصديق أن تعتذر عن إخوانك . وعلى أن أشكر لك هذه الغيرة . ولكن حذار أن تظن أنا عملنا كل مايمكن ، وفعلنا كل ما يستطاع .

ولقد عجبت من قولك (ان لك بيانا ولسانا ، فان قلت قلنا ، وان سكت سكتنا) كأنك تحسبنى لا ألوم نفسى

ألا فلتعلم وليعلم إخوانك ، أن التبعة واقعة على وعليكم ، وأننا جميعاً فى جنب الوطن مفرطون ، ولمجد النيل ناسون

ما أنصفتك جفونى وهى دامية ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

*

الحديد فى دم الاديب[1]

فى أخبار الأدب الفرنسى أن أديبا كان يكتب كل يوم قصة ويرسلها إلى إحدى الجرائد ، وكان يتمنى فى كل صباح أن تنشر له قصة فيأخذ عليها أجرا ينتفع به فى معاشه ، ولكن الجريدة التى كان يرسل إليها أقاصيصه لم تنشر له شيئا ، وكذلك كان يستقبل كل صباح بأمل خائب وإحساس مطعون

واتفق له يوما أن يتأمل أحوال البيت الذى يعيش فيه فوقف على أخبار طفل يتيم دمعت له عيناه ، فكتب فيه أقصوصة سماها « اليتيم » وأرسلها إلى تلك الجريدة التى أهملت كل ما كتب، وكان يخشى أن تنال تلك الأقصوصة مانالت أخواتها السوالف من الاهمال ثم فوجىء بظهور تلك الأقصوصة فى صباح اليوم التالى ، وما كاد ينتهى من مراجعة الجريدة حتى جاءه خطاب فيه صك بمبلغ من المال مكافأة على قصته ، وفى الخطاب فوق هذا كلمات من طيب الثناء

وأراد ذلك الأديب أن يحاسب نفسه وأن يقارن بين ما كتب بالأمس وما كتب اليوم ، فرأى أن أقاصيص الأمس كانت من وحى الخيال ، أما قصة اليوم فكانت من وحى الحياة ،وهذا هو السر فيما ظفرت به من كريم القبول

(١) فصل من كتاب « أكواب الشهد والعلقم »

ولكم بعد هذا أن تراجعوا حظوظ من عرفتم من الأدباء ، فسترون أن أبلغهم أثرا فى أنفس الجماهير، وأقدرهم على أسر القلوب وغزو العقول ، وامتلاك النفوس ، هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة بصنوف الأرزاء ، وعرفوا كيف تقسو الدنيا وكيف تلين ، أولئك هم الذين يكتبون وفى كل حرف سر ظاهر أو غرض دفين

أما الأدباء المدللون الذين حبتهم الدنيا بألوان من الترف والنعيم فهم ينظمون ويكتبون وكأنهم يلعبون ، وليس للألاعيب فى عالم الأدب بقاء

الحياة هى كتاب الأديب ، ومن حظه أن يعرف البؤس والشقاء وأن يدرك كيف يكون الضجر والاكتئاب ، وأن يشهد بعينيه كيف يرتفع السفلة والأغبياء، وكيف يطيش الحظ الأهوج فيظلل بجناحيه رءوس الممرورين من أهل الجاه المزيف والمجد المكذوب

إن أراجيف المرجفين ، وأكاذيب المضللين ، وتنسك الماجنين وتعالم الجاهلين ، واستنسار البغاث، واستذآب الكلاب، واستبسال الجبناء ،كل أولئك مما يؤرث نيران الحقد فى صدر الأديب الموهوب ويحوله إلى طاغية غشوم يبطش بأهل الكذب والرياء والنفاق

والأديب الذى يتهيب الحياة ويخاف مجاهلها هو أديب رخو ضعيف ليس أهلا لمجد القلم ولا شرف البيان

الأدب الصادق ليس إلا حومة قتال ، ولكن أى قتال ؟ قتال فى سبيل الحق والخير والجمال . والحياة لم تكن يوما دار سلام ،

إنما السلام فى المقابر ، فمن شاء أن يستريح فليمت ، أما الأحياء فقد كتب عليهم أن يناضلوا ويقاتلوا ويصاولوا ما بقى فيهم عرق ينبض وقلب يثور ، فان جنحوا للسلم فقد استسلموا إلى سكرات الموت ، وبئس المصير !

أتفهمون هـذا ياطلاب الأدب الفحل الذى يحطم الأسداد ويهدم الحصون ؟

خذوا وحيكم من الحياة ياطلاب الأدب ، وتذكروا دائما أن وقود عقولكم وقلوبكم لايكون إلا من الألم ومن الصدق ، فان أعوزكم هذان العنصران فلن تصلوا إلى شيء ، وهل يصل الوادعون والكاذبون إلى حظ أفضل من حظ السيد فلان؟ إنه حظ لا أشتريه بخمسة قروش وإن بهركم ما يملك من الجاه ومن المال !

الأدب الصادق هو الذى يحمى صاحبه من بريق الزيف والبهرج ، ويصونه من الخضوع لأرباب الألقاب ، ويقنعه بأن المجد الحق لا يكون إلا فى ظلال الشهامة والصدق ، وشرف القول والفعل ، وطهارة القلب والوجدان

وأديب واحد بهذه الخلال أنفع لأمته ووطنه من ألوف العبيد الذين يلبسون ثياب السادة وهم أذلاء ، ويتشدقون بأخبار الفضائل وهم فى أنفسهم من أهل البغى والفسوق

إن الأديب الحق هو الذى ينقل قراءه من ضلال إلى هدى ، أو من هدى إلى ضلال ، هو الذى يبدد مافى أنفس قرائه من الأمن

والسكون ، ويشغلهم بعواطفهم ونوازعهم وأهوائهم، ويقيم الحرب بينهم وبين ما فى قلوبهم من أصول الشر والخير والغدر والوفاء ، لأن الأمن والسكون لم يكونا إلا من صور الجمود ، ولو شئت لقلت من صور الموت ، وإن غضب الفيلسوف فلان

أكتب هذا وقد سئل فلان عنى : فشاء له أدبه أن يقول « إن مذهب زكى مبارك فى الأدب سيفسد عشرة أجيال » وأنت ياهذا ماشأنك حتى تعادينى فى سبيل ما سأفسد من الأجيال ؟ إنك لرجل ميت ، والعداوة بينى وبينك هى العداوة بين الموت والحياة، إن كان يستطيع الموت أن يعادى الحياة

أنا الذى سيفسد عشرة أجيال ؟ إذن ما بالكم تسرقون كل ما أكتب وكل ما أقول ، إنكم لتنهبون منى كل شىء حتى الألفاظ والتعابير ، ولو شئت لدللت الناس على آثارى فيما تكتبون وما تقولون وسترون إن امتدت الخصومة بينى وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك وكيف أوردكم موارد الحتف وإن اعتصمتم بشاهقات البروج

إن الذين يعادوننى لا يعرفون عواقب ما يصنعون ، انهم لا يعرفون أن العداوات تمد دمى بفيض من قسوة الحديد، انهم يجهلون أن الهدوء يفسد أمعائى ويحوجنى إلى زيارة الطبيب ، فأوغلوا ما شئتم فى البغضاء فان لى فى ذلك مغانم كثيرة تصل على أيديكم بلا جزاء ولا ثواب

وأنتم ، ياقرائى ؛ ما رأيكم ؟ أتروننى من الأشرار ؟ وكيف وما

كنت فى حياتي باغيا ولا عاديا ، لقد ابتدأت حياتى الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو خلانى الناس وشأنى لعشت بلبلا وديعا لا يسمعون منه غير أنغام الحنين ، ولكن لؤم اللئام حولنى إلى إعصار عاصف يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر ، والطير والحيوان ، ولا أذكر الانسان فما سمعت بأخباره فى هذا الزمان !

أما بعد فلله نعمة فى كل شىء ، ومن أجل نعمه على الأديب أن يخلق له من المكاره ما يوقظ حسه ، ويرهف وجدانه ، ويقهره على حمل السيف. وقد جربت ذلك فى نفسى وفى قلبى ، وهل من القليل أن يشعر الرجل بأن حياته هول يقاسيه الخصوم فى اليقظة والمنام ؟

انظروا فسترون أن « فلانا » الذى ذكرته فى هذا المقال سيفزع من أجله الف فلان ، فليس لى عدو واحد وإنما هم ألوف ، وقد يكون أبعدهم عن البال هو الذى سيعانى أخطر الأهوال بعد قراءة هذا المقال فلا تجزع يافلان فلست أعنيك ، إنما أعنى رجلا غيرك يتجلد ويتصبر فى بعض الأحيان .

فان لم يكن بد من التخصيص ـ لتهدئة الرأى العام فى صفوف الأعداء ـ فأنا أصرح بأننى لا أعنى إلا ذلك الرجل الجليل الذى زعم لمحدثيه أن مذهب زكى مبارك فى الأدب سيفسد عشرة أجيال ، فان لم ينزجر فسنرجع اليه باسمه الصريح (وفى هذا بلاغ لقوم يعقلون)

٢٥ يوليه سنة ١٩٣٥

الى الاستاذ سلامه موسى

قرأت كلمتك الطيبة التى تدل على ما فطرت عليـــه من أدب وذوق ، وعز على أن تقول فى شرح ما شجر بينى وبينك من خلاف :

« ولو لم يكن الجدل بيننا على صفحات القرطاس فى الشؤون الأدبية لانتهى فيما أظن بأن يمسك كل منا بخناق الآخر »

ولك أن تطمئن من هذه الناحية فان تلك الزوابع التى ثارت بينى وبينك لم تستطع أن تكدر ما فى القلوب ، وما أذكر أنى اقتحمت معركة أدبية إلا وأنا أعتقد أني أجاهد فى سبيل الحق ، فاذا كنت خاصمتك مرة أو مرتين فانى لم أفعل ذلك حبا فى الجدل والملاحاة ، وإنما صنعت ما صنعت وأنا طاهر القلب والوجدان ، ومن واجبك أن ترحب بالعنف حين يوحى به الصدق ، ولا سيما إذا تذكرت أنى لا أكيد ولا أغتاب ، ولا أسمح لنفسى بالهجوم على أحد فى السر إلا بقدر ما أستبيح الهجوم عليه فى العلانيـــة ، واسمح لى بعد هذا أن أقول إنك شرحت صدرى بما كتبته عنى ، ويسرنى أن أسمع من مثلك كلاما مثل الذى قلته عن كتاب النثر الفنى ، وهـذه الشهـادة لا أستكثرها عليك ، فقد تفضلت بتقديم

مؤلفاتي إلى قرائك مرات كثيرة قبل أن ترانى ، وفى هذا دليل على أنك تهتم بالفكرة قبل أن تهتم بالأشخاص ، وذلك خلق عظيم

وقد وقفت عند قولك عن مؤلف النثر الفنى

« يجب بالحق أن نخجل من مجازاته على هذا الاحسان بمحاربته فى عيشه وعمله

ولست أشك فى أن الجامعة المصرية تخسر باخراجه منها أكثر مما يخسر هو ، فان رجلا له مثل كفاءته يستطيع أن يجد العيش الرحب والفرصة المواتية لخدمة الأدب فى مدرسة فرنسية أو أمريكية بالقاهرة ، ولكن هذا الايلام للنفس يعكر صفوها ويشكك الانسان فى القيمة التى تعود عليه من الاخلاص والجد »

وأنا أقول إنى لن أشك يوما فى قيمة ما يعود على الرجال من الجد والاخلاص ، وقد درست نفسى غير مرة فرأيت حالى أحسن الأحوال ، وما أذكر أنى كنت أعرف ضيق العيش إلا وأنا موظف فى الحكومة المصرية التى خدمتها نحو خمس سنوات فلم أصب منها غير سوء الجزاء

وأقسم ما فكرت فى المنافع المادية حين توليت التدريس بالجامعة المصرية وإنما كان همى أن أغرس الشوق إلى الدرس فى نفوس تلاميذى ، وقد ألقيت فى صدورهم جذوة لن تخمد ولن ينالها سكون ، ولئن قضت الأغراض بأن أبعد عن الجامعة فان زملائي سيذكرون دائما أنى تركت فى أنفسهم آثارا أطيب من المسك ،

وقد حزنوا لفراقى حزنا أليما .

أما الاحقاد التى تتلظى فى صدر طه حسين فستقضى عليه شر قضاء ، وستنكل به تنكيلا ، ولن تدوم له أيام الطغيان ، ولن يبقى له فلان وفلان ، والكرسى الذى يجلس عليه فى الجامعة هوأقل ما أنتظره من الجزاء فى المستقبل القريب ، وما العدل على الله بعزيز إنما هى محن يبتلينا بها لنظفر برياضة العقل والقلب والروح ، فله الحمد على ما قضاه

إن أعظم منصب فى الجامعة المصرية لاينيلنى من المجد مثل ما انالنى كتاب النثر الفنى ، وستفنى أحجار الجامعة المصرية وتبيد ذكرياتها ، ثم يبقى ذلك الكتاب على الزمان

والذين يحاربوننى لم يطمعوا فى محاربتى إلا لظنهم أننى رجل أعزل ، لاأنحاز إلى حزب من الأحزاب ، وليس لى فى الحكومة عم ولا خال

ولكن خاب ظنهم ، فان الحق أعز وأقوى ، وسيرون كيف أزلزل أرواحهم ، وكيف أملأ قلوبهم بالرعب ، وكيف أريهم عواقب ما يصنعون

إن النصر سيكون حليف من يصلون النهار بالليل فى تثقيف عقولهم ، أما الثرثرة الفارغة التى يعتصم بها أمثال طه حسين فلن يكون لها فى عالم الجد بقاء

بعد فأنا أعرف أن أمامى مصاعب كثيرة ، وأعرف أني أقف

وحدى فى ميدان القتال ، ولكنى لن أحزن ولن أضعف ، وحسبى من النصر أن أكون غصة فى حلوق المبطلين والمرجفين

١٥ أغسطس سنة ١٩٣٥

قصيدة حافظ فى حشمت باشا

نشرت جريدة السياسة فى ١٧ يونيه سنة ١٩٢٦ قصيدة عينية للشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم فى رثاء المغفور له نصير اللغة العربية أحمد حشمت باشا . ولقد قرأت تلك القصيدة مرات كثيرة وقيدت ما فيها من جيد المعنى ورائع الخيال ، ثم بدا لى أن أكتب عنها كلمة وجيزة وفاء لهذا الشاعر الذى انفرد بالاجادة فى مواقف الوفاء

ولنذكر أولا أن الشاعر لم يجد بهذه القصيدة إلا وهو موجع حزين ، وهو فى حزنه هذا يشعر القارىء بأنه صادق اللوعة مجروح الفؤاد ، ولقد يندر أن تجد نفساً تصدق صدق حافظ فى بكاء الذاهبين من الأصدقاء إلى عالم البقاء ، ولننظر كيف يقول فى المطلع

حبس اللسان واطلق الدمعا ناع أصم بنعيك السمعا

وكيف أشاد باحسان الشيخ محمد عبده إليه مع تقادم العهد

لك منة قد طوقت عنقى ما أن أريغ لطوقها نزعا

مات الامام وكان لى كنفاً وقضيت أنت وكنت لى درعا

فليشمت الحساد فى رجل أمست مناه وأصبحت صرعى
ولتحمل الأيام حملتها غاض المعين وأجدب المرعى

وليتأمل القارىء روعة التعبير فى قوله يبكى نفسه « أمست مناه وأصبحت صرعى » ولينظر كيف دق المعنى حين جمع الشاعر بين اللفظتين « أمست » و « أصبحت » فهو يشير إلى انه موصول الياس دائم القنوط ، وقد أكد هذا المعنى بقوله بعد ذلك « غاض المعين واجدب المرعى » وهو خيال بدوى ، ولكنه جميل . ثم قال

إنى أرى من بعده شللا بيد العلى وبأنفها جدعا
وأرى الندى مستوحشاً قلقاً وأرى المروءة أقفرت ربعا
قد كان فى الدنيا ابو حسن يولى الجميل ويحسن الصنعا
ان جاء ذو جاه بمحمدة وترا شآه بمثلها شفعا
فاذا نظرت الى أنامله تندى حسبت بكفه نبعا
سلنى فانى من صنائعه وسل المعارف كم جنت نفعا
قد أخصبت أم اللغات به خصبا أدر لأهلها الضرعا
تالله لولا أن يقال أتى بدعا لطفت بقبره سبعا

ثم أخذ يشكو ظلمات الحياة بعد ذهاب الأوفياء فقال :

قد ضقت ذرعا بالحياة ومن يفقد أحبته يضق ذرعا
وغدوت فى بلد تكنفنى فيه الشرور ولا أرى دفعا
كم من صديق لى يحاسننى وكأن تحت ثيابه أفعى
يسعى فيخفى لين ملمسه عنى مسارب حية تسعى

كم حاولت هدمى معاولهم وأبي الاله فزادنى رفعا
اصبحت فردا لا يناصرنى غير البيان واصبحوا جمعا
ومناهمو أن يحطموا بيدى قلما اثار عليهم النقعـا
ولرب حر عابه نفر لا يصلحون لنعله شسعـا

وتلك نفثة قد تبدو نابية عن السياق . ولكنها فى الواقع وصف لغربة الشاعر فى الحياة . وفى تلك الغربة الموحشة تتبين النفس قيمة الصديق الغالى الذى تقفر بموته مذاهب الايناس . ثم عاد الشاعر إلى موضوعه فقال :

من ذا يواسينى ويكلؤنى فى هذه الدنيا ومن يرعى
لا جاه يحمينى ولا مـدد عنى يرد الكيـد والقذعا
بك كنت أدفع كل عادية وأجيب فى الجلى إذا أدعى
وأقيل عثرة كل مبتئس وأفى الحقوق وأنجح المسعى
حتى نعى النـاعى أبا حسن فوددت لو كنت الذى ينعى

وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر أنه كان يدفع كل عادية ، ويجيب فى كل شدة ، ويقيل كل عثرة ، ويفى كل حق ، بفضل ما كان لذلك الفقيد من وافر المعروف . أحسن الله له الجزاء

ولم يفت الشاعر أن يذكر أن صلته بذلك الوزير لم تسلم من كيد الوشاة ، ولكنها كانت أعز وأمنع من أن تذهب بها الأعاصير

غيظ العداة فحاولوا سفهـا منهم لحبل ودادنا قطعـاً
راموا له بتا — وقد حملوا ظلماً — فكان لوصله أدعى

﴿ تم الجزء الثانى من كتاب البدائع ﴾

فهرس

(الجزء الثاني من كتاب البدائع)

